الوجيز

في فقه اللغة العربية

تأليف

عبد القادر محمد مايو

مجاز في اللغة العربية وآدابها

مجاز في علوم التربية

مراجعة وتدقيق

أحمد عبد الله فرهود

دار القلم العربي

منشورات

دار القلم العربي بحلب

جميع الحقوق محفوظة

الطبعه الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

عنوان الدار

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف ٢١٣١٢٩ | ص.ب ٧٨ | فاكس ٠٢١٢١٢٣٦١

الفهارس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
الباب الأول	٩
الفصل الأوّل : التعريف بفقه اللغة	١٠
– التعريف اللغوي .	١٠
– فقه اللغة بالمعنى الاصطلاحي .	١١
– بين علم اللغة وفقه اللغة .	١٣
الفصل الثاني : نشأة اللُّغة	١٩
– مقدّمة في نشأة اللغة .	١٩
– النظرية التوقيفيّة .	١٩
– النظرية الاصطلاحية والصوتيّة.	٢١
– النظرة التحفّظية .	٢٢
– خلاصة عامة في نشأة اللغة .	٢٤
الفصل الثالث : شجرة اللغات الساميّة	٢٩
– شجرة اللغات السامية .	٢٩
– اللغة العربية البائدة .	٣٣

الموضوع	الصفحة
- اللغة العربية الباقية .	٣٤
- خصائص اللغات السامية وصفاتها المشتركة	٣٧
الفصل الرابع : علم الأصوات .	٤٠
- أهميّة علم الأصوات .	٤٠
- علم الأصوات اللغويّة .	٤٢
- الأصوات في اللغة العربيّة .	٤٣
- طوارىء الأصوات العربية .	٥٠
- رصد التبدّلات الصوتيّة .	٥٣
الباب الثاني	٥٥
الفصل الأوّل : اللغة والمجتمع الإنساني	٥٦
- اللغة أهم الظواهر الاجتماعية المتطورة.	٥٦
- بين الفصحى والعامية.	٥٩
الفصل الثاني : تطور اللغات	٦٦
- منحى التطور اللغوي .	٦٦
- حركة التجديد في اللغة .	٦٨

الموضوع	الصفحة
الفصل الثاث: ملامح من الفقه اللغوي المقارن	٧٤
– تمهيد .	٧٤
– نظرة مقارنة .	٧٥
– التصنيف الأممي الجغرافي .	٧٨
– تطبيق مقارن .	٨١
الفصل الرابع : إشكاليات الترجمة والنقل	٩٢
– بين اللغة المحكيّة والنصّ المترجم .	٩٢
– حركة الترجمة بين الرّواج والخمود .	٩٥
– الفرق بين الترجمة والتعريب .	٩٧
– إشْكاليات الترجمة .	١٠٠
الباب الثالث	١٠٥
الفصل الأول : معالم اللغة العربية الفصحى	١٠٦
– النحو والإعراب .	١٠٨
– الصرف وعلم بنية الكلمة .	١١٣
– البلاغة .	١١٦
– المتون اللغوية .	١١٩

الموضوع	الصفحة
الفصل الثاني : خصائص اللغة العربية	١٢٥
– الأصـــل الـســـماعي .	١٢٥
– ظـاهـــرة الإعـــراب .	١٢٦
– مناســبـة الحروف لمعانيها .	١٢٩
– قابليّة الاشتقاق والنحت .	١٣١
– ثـبـــات الأصـــوات .	١٣٤
– الـغـــنـى الـمُعـجّمـي .	١٣٦
الفصل الثالث : تطوّر الدّلالة	١٤٢
– علم الدّلالة وآفاقه بوجهٍ عام .	١٤٣
– تطوّر الدّلالة في اللغة العربيّة .	١٤٥
– اتجاهات التطـوّر الـــدّلالي .	١٤٧
الباب الرابع	١٥١
الفصل الأول من أعلام التأليف اللغوي في القديم	١٥٢
– ابـــن جـنـــي وكتـــابه " الخصـائص" .	١٥٣
– ابـن فارس وكتابه " الـصاحـــبيّ " .	١٥٨

الموضوع	الصفحة
– الثعالبي وكتابه"فقه اللغةوسرّالعربية" .	١٦٢
– السُّيوطي وكتابه " المُزهر " .	١٦٦
الفصل الثاني نُصوص مختارة في فقه اللغة	١٧٠
–أولاً : من الخصائص لابن جنيّ .	١٧٠
– ثانياً : من الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها .	١٧٤
– ثالثاً : من فقه اللغة وسرّ العربية للثعالبي .	١٧٦
– رابعاً : من المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي .	١٧٩
الفصل الثالث:فقه اللغةفي الكتب المعاصرة	١٨٣
– مفهوم فقه اللغة من الماضي إلى الحاضر .	١٨٣
– كُتب ودراسات في فقه اللغة .	١٨٦
– محمد المبارك وكتابه : " فقه اللغة وخصائص العربية "	١٨٨
علي عبد الواحد وافي وكتاباه : " علم اللغة " و " فقه اللغة "	١٨٩

الموضوع	الصفحة
محمود السعران وكتابه : " علـــم الـلـغـة "	١٩٠
تمام حسان وكتابه : " مناهـــج البحث في اللغة "	١٩٢
إبراهيم أنيس وكتابه : " الأصـــوات اللـغـويـة "	١٩٣
صبحي الصالح وكتابه : " دراســات في فـقـه اللغة "	١٩٤
خاتمة الكتاب	١٩٧
الـــفهـــرس	٢٠٩

مُقدِّمة الكتاب

الحمد لله الذي علم آدم الأسماء كلَّها ، والذي أنزل القرآن المبين على خاتم النبيّين محمّد صلى الله عليه وسلم الذي لم يخف انتماءه إلى قريش باعتبارها أفصحَ العرب وإلى العرب باعتبارهم أفصح الأمم ، وأرقاهم لغة وتعبيراً ، وبعد فلم يكن من السهل الخوض في غمار :

((فقه اللغة)) كعلمٍ من العلوم التي يتزود بها الدارس في كلية الآداب والعلوم الإنسانية من كل جامعةٍ من جامعات العالم ، ذلك لأنّ ((فقه اللغة)) علم قديم بقدر ما هو متجدّد ، وهو العلم الكبير الذي يفرض على دارسه أن يتلقاه بالمقارنة بين لسانين فأكثر من ألسنةِ البَشَر ، فهو علم مقارَن بطبيعته ، وهو العلم الذي احتدم حوله الخلاف من شكله إلى مضمونه ومن اسمهِ إلى مسمّاه . فبينما ((فقه اللغة)) هو ((علم اللغة)) نفسُه عند فئةٍ من الدارسين ، نجده علماً آخر مختلفاً عند فئة أخرى ، ولكلٍّ حُجيّته في هذا المنحى أو ذاك .

أمّا نحن في هذا الكتاب الوجيز فقد اعتمدنا موقفاً وسطاً ، انطلاقاً من مبدأٍ أساسيٍّ وافق عليه الطرفان المتنازعان ، ويرجع إلى أقدم اهتمام من اهتمامات اللغويين العرب عند العالم الفذ ((ابن جني)) في كتابه ((الخصائص)) فلقد جاء في مطلع الجزء الأوّل منه باب القول على اللغة وماهي :

((أمّا حَدُّها ، فإنّها أصواتٌ يعبِّرُ بها كُلُّ قوم عن أغراضهم ، هذا حدُّها ، وامّا اختلافها ، فَما سنذكره في باب القول عليها أمُواضعةٌ هي أم إلهام))* .

فانطلاق العلم اللغوي من أن اللغة مجموعة أصوات أمر متفق عليه ، وكونُ هذه الأصوات ليست وقفاً على قومٍ دون قوم ، بل هي أسلوب متداول بين جميع الأقوام وفق ما اصطلحوا عليه فيما بينهم ذلك جانبٌ هام يحيط به كُلُّ مهتم بفقه اللغة أو بعلم اللغة على حدٍّ سواء .

---

* الخصائص جـ ١ مطبعة الهلال بمصر ص ٣١ .

وقد توافق تقديسُ العربُ لدينهم ومصالحهم الشرعيّة وتقديسهم للغتهم التي هي وسيلتهم إلى التفقه في الدين فشملوا العلم اللغويّ بما شملوا به العلم الدينيّ ففي الدين فقهاء ، وفي اللغة فقهاء ، باعتبار الفقه هو أوْسع العلم أو هو الجمع بين العلم والفهم .

وإذا نظرنا إلى الموضوع بمنظار معاصر لم نجد ما يمنع ((علم اللغة)) Linguistics من أن يقع في خدمة ((فقه اللغة)) Philologg باعتباره الإطار الأوسع ، وباعتباره العلم التاريخي المقارَن بالنسبة لعلم اللغة القائم على ملاحظة الأصوات ضمن الحروف أوّلاً ، وضمن البُنى الصرفيّة ثانياً ، وضمن المفهوم الدّلاليّ ثالثاً .

عندما تَشمَّرَ علماء اللغة الغربيون لدراسة اللسانيات انطلقوا من اهتمامات هندية قديمة جدّاً لدى ((با نيني)) Panini وهو نحوي هندي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد وصف القوانين الصوتية والنحوية للغة السنسكريتية وصفاً يبلغ درجة كبيرةً من الدقة * ، واهتدى الألمانيّ ماكس مولر Max Muller إلى فصائل اللغات وصنف فيها أشهرها ، بينما قسّمها العلامة شليجل Schlegel إلى تحليلية وإلصاقية وعازلة وفق طبيعتها في مدارج التطوّر . ومن خلالِ رؤية عامّة جدّاً وشاملة جدّاً انطلقنا في نظرتنا إلى فقه اللغة العربيّة ، ولم نقتصر على التراثيّات وحدها ولا على الحداثيّات وحدها .

ولا ننكر فضل الدراسات المعاصرة باللغة العربية سواء ما تعنون منها بفقه اللغة أو بعلم اللغة ، ولذلك أعطيناها مكانتها من الدرس ، ولم نكتف بالإشارة إليها في الحواشي .

قبل عقودٍ من الزمن ، أحالنا أساتذتنا في كلية الآداب (قسم اللغة

---

* ((علم اللغة)) للدكتور محمود السعران ص ٣١٨ .

العربية) إلى ماتوفر من كتب مثل كتاب جرجي زيدان : ((الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية)) ، وكتاب جبر ضومط : ((فلسفة اللغة العربية وتطورها)) ، ولم نستطع في حينها التقاط عناصر محدّدة من ((فقه اللغة)) ، واكتفينا باقتباس نصوص قصيرة وشواهد استحضرناها للدراسة جنباً إلى جنب مع نصوص مختارة من ((الخصائص)) و ((الصاحبي)) ، و ((فقه اللغة للثعالبي)) ، وكأنّها كانت مرحلة تمهيدية قبل أن يؤلّف أساتذتنا كُتباً متخصّصة في ((فقه اللغة)) ، وبعد أن تخرّجنا وصرنا إلى احتراف التدريس ، شرعت المكتبة العربية تَغْنى ، فظهر كتابٌ لأستاذنا محمد المبارك بعنوان ((فقه اللغة وخصائص العربية)) ، وظهر كتابٌ آخر أوسَع مجالاً توخى الدقة والإحاطة ، لأستاذنا الدكتور ((صبحي الصالح)) وعنوانه ((دراسات في فقه اللغة)) ، وانشغلت الساحة إياها بكتاب الدكتور محمود السعران ((علم اللغة)) .

ونظر الدكتور عبده الراجحي إلى ماحوله نظرة موضوعية ولكن دون خوضٍ عميق ، فانتهى إلى تأليف كتابه : ((فقه اللغة في الكتب العربية)) الذي قررت دراسته في قسم اللغة العربية من كلية الآداب ، وكان منه انطلاقُنا في تأليف ((الوجيز في فقه اللغة)) لنستطلع جميع المؤلفات باللغة العربية في هذا الميدان العويص .. وبينما لم يتسم واحدٌ من المؤلفات الحديثة بفقه اللغة مذ كان كتاب الدكتور علي عبد الواحد وافي في الأربعينات من القرن العشرين ، جئنا لنسميّ كتابنا بما سمّيناه ، اعترافاً منّا بسعة ((فقه اللغة)) سعة لا ندّعي الإحاطة بها ، واعترافاً آخر بفضل العلماء المهتمين بميدانه قديماً وحديثاً ، عرباً وأجانب ، إذ أخذنا من كلِّ غيثٍ قطرةً ولكن ضمن منهجٍ واضح مبين لم يهمل عنواناً من العناوين التي يتطرّق إليها هذا العِلْم ، على حدِّ تقديرنا .

ولن يفوتنا التنويه بمجهود زميلنا الأستاذ المرحوم محمد الأنطاكي في مؤلّفه ((دراسات في فقه اللغة)) وبعده كتابه ((المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها)) وكأنه يرمي إلى تغطية الحاجة الملحّة للإحاطة بفقه اللغة لدى طلابه بعد أن نُقل مدرّساً للّغويات في قسم اللغة العربية من كليّة الآداب بجامعة حلب .

إنّها محاولة لا ندّعي لها النجاح قدر ما ندّعي لها الصدق والإخلاص ، في وضع دارسينا على بداية الطريق إلى الإلمام بفقه اللغة وحسم المشاكل التي كانت على الدرب .

نرجو الله تعالى أن يجعل هذا الجهد في خضم ((العلم الذي يُنتفع)) به ليدّخره لَنا ، ولصاحب دار النشر الذي تبنّاه الأستاذ علاء الدين الرفاعي ، على نية خدمة العربيّة التي عُدّ التفقّه فيها من قبيل التفقّه في الدين ، والله من وراء القصد ؟

حلب

الاثنين ١٤ رمضان ١٤١٨ هـ

١٢ كانون الثاني ١٩٩٨ م

اَلْبَابُ الْأَوَّلُ

الفصل الأول :

التعريف بفقه اللغة .

الفصل الثاني :

نشأة اللغة .

الفصل الثالث :

شجرة اللغات السامية .

الفصل الرابع :

علم الأصوات .

الفصل الأول
اَلتَعْرِيفُ بِفِقْهِ اللُّغَةِ

التعريف اللغوي :

كثيرةٌ هي المفردات التي نحا بها التطوّر ، واقتضتها الحاجة لتغيّر معناها المعجمي إلى معنى آخر جديد هو المعنى الاصطلاحي .

فالصلاة التي هي الفرض الأوّل من فروض العبادة في أصلها الدعاء ، والزكاة المفروضة على أموال كلّ مسلم ليؤدّيها بعد تحقق النصاب الشرعي ، هي في الأصل النماء والزيادة ، والحجّ هو القصد إلى المكان قبل أن يكون فرضاً خامساً من فروض العبادة الإسْلامية .. أمّا عن الفقه لغةً فهو بالاختصار الشديد الجمع بين العِلْم والفهم وهو بعد ئذٍ منوط بما يضاف إليه ، وإن كان الاصطلاح قد جرى به أوّلاً مجرى العلم والاطلاع في أوسع مداه على أحكام الشرع الإسلامي بالإضافة إلى الإيمان بأركانه التي لا بدّ منها ، وهذا ما دَرَج عليه الاستعمال بدءاً من أواسط القرن الثاني للهجرة بظهور الأئمة الفقهاء ..

جاء في لسان العرب لابن منظور في مادّة فَقَهَ ما يلي : ((الفِقهُ : العِلمُ بالشيء والفهمُ له ، وغلبَ على الدين لسيادته وشرفِهِ وفضله على سائر أنواع العلم .. وقد جعلَهُ العُرْفُ خاصّاً بعلم الشريعة شرّفها الله تعالى .)) وفي استقراء المادة كلّها نجد من معاني الفِقه : الفطنة والحِذْق . راجع المادّة في لسان العرب .

ويحق لنا أن نتساءل هاهنا ، ماذا تعني كلمة فقه اللغة بعد الإضافة ؟ وهذا ما سنجعله موضع نظرٍ في الفقرة التالية .

فقه اللغة بالمعنى الاصطلاحي :

من أغرب مايصادفه الباحث في فقه اللغة أنّ هذا الاسم المركب تركيباً إضافيّاً ، لم يكوّن لدى الباحثين جميعاً أيَّ تعريفٍ محدّد مع أنه قد استُخْدِم عُنواناً لأكثر من مُؤلَّفٍ وكتاب .

منها : ((الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها)) لأحمد بن فارس المتوفى عام ٣٩٥ هـ ، وكتاب ((فقه اللغة وسرّ العربيّة)) لعبد الملك أبي منصور الثعالبي المتوفى عام ٤٢٩ هـ .. امتداداً إلى العصر الحديث ، ومن مؤلّفاته كتاب : ((دراسات في فقه اللغة)) للدكتور صبحي الصالح ، وقبله ((فقه اللغة)) للدكتور عليّ عبد الواحد وافي ، على سبيل المثال لا الحصر .

وإذا فكّرنا في سببٍ مقنع لإحجام معظم الكتب والمراجع التي عنيت بفقه اللغة ، وعُنونت بِهِ ، إحجامها عن تعريف هذا العلم نجد في المحصّلة جملةً من الأسباب دعت إلى هذا الإحجام ، لا سبباً واحِداً .. وهذه الأسباب كما تحصّرنا الآن هي :

١- اتّساع هذا العلم بحيث إنه في حقيقتهِ علم العلوم اللغوية كلِّها ، مما يصعب حصْرُه ضمن تعريف موضوعيٍّ شامل .

٢- الاختلاف الشديد القائم بين علماء اللغة حول تفسير مصطلح : علم اللغة ومصطلح ((فقه اللغة)) والتفريق بينهما .

٣- عدم استقرار هذا العلم بما يتناول من موضوعات واهتمامات ، وبما يترك لغيره من العلوم اللغوية واللسانيّة .. وهذه الظاهرة من عدم الاستقرار امتدّتْ عبر العُصور وما تزال خاضعة لمفاجآت جديدة عن طريق المكتشفات العلميّة المستمرّة واستخلاف آليّاتٍ بآليات أحدث بين عَقْدٍ وعقدٍ من الزمان .

٤- عدم كفاية المراجع القديمة التي تسمّت بهذا الاسم ((فقه اللغة)) ، في مادّتها ومحتواها ومضامينها ، فكأن إطلاقها على نفسها اسم ((فقه اللغة)) جاء على سبيل المصادفة أو الارتجال غير المجزئ والمجدي .

وقد اقتنع بعض الدّراسين الذين اضطلعوا بتدريس فقه اللغة في كليّاتٍ جامعية ، وكما استنطقتهم ، بأن فقه اللغة هو العلم الذي يتناول اللغة العربية وملامحها وخصائصها وفقاً للمناهج القديمة أو التاريخيّة ..

وهذا التعريف مهما دنا من الموضوعية والدقة ، لا نجدُهُ على مستوى الأمر الواقع ، والدرجة التي يطمح إليها أربابه من الإحاطة والشّمول والإنصاف للعلم نفسه .

إنّ الإلمامَ بالعديد جدّاً من كتب فقه اللغة قديمها وحديثها يضعنا أمام تعريفٍ جامعٍ لهذا العلم الضارب أطنابه من جذور شجرة اللغة العربية إلى فروعها وقممها المستحدثة ، هذا التعريف يقول :

فقه اللغة هو علم العلوم اللغوية ، ويقصد بعلم العلوم اللغوية أنه علم الكليّات اللغوية الذي يتناول من كلِّ لغةٍ نشأتها ، ومعالمها ، وتطوّرها .

النشأة : هي المرحلة البدائية غير المقنّنة مذ كانت اللغة الإنسانية أصواتاً غير مكتوبة أو نقوشاً صخريّة متفاوتة الدلالة على المعاني وإن تشابهت رسومُها .

المعالم : وتمثّل المرحلة المقنّنة المحكومة بتقاليد النحو والصرف والاشتقاق والتوافق الدّلالي بين المنطوق ومعناه ، والكلمة المكتوبة ومعناها ، مما انطلق منه فيما بعد تأليف المعاجم اللغوية .

التطوّر : ويتناول عن طريق فقه اللغة كافّةَ المناحي التي نحتتْ إليها اللغات ، والتي تُبرزُ اللغة كائناً حيّاً لا يعرف الاستقرار على مدى العصور وممّا يساعد على رصد هذا التطور الذي يلمّ به فقه اللغة علم قائمٌ بذاته هو علم اللغة الذي سيلي ذكرُه مع المقارنة بينه وبين فقه اللغة .

وإذا صحَّ في الفقهِ عموماً أنّه أوسعُ العلم يصحّ في الوقت نفسه تعريفُنا الشامل لفقه اللغة كما أوردناه من الإحاطة بالتاريخ والمعالم والتطوّر . فيما يتعلق بكل لغةٍ من اللغات البشرية ومنها اللغة العربية .

وهذا التعريف الراصد لموضوعات فقه اللغة يضعُ في الحسبانِ قطعاً أن المتعامل مع فقه اللغة دارساً أو مدرّساً أو مؤلّفاً سيكون قُربُهُ من الإحاطة به ، على قدْر قربه من الإحاطة بمعالم لغته الأصليّة من جهةٍ ، ومعالم لغاتٍ أجنبيّةٍ من جهة أخرى .. ولا شيء يمنعُ هؤلاء المهتمين بفقه اللغة من حصره في نطاق لغةٍ واحدةٍ هي لغتهم الأصليّة ، وخصوصاً بعد أن وُضعت المترجمات من الكتب ، والمعممات من الاكتشافات والأبحاث بلا استثناء ، وعلى كلِّ ذي لغةٍ أن ينطلق من لغته الأمّ لأنها تعنيه قبل سواها وهذا يعني أن كتابنا في فقه اللغة هو كتابٌ في فقه اللغة العربيّة أوّلاً .

بين علم اللغة وفقه اللغة :

في أحدث كتابٍ صدر في علم اللغة بعنوان ((موجز تاريخ علم اللغة*)) ، يقصر اختصاص علم اللغة على الأصوات وحدها ، لأن اللغة أياً كانت ، هي عبارة عن عالمٍ من الأصْوات ، أمّا اللغة المكتوبة فهي ليست من اللغة الطبيعية ، بل هي مجموعة رموز بصريّة ناقصة ومليسة في كثيرٍ من الأحوال للرموز الصوتية .. مهما كان نوعُ هذه الرموز البصرية ، فاللغة شيءٌ والكتابة شيءٌ آخر ، وبينما يقعُ عدد اللغات في العالم بين أربعة آلاف إلى خمسة آلاف لغة ، نجد عدد أنظمة الكتابة يُعَدُّ على أصابع اليدين ، وأشهرُها النظام : اللاتيني ، والسيريلي اليوناني ، والعربي ، والأمهري** ، والصيني ، وقد استعارت هذه اللغات من بعضها أنظمة

---

* تأليف ر . هـ . روبنز ، ترجمة أحمد عوض ، سلسلة عالم المعرفة ، رقم ٢٢٧ .

** هي اللغة الحبشية المنحدرة من أصلٍ ساميّ . انظر (فقه اللغة) للدكتور علي عبد الواحد وافي ص ٨٨ .

الكتابة يوم كانت التركية تكتب بالحروف العربية ، إلى أن كُتبت بالحروف اللاتينية ، ويوم كتبت اللغة الفارسية بالحروف العربية وما تزال ، والشواهد على ذلك كثيرة .

وفوق هذا نجد اللغة العربية المكتوبة ليست موحّدة الخُطوط ، فهناك من الخطوط أنواع كالرقعة والنسخ والفارسي والثُلث والديوانيّ* ..

وإذا شئنا عدم الخلط بين منهج علم اللغة ، واهتماماته وبين منهج فقه اللغة واهتماماته ، كان علينا أن نحدد الفروق بينهما بشكل دقيق لنحصر اهتمامنا في هذا الكتاب بفقه اللغة وحده .

لقد حاولتْ بعض المراجع الجامعية اللغويةِ شيئاً من هذا التفريق والمقارنة ولكنها لم تتوصّلْ إلى شيء واضحٍ محدّد ، فزادت الأمور التباساً وغموضاً** .

وقد أدرج الدكتور صبحي الصالح في كتابه ((دراسات في فقه اللغة)) مقوّمات فقه اللغة على شكل تعريفٍ ، أو على شكلٍ ما هو أقرب إلى التعريف عندما قال عن فقه اللغة : ((إنّه منهجٌ للبحث ، استقرائي وصفيٌّ ، يعرف به موطن اللغة الأول ، وفصيلتها ، وعلاقتها باللغات المجاورة أو الشقيقة أو الأجنبية ، وخصائص أصواتها ، وأبنية مفرداتها وتراكيبها ، وعناصر لهجاتها ، وتطور دلالتها ، ومدى نمائها قراءةً وكتابةً .

وأضافَ أنَّ البحوث الأساسية المذكورة في التعريف تتعلّق بعلوم ثلاثةٍ هي بإيجاز شديد : **التاريخ ، علم الأصوات ، علم الدلالة*** .

---

* انظر " موجز تاريخ علم اللغة " ص ٩ .

** انظر على سبيل المثال كتاب ((فقه اللغة في الكتب العربية)) للدكتور عبده الراجحي طبعة بيروت ١٩٧٩ ص ٥٤ .

*** انظر ((دراسات في فقه اللغة)) لصبحي الصالح ص ٢٢ .

وهذا التعريف بتفصيلاته يشبه أو يطابق ما عرفنا به فقه اللغة من أنه علم العلوم اللغوية بحاضرها المتأتّي عن الماضي والمتناهي إلى المستقبل ، وفق نظام التطوّر .

ولكنه لم ينته على أي حال إلى المقارنة وذكر الفروق الواضحة بين هذا وذاك ، بين علم اللغة وفقه اللغة .

وإليك أبرز الفروق بينهما كما بدت لنا من استعراض عدد من المراجع في علم اللغة وفقه اللغة .

أولاً : علم اللغة أضيقُ اختصاصاً وألصق بالصوتيات من كُلِّ لغةٍ بينما نجد فقه اللغة أوسع اختصاصاً وأكثر شمُولاً لتعلقه بنشأة اللغة وتطور معالمها بما فيها الجانب الدّلالي من المعنى إلى البلاغة إلى النقد المتذوِّق ..

ثانياً : علم اللغة يستهدف خدمة فقه اللغة عن طريق مدّه بالأصول النظرية للتطور كما اكتشفها من خلال استعراضه التاريخي لأحوال اللغات في مجتمعاتها . أما فقه اللغة فيستهدف خدمة اللغة نفسها وتطويرها نحو الأرقى ما بقيت حياتها مستمرّة .

ثالثاً : يمكن اعتبار علم اللغة هدفاً بحدِّ ذاته لدراسة اللغة وفق منهجٍ وصفيٍّ أو تاريخيٍّ أو منهجٍ مقارن دون أن يتجاوز حدوده في شيء بينما نجد فقه اللغة على ضخامته يُعَدُّ وسيلةً إلى غاية أخرى أضخم ، قد تمتدُّ إلى دراسة النقلة الحضارية للأمّة من خلال اللغة ، أو دراسة أدب الأمة بمنحاه العام وكحركةٍ إنسانية اجتماعيّة في آنٍ معاً .

لقد سلمّتْ الكتبُ المعنيّة بعلم اللغة ، والمعنيّة بفقه اللغة بصعوبة التفريق بينهما ولفتت عناية الدارس إلى الغموض الذي يكتنف المصطلحين مَعاً ، فلكلٍّ منهما مجاله الملاصق للآخر ، فعندما يوسّعُ علماء اللغة ميدان موضوعهم فيعالجون المعنى الدلالي مثلاً ، يكونون قد اقتربوا من مجال فقه اللغة* .

وفي الآونة الأخيرة ، وبدءاً من النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي ولد شيء اسمُهُ :

علم اللغة التحويلي أو التوليديّ بوصفه جزءاً من علم اللغة الوصفي التزامُني وكأنّ العملية في فحواها عملية انضمامٍ مؤقتة أو دائمة من علم اللغة إلى فقه اللغة وقد جاء على لسان المؤلّف الأوربيّ روبِنْز R . H . Robins في خاتمة كتابه ((موجز تاريخ علم اللغة)) ما ترجمتُه : والمؤرخ يجب عليه أن يتوقّف عن السَّرد عندما يصل إلى الوضع المعاصر ، ولكن التاريخ لا يظلُّ واقفاً عند ذلك ..

فإن فهم تاريخ العلم اللغوي ، وتقديره التقدير الصحيح سوف يمكّنانِ المؤرّخ من التفكير في حركات المستقبل ولعل هذا يسوّغ اختيار المدرسة التوليدية لإنهاء هذا العرض لتاريخ علم اللغة ، مادام كثيرٌ من أعضائها معنيين بالاكتشافات الجديدة التي تمكنهم نظريتهم من القيام بِها ، وبصلات هذه النظريّة بالبحوث اللغوية للأجيال السابقة .

ولعلّ اللغة هي أكثر ملكات النوع الإنساني إنسانيّةً على وجه الخصوص ، والإنسان في سعيه لفهم اللغة ومعرفتها – فإنه طوال تاريخه الفكريّ – كان يَسْعى تماماً لمعرفةِ ذاته** ..)) .

---

* انظر كتاب ((فقه اللغة في الكتب العربية)) للدكتور عبده الراجحي ص ٢٧ .

** ص ٣٦٣ و ٣٦٤ .

وقد انتهى الباحث الأستاذ محمد الأنطاكي في كتابه ((دراسات في فقه اللغة)) إلى تقديم المصطلحين الغربيين ((Linguistique)) و ((Philologie)) بشكلٍ يخالف الترجمة الحرفية لكلٍّ منهما فجعلَ كلمة ((La Linguistique)) تعْني فقه اللغة أو علم اللغة على أن لا فرق بينهما في الدلالة باللغة العربيّة .

وجعل كلمة ((Philologie)) خلافاً لترجمتها الحرفية مصطلحاً خاصّاً بمعالجة المشكلات المتّصلة باللسانين الإغريقي واللاتيني ، مما لا وجود له في تاريخ الدراسات اللغوية عندنا .

والذي يهمنا في الموضوع أنه قد ضمَّ علم اللغةَ إلى فقه اللغة من ضمن غاية واحدة هي الكشف عن القوانين التي تحكم الظواهر اللغوية ، ولكنه لم يصرّح بهذا الضمّ بأسلوب مباشر .

وقبل أن نختم موضوع المقارنة بين فقه اللغة وعلم اللغة يهمنا أن نذكر أن كلمة Philo التي وقعت سابقة في الكلمة المركبة Philologie معناها حبّ أو صداقة باللغة اليونانية التي درجت كلغة مصطلحات بدءاً من عصر النهضة الأوربية . ومنها كلمة فلسفة Philosophy التي تعني حبّ الحكمة وقد شاع إدراج كلمة فلسفة في أواخر القرن التاسع عشر و بدايات القرن العشرين سابقة إضافية لتعني ((التوسّع في العلم)) مهما كان ، فولدت كلمات : فلسفة المجتمع ، فلسفة التاريخ ، فلسفة الأخلاق ، ومنها فلسفة اللغة التي هي عنوان ومصطلح لفقه اللغة ، الذي يعني التوسّع في دراسة اللغة وأمورها .

---

* انظر ((دراسات في فقه اللغة)) محمد الانطاكي ص ١٠ .

وقد صدرت كتبٌ بعنوان فلسفة اللغة لأكثر من باحثٍ باللغة العربيـة . منهـا كتـاب الفلسـفة اللغويـة والألفـاظ العربيـة لجرجـي زيـدان* ، وكتـاب ((فلسـفة اللغـة العربية وتطوّرها)) لجبر ضومط** .

---

* طبع في مصر بتعليق الدكتور مراد كامل بلا تاريخ .

** طبع بمطبعة المقتطف والمقطم بمصر سنة ١٩٢٩ .

الفصل الثاني
نَشْأَةُ اللُّغَةِ

* مقدّمة في نشأة اللغة :

من الطبيعيّ في كتابٍ اتخذ عنواناً له : ((الوجيز في فقد اللغة)) أن يتعرض لنشأة اللغة كموضوعٍ استهلاليّ .. وإنّ التفكير بهذا الموضوع ليقودنا إلى أن اللغة قديمةٌ قدم الإنسان اقترن وجودها بوجوده أو تلاه مباشرةً ، ولكن السؤال المحيّر الذي تتفرع عنه أسئلةٌ هو السؤال الذي يرتبط بهذه النشأة :

كيف نشأت اللغة ؟ ما صورتها الأولى ؟ أهي وحيٌ من عند الله الذي علم الإنسان مالم يعلم ؟

أم هي من صنع الإنسان تلاقى فيها الفرد مع أخيه اصطلاحاً ؟ أم الحقيقة لا هذا ولا ذاك من الرأيين التوقيفي والاصطلاحي ؟

من واجبنا إذنْ ، عرض حجج هؤلاء وهؤلاء من علماء اللغة ، والانتهاء برأيٍ ما ، وهذا ما سوف نفعله بعرض النظريات مقترنةً باسماء أشهر أصحابها حتى نبلغ في النهاية إلى رأيٍ مقنع .

النظرية التوقيفية * :

عمدة هذه النظرية في فقه اللغة العربيّة اللغوي أحمد بن فارس ، في كتابه المشهور :

((الصاحبيّ في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها)) إذ جاء فيه ، في باب ((القول على لغة العرب ، أتوقيفٌ أم اصطلاح ؟)) :

---

* التوقيف : الوحي والإلهام الربّاني .

إنّ لغة العرب توقيف . ودليل ذلك قولُه – جل ثناؤه – : وعلّم آدمَ الأسماء كلّها .

وقد خاضَ ابن فارس في تفسير المقصود بكلمة الأسماء بأكثر من وجهة نظر ، وانتهى إلى تغليب الأسماء لتشمل كُلَّ مسمّى من أعلام ، وأعيان وذوات .. وقدّم دليله على أن اللغة توقيفية من عند الله بقوله : ((والدليل على صحّة ما نذهب إليه إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم ، فيما يختلفون فيه أو يتفقون عليه ، ثم احتجاجهم بأشعارهم)) ويضيف ما خلاصتُه أن الصحابة – رضي الله عنهم – رغم بلاغتهم وفصاحتهم لم يؤثر عنهم أنهم اصطلحوا على تسمية شيء من الأشياء ..

ويدافع ابن فارس عن نظريته التوقيفية إزاء بعض مايريبه أو ما يرتاب به الآخرون ، فيجعل تعليم الأسماء قد جاء عن طريق الأنبياء المرسلين تدرّجاً إلى عهد الرسول محمد ((صلى الله عليه وسلم)) ، ويجعل اختلاف اللغات مما حدث بعد الطوفان حين تفرّق سكان الأرض فاختلفت لغاتهم .

وقد دفعه رأيه التوقيفي في نشأة اللغة إلى إنكار التجدد اللغوي وإلى إنكارِ أمورٍ من خصائص اللغة العربية كالقياس والاشتقاق* .

والنظرية التوقيفية التي قال بها ابن فارس ، لها أصل عند الإغريق ، كما إنّها امتدّت إلى العصور الوسطى عند الغرب المسيحي متأثرة بالكتاب المقدّس .

وفي العصر الحديث ، تبنّاها المفكر الفرنسي (دي بونالد) حين وحّد ما بين اللغة والتفكير وقال : ((إذا قلنا نحن نفكر فكأننا قلنا : نحن نلغو ، ولو أن كائناً سلب اللغة لسلب القدرة على التفكير أيضاً ، وبناء على هذا يستحيل أن يكون الانسان خالقاً للّغة)) ** .

---

* راجع تفصيلات نظرية ابن فارس في كتاب ((فقه اللغة في الكتب العربية)) ص ٧٧ وما بعدها .

** راجع تفصيل الفكرة في كتاب : ((دراسات في فقه اللغة)) لمحمد الأنطاكي ص ٥١ .

النظرية الاصطلاحية ، والصوتيّة :

عمدة هذه النظرية وأختها في فقه اللغة العربية هو ابن جنيّ ، في كتابه المشهور : ((الخصائص)) فقد عقد في كتابه باباً سمّاه ((القول على أصل اللغة إلهامٌ هي أم اصطلاح)) قال فيه : ((إنّ أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة ، إنّما هو تواضعٌ واصطلاح ، لا وحي وتوقيف *)) وقد ردّ على رأي من اعترض بأن اللغة ليست أسْماء كلّها بقوله : ((اعتُمد ذلك من حيث كانت الأسماءُ أقوى القُبُلِ الثلاثة (أسماء أفعال ، حروف) ، ولا بدّ لكلّ كلامٍ مفيدٍ من الاسم ، وقد تستغني الجملة المستقلة عن كلّ واحدٍ من الحرف والفعل ، فلما كانت الأسماء من القوّة والأوّلية في النفس والرتبة ، على مالا خفاء بِهِ جاز أن يُكتفى بها ** ..)) .

وأوردَ ابن جنّي تصوّراً واضحاً للمواضعة أو الاصطلاح على تسمية الأشياء ، وأضاف قائلاً ((وذهب بعضَهُم إلى أنّ أصل اللغات كلّها إنّما هو من الأصوات المسموعات ، كدويّ الريح ، وحنين الرّعد ، وخرير الماء ، وشحيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس .. ثم وُلّدت اللغات عن ذلك فيما بعد ، وهذا عندي وجهٌ صالحٌ ومذهَبٌ متقبَّل . ***))

وفي نظرة ابن جني إلى الآية الكريمة ((وعلم آدمَ الأسماء كلّها)) . لم يُسقطها من الاعتبار بل آمن بها من وجهة نظر المعتزلة بأن الله هو الذي أقدر آدم على المواضعة والاصطلاح فوضع للأشياء أسماءها ****

---

* ((الخصائص)) ج١ ص ٣٩ ، مطبعة الهلال ١٩١٣ .

** الخصائص ج١ ص ٤٠ .

*** الخصائص . ج١ ص ٤٤ و ٤٥ .

**** انظر ((فقه اللغة في الكتب العربية)) للدكتور عبده الراجحي ص ٨٣ .

وقد لقي رأيُ ابن جني في نظرية المواضعة والاصطلاح من يواكبه مثل جان جاك روسو في العقد الاجتماعي ، كما وجد في نظريته الصوتيّة لنشأة اللغة مؤيدين كثراً في الغرب والشرق من أمثال : يسبرسن ، otto jespersen وإبراهيم أنيس و علي عبد الواحد وافي ..

وخالفه فيها مَنْ خالفه من أمثال : فندريس ورينان وأنجلز* .. وحسبنا أن نسوق ماقاله الدكتور علي عبد الواحد وافي في كتابه علم اللغة مشيراً إلى نظرية ابن جني الصوتيّة ** : ((.. وهذه النظرية هي أدنى نظريات هذا البحث إلى الصحّه ، وأقربُها إلى المعقول ، وأكثرها اتّفاقاً مع الأمور وسنن النشوء والارتقاء الخاضعة لها الكائنات وظواهر الطبيعة والنظم الاجتماعيّة .))

النظرية التحفظيّة :

ونعني بها النظرية التي لم تقطعْ برأيٍ معيّن في موضوع نشأه اللغة ، وهي إن أبدت رأياً من الآراء في الموضوع ذاته ، عادت مرّة ثانية لتنقضه أو لتتحفّظ عليه باحتمال صواب مذهبٍ آخر ، أو باحتمال أن يتم اكتشافٌ جديد يقول كلمةً فصلاً في الموضوع .

ويبدو أن هذه النظرية هي النظرية الأحوط بين نظريّات نشأة اللغة لأن الجزم في مثل هذا الموضوع أمرٌ مستحيل .

هذا هو ابن جني نفسه صاحب كِتابَيْ ((الخصائص)) و ((سرّ صناعة الإعراب)) ما كاد يطرح نظرية المواضعة ((الاصطلاح)) حتى استعان بمذهبه المعتزليّ ، واحتمل أن تكون نشأة اللغة توقيفية بنوعٍ من التأويل حيث قال في الآية

---

* انظر التفصيلات في كتاب " فقه اللغة في الكتب العربية " للدكتور عبده الراجي ص ٩١ ومابعدها .

** انظر " علم اللغة " للدكتور علي عبد الواحد الوافي من ٩٥ ومابعدها .

الكريمة ((وعلّم آدمَ الأسماء كلَّها)) : ((هذا لا يتناول موضع الخلاف ، وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله : قد أقدر آدم على أن واضَعَ عليها *)) .

وبهذا يكون تحفّظ على تأييده لرأي من قال : إن أصل اللغة تواضعٌ واصطلاح .

وبعد أن تقبّل ابن جني قول بعضهم ((إن أصل اللغة كلّها ، إنّما هو من الأصوات المسموعات كدويّ الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء الخ ....)) عاد ليتحفظ على هذا الرأي بقوله : ((إنني إذا تأملتُ حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة ... قويَ في نفسي اعتقادُ كونها توقيفاً من الله سبحانهُ ، وأنها وحيٌ)) ** .

ولزم الباحثُ المعاصر علي عبد الواحد وافي جادة التحفظ بعد أن أطلق تأييده لنظريتي ابن جني في المواضعة والأصوات ، وأضاف قائلاً في كتابه ((علم اللغة)) عن مقولة ابن جنيّ ((.. لم يقم أي دليلٍ يقينيٌ على خطئها ، ولكن ، لم يقم كذلك أيُّ دليلٍ يقينيٌ على صحّتها ، وكل ما يذكر لتأييدها لا يقطع بصحتها ، وإنّما يقرّبُ تَصوُّرَها ويرجّح بها ***)) .

وقد رفض بعضَهُم النظرية التوقيفية ، والنظرية التواضعية الاصطلاحية كلتيهما ، ومن هؤلاء الفيلسوف : ليبنز الذي رَفَض النظريتين ، ودعا من جهة أُخرى إلى القيام باستقراءٍ شامل للألسن قبل الإجابة عن أيِّ سؤال ، وهذا هو منتهى التحفظ على ما طرح قبله من آراء في نشأة اللغة ويبدي حجته قائلاً : ((إنّ الألسُن بمثابة كتابٍ علينا أن نحسنَ القراءة فيه ..)) وباختصار شديد نسوق شروطه لإحسان القراءة وهي :

---

* ((الخصائص)) . ج١ ص ٣٩ .

** انظر الخصائص لابن جني ج١ ص ٤٥ .

*** ((علم اللغة)) لعلي عبد الواحد وافي ص ٩٦ .

١- البدء بإحصاء عدد الألسن في العالم .

٢- المقابلة فيما بينها في ماضيها وحاضرها لكي يعرف مستقبلها .

٣- بما أنَّ الألسن أو اللغات هي عبارة عن كائناتٍ حيّة فيجب أن تكون معرفتها على ما انتهت إليه لا على ما كانتْ عليه .

وبهذا نصل إلى نتيجة حاسمةٍ في معرفة نشأة اللغة وعلاقتها بالفكر * .

خلاصة عامّة في نشأة اللغة :

تحت هذا العنوان نضع بين يدي الدارس ما جاء في كتاب ((الوسيط في الأدب العربي وتاريخه)) من تأليف الشيخ أحمد الإسكندري والشيخ مصطفى عناني رحمهما الله ، الصادر عن دار المعارف في مصر سنة ١٩١٦ م . بعنوان هامشي ((نشأة اللغات)) :

((المعروف بشهادة العقل والاستقراء ، وتتبع نطق الأطفال والأمم المتوحشة والراقية ، أنَّ لغاتِ العالم (على كثرتها التي لم تتناهَ ولن تتناهى) ترجعُ إلى أمهاتٍ أصليّةٍ تولّدتْ وتتولّد عنها ، وأنَّ كلَّ واحدةٍ من هذه الأُمّهات هي المنشأ الأولى لفروعها ، وأنها كُلها تنشأ من جَدّةٍ عليا مجهولةٍ هي لغةُ الإنسان الأوّل .

وتلك الجدّة هي الكلمات القليلة التي كان يعبّر بها الإنسان عن رغائبه القليلة أو عن الأشياء المحيطة به . وبعض هذه الكلمات مقتبسٌ من محاكاة الأصوات التي تصدر من الحيوان والإنسان والرياح وغيرها : كما تفعل الببّغاء التي هي دون الإنسان في الإدراك ، وبعضها مرتجل بطبيعة القوة الناطقة التي أودَعها اللهُ الإنسانَ ، وميّزه بها من سائر الحيوان ، وهي فيهِ الهامٌ فطري أسمى من الإلهام

---

* ((دراسات في فقه اللغة)) محمد الأنطاكي ص ٥٢ عن كتاب ((فلسفة اللغة)) لكمال يوسف الحاج ص ٢٤ ومابعدها .

المودَع الحيوان الأعجم : فإننا نسمعُ الهرّةَ مثلاً تموء ببضعةِ أصواتٍ مختلفة ، تظهر بها انفعالاتها ومطالبها :

فصوت الاستعطاء والاستعطاف غير صوت الزَّجْر والغضب ، الخ ...

وعندما يجيشُ صدر الإنسان بإظهار رغبةٍ أو رهبةٍ ، يصيح بصوتٍ مصور بصورّةٍ ما على حسب ما يلهمه الله ، فيسمعُه غيرُه ، ويفهمُ منه مُرادَهُ ، بإضافة قرينة حال أو إشارة (كما نشاهد ذلك كثيراً لدى بعض الأطفال عند محاولتهم النطق) فإذا وجد الإنسانُ أنّه قد أدّى غرضَهُ بذاك الصوت استعمله ثانيةً وثالثةً في إفهام رفقائِهِ ، فيذاع بينهم ويُعْرَف ، ولا يحتاج في استعمالِه إلى قرينةٍ ، وهكذا يفعل غيرهُ فِعْلَهُ ، ويقلّدهما إنسانٌ ثالثٌ ورابع ، حتى تتكون اللغة الأولى الضروريّة للبيئة التي يعيشون فيها ، ويتّفق عليها من غير تعمّدٍ ولا قصدٍ إلى الاتفاق . ثم تتسع هذه اللغةُ بِطُرق النموّ المعروفة : كالاشتقاق ، والزيادة والنقص والتحريف ، والتحويل من الحقيقةِ إلى المجاز ثمّ يصيرُ حقيقة ...

هذا ، والأظْهر أنّ الإنسان نطق أوّلاً بأسماء المحسوسات ، ثم بأسماء بعض المعقولات ، وبالمصادر والأفعال ، وبأسماء الإشارة والضمائر والموصولات ، ثم بالحروف والمشتقات ، ويعرف ذلك من تَتَبُّع لغات الأمم الوحشية ، ومشاهدة كلام الأطفال عند ابتداء نطقهم .

أمّا اللغات الفرعية فتنشأ من هجرة بعض طوائف أهل اللسان الأصلي إلى جهاتٍ متباعدةٍ ، فيدفعهم التقاطع إلى نسيان بعض الكلمات ، لعدم استعمالها في وطنهم الجديد ، أو إلى تحريفها على طول الزمان ، ثمّ هم يرونَ في هذا الوطن مالم يروه من قبل ، من أنواع الحيوان والنبات والجماد ، فيضطرون إلى وضعِ كلماتٍ على الوَجْه الآتف الذكر وهكذا ، فتتباعُد اللغة الفرعية عن الأصلية كلّما تباعد الزمانُ والمكان .. ويزيد مدى التباعد ، إذا جاوروا أُمماً تتكلّمُ بغير لسانها الأصلي ، فيستعيرون من لغاتهم كلماتٍ تتمثل بعد حين في بنية لغتهم .. ثم إذا طال الأمد على

أهل لغةٍ ، وكثر عددهم ، وارتقت الصنعات الإنسانية فيهم ، اتسعت هذه اللغة ، وتعدّدت أساليبُ التعبير فيها ، وضاق حفظُ أيّ فردٍ من علمائها عن أن يحيط بها .

ظهر من هذا ، أن اللغات قد وضعها البشر ، من غير سابقة اصطلاح واتفاق ، وأنَّ قولَ من يقول إنّها توقيفية (ملهمة) لا يعقل منه إلّا أنها متوقفة على إلهامٍ من الله واهبِ النطق للإنسان أما من يقول : إنها توقيفية، بمعنى أن الله هو الذي أوحى بها إلى أنبيائه (عليهم صلواته) ، وهم علموها الناس ، فماذا يقول في اللغات التي نشأتْ وتنشأ بعد الأنبياء ، كلغاتنا العاميّة ، ولغات أهل أوربّا الحديثة ؟ ..

واحتجاجُه بقوله تعالى ((وعلم آدم الأسماء كُلّها)) ليس باحتجاجٍ قطعيٍّ ، لجواز أن يكون معنى عَلّمَهُ ، ألهَمَه وأقْدرَهُ ، ولأنه قد فُسِّرتِ الأسماء بأسماء الملائكة بدليل إعادة ضمير العقلاء عليهم .

ولجواز أن تكون تلك خصوصيةً لآدم ، فكما خلقه ابتداعاً علمه ابتداءً . ولو أريد بالأسماء أسماء جميع الموجودات ، فهل تعلّمها بجميع ألسنة أولادِه ؟ وهذه الألسنة قد بلغت ألوفاً مؤلّفة ، ومنها المخترعات ذوات الأسماء المُرتجلة .. هذا ما ظهر لنا والله أعلم)) تمّ كلام الوسيط ، وقد جاء تلخيصاً شاملاً ، بأوجز كلام ويشكّلُ هذا الكلام رأياً وَسَطاً بين الآراء المتقدمة ، وقد حاول أن يجمع بين النظريتين التوقيفية والاصطلاحية والتوفيق بينهما مع لفت العناية إلى المنشأ الصوتي المُقَلِّد للطبيعة بأصواتها * .

بدءاً من العصور الوسطى وحتى العصر الحديث تنازعت الآراء ، واشتد الجدل حول تصويب النظرية التوقيفية أو النظرية الاصطلاحية . وقد فُسِّرَ اصطلاح الناس على اللغة بأوجهٍ كثيرة مختلفة والذي يذهب إليه العِلْم أن اللغة ظاهرة

* انظر رأياً لابن خلدون في مقدمته ص ٥٥٤ ، وهو يرى اللغة ملكة صناعية ، تتعلم ثم تغدو مَلكةً كالإلهام .

اجتماعية كسائر الظواهر الاجتماعية * ، ومعنى هذا أنها من صنع المجتمع الإنساني . ولا يُعرف مجتمع إنسانيٌّ منذ أقدم عصر سجّله التاريخ ، بلا لغةٍ ناضجة التكوين .. ورغم النظريات والطروحات الكثيرة حول نشأة اللغة ، نجد علم اللغة يرجئ تقرير الحقيقة في نشأة اللغة إلى أن يتم جلاء ما يكتنف هذا الموضوع من الغموض ، مما قد يكشف عنه تقدم علم الأجناس البشريّة ، وعلم الأحياء ، وغيرهما من العلوم الإنسانية . ولو أن الأرجح أن تقدم هذه العلوم وسواها لن يمكننا آخر الأمر من معرفة الظروف التي نشأت فيها اللغة معرفةً يقينية .

ولكي ننتهي برأيٍ مختصرٍ ومفيد في موضوع نشأة اللغة ، نسجّل بعض الحقائق الظاهرة أو المجربة لنتوصل من خلالها إلى أشدّ النظريات اختصاراً وأشدّها استعصاءً على النقض .

١- الكلمة في أية لغة إنسانية هي وحدة صوتية ذات مدلول متواضعٍ عليه ، وقد وجد له ما يمثّله مكتوباً على وجه الاصطلاح .

٢- انعدام حاسّة السمع لدى الإنسان قد يعدمه النطق باللغة ولكن لا يعدمه التفكير .

٣- طفولة الذهن الإنساني عموماً متقاربة إلى طفولة الفرد كما تبدأ وكما تنتهي تنطلق على عدّة محاور منها

البديهة ، التقليد ، التكرار ، التعديل المقصود (التطور) ، التعديل غير المقصود (الخطأ) ..

٤- اختلاف البيئة الجغرافية تتبعه اختلافات اجتماعية ، ولغويّة ، بدءاً من صورة الإنسان وقامته ، إلى قناعاته الذاتية والمفروضة ، إلى لُغتهِ المعمّمة ، ولهجته المتفرّدة .

---

* انظر ((علم اللغة)) للدكتور محمود السّعران ص ٥٢ وما بعدها .

٥- ازدياد احتمال التلقّي والتأثّر بتوفر وسائل الاتّصال مفروضةً أو مختارةً .

وبعد قد نتساءل كيف كانت نشأة اللغة بناءً على تلك المسلمّات ؟ ..

اللغة شرارة منطلقة من عاطفة محتدمة مأزومة ، وذاكرة ذكيّة طموح ، بدايتها صوتٌ مقلِّد ، ونضجُها صوتٌ وخط مكتوب بمدلول واحد قابلٍ للتطور .

هذا الاستعداد اللغوي لدى الإنسان هو استعداد توفيقيّ ، يرقّيه جهد تواضعيٌّ اصطلاحي بين فردٍ وآخر يبذل لتلبية حاجةٍ مشتركة لتنشأ منها علاقة مشتركة عن طريق اللغة .

ولعل أوضح الملامح في نشأة اللغة انطلاق لسانِ مخلوقٍ ذكيّ في تقليد ما يسمع لتحقيق ما يرغب ، فللخالق إرادتُه وللمخلوق استجابته .

الفصل الثالث

اللُّغاتُ السّامِيَّةُ وخَصائِصُها

انتماء اللغات إلى فصائل :

إذا قلنا تعميماً : إن لكل شعبٍ من شعوب الأرض لِساناً أو لغة يتميّز بها أدركْنا في الحال أن هذه اللغات تنتمي إلى فصائل أشبه ما تكون بانتماء الأمم إلى شعوبٍ وقبائل ، تنقسم أقساماً على أساسها مع كلّ محاولة دراسةٍ واستقراء .

وقد تغافل علماؤنا القدامى عن هذه القضية البديهية وقادتهم العصبية إلى الاعتداد بلغة القرآن ، وكبر عندهم أن يقارنوها بأخواتٍ لها ، فضلاً عن أنهم لم يكونوا يملكون الوسائل لكشف الروابط والانتماءات بين العربيّة وغيرها من اللغات السامية .

وفيما بعد عصر النهضة الأوربيّة عمد المستشرقون إلى تقسيم اللغات إلى عدة مجاميع تحتوى كلٌّ منها طائفة من اللغات تتميّز بما فيها من تقارب في اللفظ والتركيب والقواعد .

وارتكزوا في تقسيماتهم على تقسيم الأجناس البشرية . وقد كان استنادهم فيما ذهبوا إليه على رواية الكتاب المقدّس حيناً ، وعلى الاعتبارات الطبيعية حيناً آخر .

وبالانتماء إلى أولاد نوح : سام وحام ويافث وجد من اللغات مجموعة ساميّة ، وأخرى حاميّة وثالثة يا فثية وتعني الآريّة .

وأوّل من أطلق على لغات الجنس السامي اسم ((اللغات السامية)) هو المستشرق الألماني شلوتزر (Schlozer) ، لأن معظم الشعوب والأمم التي تتكلم هذه اللغات ، هي من أولاد سام بن نوح . وقد انتهى بأبحاثه وتحقيقاته إلى هذا الرأي عام ١٧٨١ م .

ولعل أفضل النظريات في تقسيم اللغات ، هي التي تعتمدُ صلات القرابة اللغوية ، بناءً على التماثل والتشابه فيما بينها ، وفيما يتعلق بالكلمات ، وقواعد البنية أو التراكيب . وعلى هذا الأساس نفسه ، لاحظ علماء اللغة مجموعتين هامتين متميّزتين :

الأولى هي : الهندية الأوربيّة .

والثانية هي : الحامية السامية .

وتنبهوا إلى صلات القرابة بين اللغات الداخلة تحت كل مجموعةٍ من هاتين المجموعتين بما وجد من الصفات المشتركة في كُلٍّ منهما .

ولا بُدَّ من إلمامٍ موجز يتناول المجموعتين قبل أن نفرغ لشجرة اللغات السامية .

أولاً – الفصيلة الهندية الأوربية :

وتعدّ لغاتها أكثر اللغات الإنسانية انتشاراً بما أحرزته شعوبها من تفوقٍ حضاري .

وقد يعسُر تحديد الموطن الجُغرافي لهذه الفصيلة بعد أن تعددت فيه الأقوال وذكر من مواطنها آسية الوسطى ، روسيا الشرقية ، حوض البلطيق الخ....

وتشتمل هذه الفصيلة على ثماني طوائف ، وفي كلّ طائفة عدد من اللغات وحَسْبنا أن نذكر الطوائف وحدها :

الآرية ، اليونانية ، الإيطالية ، الجرمانية ، السلافيّة ، الأرمنية ، الألبانية ، الكلتيّة Les Celtes ويلاحظ في الطائفة الأخيرة أنها الطائفة المورثة للغات الإنجليزية والفرنسية والإسبانية المعاصرات .

ثانيا – الفصيلة الحاميّة الساميّة :

وموطنها الجغرافي أقرب إلى التحديد ، فليست مناطقها شديدة الاتساع فهي لا تعدو شبه جزيرة العرب وبرّ الشام والعراق مع شمالي إفريقية ، وجزءٍ من شرقي إفريقية . وفيها مجموعتان .

أولاً – مجموعة اللغات الحامية :

وفيها اللغة المصرية القديمة ، واللغة القبطية ، واللغة البربرية ، عدا لغاتٍ أخرى .

ثانياً – مجموعة اللغات الساميّة :

وفيها : الكنعانية ، والآرامية ، والعبرية القديمة ، والعربية الشمالية الباقية المنحدرة من العربية الجنوبية .

وسنفردُ لشجرة اللغات السامية محَلاً خاصاً من البحث بالنظر إلى صلة اللغة العربية التي ندرس فقهها بمجموعة الأفرع الأخرى في تلك الشجرة ..

علماً بأنّ لغات العالم الأخرى تنضوي تحت فصائل تقارب العشرين عَدّاً كما صنّفتها جمعية علم اللغة بباريس مما لا يهمّنا التوسّع فيه * .

شجرة اللغات الساميّة :

عُرفت لغات الشعوب الآرامية والفينيقية والعبريّة والعربية واليمنيّة والبابلية الأشورية باللغات السامية . وقد جاء في سفر التكوين ، الإصحاح العاشر من الكتاب المقدّس ما يشير إلى أن انحدار القبائل والشعوب كلّها قد كان من أبناء نوح وهم سام ، وحام ، ويافث .

---

* انظر ((دراسات في فقه اللغة)) للدكتور صبحي الصالح ص ٤٤ .

ويبدو ان اللغات السامية قبل تفرقها كانت ترجع إلى أصلٍ مشترك ومَهْدٍ واحد اختلف في تحديده . وقد رجح الألماني بروكلمان Brokelmann والفرنسي رينان Renan أن الموطن الأول للشعب السامي هو القسم الجنوبي الغربي من شبه جزيرة العرب .

ولا يخفى أن اللغات السامية ، تشترك في عددٍ من الخصائص الدالة على أصلها ، ومن أبرزهذه الخصائص اعتمادها إجمالاً على الجذر الثلاثي في تأليف كلماتها . فأصول كلماتها تتألف غالباً من ثلاثة أصواتٍ ساكنة من أمثال : (ق ت ل) ، (ض ر ب) ، (ش ب ع) الخ.....

وهناك ألفاظ مشتركة في جميع اللغات السامية كالضمائر ، وأسماء الإشارة ، وألفاظ العدد ، وأسماء الذوات الجامدة مثل : سماء ، شمس ، بيت ، ثور ، جمل الخ..* علاوة على اعتمادها على الحركات في التفريق بين ما يدلُّ على معنى مشترك من الكلمات مثل ضَرَبَ ، ضُرِبَ ، ضَرْب ....

أمّا عن شجرة اللغات السامية ففيها فرعان كبيران عنهما تتفرع بقية اللغات وسنكتفي بإيراد التسميات دون الخوض في الخصائص والتفصيلات عن كلٍّ منها ، وما يهمّنا أن نصل إليه تفرّع اللغة العربية الباقية التي استقرت على شكلها الأرقى الذي نزل به القرآن الكريم .

الفرع الأول الكبير من شجرة اللغات الساميّة هو فرع الساميّات الشرقية وتعرف بالأكاديّة أو المسمارية نسبة إلى مملكة أكاد Akkad أو إلى الخط المسماري . وعن هذا الفرع الكبير تفرعت البابلية الآشورية .

الفرع الثاني الكبير من شجرة اللغات السامية هو فرع الساميّات الغربيّة ، التي تتفرع بدورها إلى شمالية وجنوبية .

---

* راجع نماذج لتشابه الضمائر وغيرها في كتاب ربحي كمال ((دروس اللغة العبرية)) ص ٢٣ .

نجد في المتفرعات الشمالية الكنعانية والآرامية وما تفرع عنهما ، ونجد في المتفرعات الجنوبية العربية الشمالية التي منها اللغة العربيّة البائدة والعربية الباقية* .

وها نحن نقف عند العربية البائدة وقفة قصيرة قبل أن نأتي إلى العربية الباقية السائدة إلى اليوم .

اللغة العربية البائدة :

نُريد بالعربية البائدة ، عربية النقوش التي انقرضت لهجاتها قبل ظهور الإسلام ، وفيها شبه من الآرامية ، وأهم اللهجات العربية البائدة ثلاث لهجات هي : الثمودية ، والصفويّة ، واللحيانيّة .

الثموديّة : نسبةً إلى قبائل ثمود البائدة ، وقد عثر على نقوشها ما بين الحجاز ونجد ، وعثر على بعضها قرب دمشق . وخطها مشتق من المُسْنَد ويتجه من أعلى إلى أسفل . وتاريخها ما بين القرنين الثالث والرابع الميلادي

الصفوية : وهي اللهجة المنسوبة إلى منطقة الصفا . عثر على نقوشها بين تلال الصفّا وجبل الدروز . ويرجع تاريخ تدوينها إلى ما بين القرن الثالث والقرن السادس الميلادي . وخطّها قريب من الخط الثمودي ولكنه يتجه من اليسار إلى اليمين أو من اليمين إلى اليسار دون أن يستقر على حال .

اللحيانية : وهي اللهجة المنسوبة إلى قبائل لحيان التي كانت تقطن شمالي الحجاز . ورغم أنها أقدم عهداً من الثمودية والصفوية وجد خطها أجمل وأثبت نظاماً من الخطّين الثموديّ والصفويّ . ويرجع تاريخ النقوش اللحيانية إلى القرن الرابع قبل الميلاد تقريباً .

---

* انظر مخطط شجرة اللغات السامية ص ٧١ من كتاب دراسات في فقه اللغة للدكتور صبحي الصالح .

وقد وُجد ما يدل على التقارب بين العربية البائدة والعربية الباقية متمثلاً في نقوشٍ خطية أهم ما يميّزها الخط النبطي المتصل الحروف الذي تولّد عنه الخط الكوفي فيما بعد ، في العربية الباقية .. وتذكر مصادر علم اللغة وفقه اللغة والمصادر التاريخية ثلاثة من النقوش * المشهورة هي نقش النِّمارة ، ونقش زَبَد ، ونقش حوران . وتجمعها خصائص مشتركة منها البعد عن التأثر بالآرامية ، والإشعار بما سيتولد عنها من لغة عربية مكتوبة ، صلحت فيما بعد لتدوين القرآن الكريم بالعربيّة الباقية .

وبعد هذه اللمحة الموجزة جدّاً عن اللغات الساميّة لا يفوتنا أن نحكم بوجود أواصر القربى بين تلك اللغات ، وقد كتب لكلٍّ منطقة أن تُخلّد لغتها منذ ظهرت في العراق الآشورية البابلية ، حتى برزت في جزيرة العرب العربية الشمالية التي هي أم العربيّتين : البائدة والباقية .

وعلى الرغم من أن الكنعانية والعبرية قد ظهرتا في فلسطين وسورية وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط ، وأن الآرامية والسريانية عاشتا في العراق وسورية وفلسطين ، نجدُ إجماع الكثير من الباحثين على أن المهد الأوّل لهذه الشعوب الساميّة هو شبه جزيرة العرب ، وأن هذا التقارب الزمانيّ المكاني ليدل دلالةً قاطعةً على أن العرب فرع في هذه الفصيلة الساميّة ** .

العربيّة الباقية :

بعد أن أقررنا بانتماء اللغة العربية إلى الفصيلة الساميّة ، وتوزعها إلى بائدٍ منها وباقٍ ، يأتي عنوان العربية الباقية ليدل على اللغة العربية في زماننا الحاضر ، وهي لغة الأمة العربية على امتدادها الجغرافي في القارتين الآسيوية والإفريقية

---

* انظر ((فقه اللغة)) لعلي عبد الواحد وافي ص ٩٩ .

** انظر ((دراسات في فقه اللغة)) للدكتور صبحي الصالح ص ٥٨ .

وهي الضاربة الجذور قبل ظهور الإسلام بقرون إلى القرن الخامس عشر لظهوره ، وسوف يمتد بقاؤها حيّةً إلى ماشاء الله مادامت تملك في ذاتها عناصر الحياة غير بعيدةٍ عن سنن الحياة في التطور والارتقاء .

أمّا عن طفولة لغة العرب الباقية فلا نعلم عنها شيئاً ، إذ لم يعثر العلماء في مواطنها الأولى بنجد والحجاز على آثار منقوشة أو مكتوبة تلقي ضوءاً على حالتها الأولى بسببٍ من شيوع الأمّية بين قبائلها في بعض الآراء ، أو بسبب اندثار أوابِدها ولا يَستبعد المتفائلون أن تستجد مكتشفاتٌ تنم عن صُورتها في مرحلة الطفولة تلك * .

إنّ أقدم ما وصل إلينا من آثار العربية الباقية ، نماذج وافرة من الأدب الجاهلي تنسب لطائفةٍ من شعراء العصر وحكمائه وخطبائه ، ولكنها لم تجمع وتدوّن إلّا في القرون الأولى للعصر الإسلامي .

ويرجع تاريخ أقدمها إلى القرن الخامس الميلادي .

وتبدو في عنفوان اكتمالها بعد أن اجتازت مراحل النمو والارتقاء لتتغلب إحدى لهجاتها الكبرى وهي لهجة قُريش .

وقد ساعد على تغلّب لهجة قريش عوامل شتى ، فأصبح العربيّ أيّاً كانت قبيلته ، يؤلف أشعارَهُ وخُطبهُ ونثرَه الأدبيّ بلهجة قريش .

فما هي تلك العوامل ؟

١ – **العامل الديني :** عاش القرشيّون في مكة وما حولها ، وكانت لهم حماية الكعبة وسدانتها وهي الحرم المقدس لدى جميع القبائل العربية ، يحجّون إلى البيت العتيق ليؤدوا مناسكهم ويزوروا أصنامهم ويقدموا لها القرابين .

فكان لقريش بذاك السلطان الديني على بقية القبائل ، ومن الطبيعي أن تسود لهجتها وتفرض نفسها بقوّتها الروحية .

---

* انظر ((فقه اللغة)) للدكتور علي عبد الواحد وافي ص ١٠٣ ، وعليه سنعتمد في تلخيص ملامح العربية الباقية عموماً .

٢- **العامل الاقتصادي** : اعتملت قريش بمعظم أفرادها التجارة مورداً للعيش والثراء ، وقد شهرت عندها رحلتا الشتاء والصيف ما بين اليمن جنوباً والشام شمالاً ، وبفضلهما أطعمهم الله من جوعٍ وآمنهم من خوفٍ كما جاء في القرآن الكريم* .

وبهاتين الرحلتين عرفوا وخاطبوا وخوطبوا بلهجتهم .

٣- **العامل السياسي** : ولنأخذ هذا العامل بمعناه البسيط الذي يرادف النفوذ القبلي والتفوّق على سائر القبائل حتى خيل إليهم وإلى غيرهم أنّ دينونة العرب لا تكون إلّا لقريش .

وفي ذلك ورد قول أبي بكر يردّ على الأنصار في تطلعهم إلى الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ : ((لا تدينُ العرب إلّا لهذا الحيّ من قُريش ، فلا تنفسوا على إخوانكم ما منحهم الله من فضلِه)) .

٤- **منطق التطوّر اللغوي** : وهذا ما نستوحيه من علم اللغة ، فقد تحققت لقريش قوانين التغلّب اللغوي ، فمن المقرّر أن الصراع بين لهجتين محليتين ينتهي بتغلب إحداهما على الأُخرى في حالتين :

١- أن يكون لأهل الواحدة منهما نفوذ على أهل اللهجة الأخرى .

٢- أن تفوق إحدى المنطقتين الأخرى في مقوّمات خاصة كالثقافة والحضارة والأدب .

وهاتان الحالتان محققتان لمصلحة قريش بالنسبة إلى ما جاورها من قبائل عربية .

وقد رأينا كيف كان لقريش النفوذ الديني والاقتصادي والسياسيّ ، فليس تغلّبها بلهجتها أمراً عجيباً ، ولا ضدّ منطق الأحداث .

---

* سورة قريش .

ومن المقرر أيضاً في قوانين علم اللغة أن اللهجة المحليّة التي تتاح لها السيطرة تصبحُ عاجلاً أو آجلاً لغة الآداب ، وتصطنع وحدها في الكتابة والتأليف .. وهذا هو ماحدث للهجة قُريش ، فقد ترتّب على تغلّبها على بقية اللهجات العربية أن أصبحت لغة الآداب عند جميع قبائل العرب ، فبها كان يُنظم الشعر ، وتلقى الخطب ، وترسل الحكم والأمثال ، وتدوّن الرسائل ، وتتفاوض الوفود ، ويتبارى الأدباء حيث يجتمعون في المحافل والأسواق .

وقد تمّ للغة قريش أن تسود قبل بعثة الرسول (ص) بزمنٍ غير قصير .

خصائص اللغات الساميّة وصفاتها المشتركة :

تشترك اللغات الساميّة بعددٍ من الخصائص أهمُّها ما يلي :

أ – أنّ أصل الكلمة في تلك اللغات أصلٌ ثلاثيٌّ يتألّف من ثلاثة حروف ساكنة مثل :

(د خ ل) ، (د ف ع) ، (س م ع)

وقد ارتأى بعض علماء اللغة وبناءً على الملاحظة والمقارنة أن أصول الكلمات في اللغات الساميّة ثنائية لا ثلاثية ، فعدا عن الضمائر : (هو ، هي هم) ، والحروف : (عن ، قد ، لم) هنالك أفعال لا يبقى منها في تقلّبها بالنطق إلّا حرفان ومن أمثالها : (قُم ، نَم ، قمتُ ، رُمْت) وهذا يعني أن المعنى العام يتوقف في كثيرٍ من الأفعال على صوتين فقط . وغالباً ما يؤدّى المعنى العام للفعل بصوتين فقط ، ويليه صوتٌ ثالث ليؤدي معنى النّوع الخاص لهذا الفعل ، وهذه أمثلة :

شرد ، شرح ، شرخ ، شرم

ففي صوت الشين والراء مجتمعين ما يفيد معنى التوزّع والانقسام ولكن توالي الدال أو الحاء أو الخاء أو الميم يفيد نوعاً خاصاً من أنواع التوزّع والانقسام .

وفي هذه الناحية يظهر وجه الشبه بين الفصيلتين الساميّة من جهةٍ ، والهنديّة الأوربيّة من جهةٍ ثانية .

ب- أهمّية الأصوات الساكنة بالقياس إلى الأصوات اللّينة .. ولو أخذنا مثال الحركات بفتحٍ أو بضمٍّ أو بكَسْرٍ وجدنا المعنى العام يطرحُهُ الأصل الصامت (ق ، ت ، ل) ووجدنا الحركات لا تعني أكثر من التفصيلات ، وربّما لم يظهر لها أثر في الكتابة ، إذ يظلُّ رسم الكلمة (ق ، ت ، ل) واحداً ، (قتل) ويفصّل في دلالته وجود الحركات أو الأصوات اللّينة لتفرق بين الفعل من غائبٍ مفرد (قَتَلَ) أو لوقوع الفعل على مجهول (قُتِلَ) الخ.....

ج- اقتصار أزمنة الفعل في معظم اللغات السامية على : (ماضٍ) انتهى زمنه ، ومضارع للحال أو الاستقبال ، وأمر يطلب الحدوث فيما يليه مستقبلاً .

د- إمكان تحويل الاسم والصفة من المذكّر إلى المؤنث بإضافة تاء إلى المذكّر .

هـ - التشابه في العديد من المفردات ودلالاتها .

و- وحدة الأصل للكلمة الواحدة وقلّة الكلمات المنحوتة من أصلَين ، على كثرتها في اللغات الهندية الأوربيّة ، على نحو : Super - vise يراقب . Trans - fer ينقل . بالإنجليزية Appe - santir أثقل .

Emb - rasser احتضنَ بالفرنسية .

Auf - machen يفتح Mit -fahren يرافق بالألمانية .

هذه الخصائص المشتركة وغيرها حفزت علماء اللغة على البحث عن وجوه الخلاف بين اللغات الساميّة متناسين منطق التطوّر الذي يؤدي في آخر مراحله إلى تباين اللغتين باختلافٍ كلّي .

وقد ذكروا من وجوه الاختلاف :

١- ((الـ)) التعريف هي ((الـ)) في أول الكلمة العربية و ((هاء)) في أول الكلمة العبرية و ((آ)) في نهاية الكلمة السريانيّة ..

٢- علامة الجمع : هي الواو والنون أو الياء والنون في اللغة العربية ، و ((ين)) في الآرامية ، و ((يم)) في العبريّة .

٣- خلوّ العبرية من بعض الأصوات (ض ظ غ ذ) وخلو العربية من بعض الأصوات ((ب P)) و ((ف V)) بالنسبة للعبريّة .. هذا وأغلب ما يأتي في العربية بالسين يأتي في العبرية بالشين ، والعكس بالعكس .

أما الاختلاف في المفردات فلقد توسَّع بين هذه اللغات الساميّات حتى في الكلمات التي كانت مدلولاتها شائعة ومشتركة ، وهي لا حصر لها عَدَداً مما جعل لكل لغةٍ فرعٍ قاموسها المستقل ، وأضخمها القاموس العربي لاشتماله على المأنوس وغير المأنوس من المفردات .

الفصل الرابع

عِلْمُ الْأَصْوَاتِ

أهمية علم الأصوات :

كلُّ اللغات البشرية المحكية التي تبلغ الألوف عدّاً هي في أصلها أصوات منطوقة ، بعضها انتهى إلى رموز مكتوبة وبعضها الآخر لم ينته إلى شكلٍ من أشكال الكتابة ومن خلال الاهتمام الحديث بعلم اللغة ، وخصوصاً علم اللغة المقارن اكتشفت أهمية علم الأصوات في الأداء اللغوي المؤدي بالتالي إلى مدلولاتٍ معنوية .. ولم يكن فقه اللغة العربيّ الذي انطلق منذ القدم عند ابن جني وابن فارس والثعالبي وغيرهم في منأى عن إدراك هذه الأهمّية لعلم الأصوات .

ومع أن ابن جني هو أوّل من عرّف باللغة ، فإنّ تعريفه بها يثير الدهشة ، لأن التعاريف الحديثة لم تكد تضيف شيئاً يذكر على تعريفه ، يقول في باب القول على اللغة وما هي :

((أمّا حدّها فإنّها أصواتٌ يعبّرُ بها كُلُّ قومٍ عن أغراضهم*)) ثم إنّ ابن جنّي يربط دلالة اللغة بالكلام فيقول : ((إنّها فُعْلة من لغوتُ أي تكلّمْتُ)) ويلاحظ أن قول ابن جنّي عن اللغة إنّها أصوات ، فيه تحديد أشبه ما يكون بما جاء في العصر الحديث عن اللغة . فأكثر الباحثين يجمعون على أن اللغة ((أصوات)) وقد أخرجوا الكتابة من هذا التعريف تماماً كما فعل ابن جني .

ويفهَم من كلام ابن فارس في كتابه ((الصاحبي)) المشار إليه سابقاً ، أنّه قد أورد عبارة معناها أنّ الأبكم ، وإنْ أحسنَ استخدامَ الإشارات والحركات في إفهام الآخرين ما يريد ، لا يُسمّى متكلّماً** .

---

* انظر ((الخصائص)) ج١ ص ٣١

** انظر ((الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها)) ص ٤٠

وعقد أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبيّ في كتابه ((فقه اللغة وسرّ العربية)) فصولاً عديدة في الأصوات مخصّصاً كُلَّ صوتٍ بمعناه الدلالي ، وذلك في الباب العشرين* الذي جاء بعنوان : ((في الأصوات وحكاياتها)) فليرجع إلى هذا الباب من يرجع ليتأكد من أن اللغة مجموعة أصوات تنبئ عن معانٍ ودلالات اصطلاحية في المسامع قبل الأوراق والقراطيس .

وهذا الاهتمام الكلّي بالأصوات تعبيراً عن اللغة ذاتها يفسِّر لنا المنهج العربي ** في جمع اللغة الفصحى عن طريق الرواية والمشافهة ، وإعطاء الأهمية للسّماعِ في التلقّي والعرض .

وانتقالاً إلى العصر الحديث ، والاهتمامات الغربية بعلم اللغة نسوقُ بعضَ الشواهد على أهمية الأصوات في كل لغة ، اقتباساً مِنْ مَرْجعٍ معاصر*** :

يقولُ كاتب مادة ((لغة)) في دائرة المعارف البريطانية ((إن اللغة يمكن تحديدها بأنها نظامٌ من الرموز الصوتية)) ويقول كاتب المادة نفسها في دائرة المعارف الأمريكية ((إن اللغة يمكن تحديدها بأنها نظام من العلامات الصوتية الاصطلاحية)) ثم يعلّق بأن هذا التعريف يخرج الكتابة من حيِّز اللغة .

ويقول يسبرسن Jespersen : ((إنّ اللغة يُنظر إليها عن طريق الفم والأُذُن وليس عن طريق القلم والعَيْن)) .

ويرى فندريس في كتابه ((اللغة)) أن اللغة هي اللغة السمعية أو اللغة الملفوظة .. ومن الخطأ أن نظن أن النصّ المكتوب يُعتبر تمثيلاً دقيقاً للكلام .

و يُقلل علماء اللغة الغربيّون من ثقتهم بالحروف المكتوبة في دقّة تمثيلها للأصوات ، وخاصة في اللغتين الفرنسية والإنجليزية . فماذا عن علم الأصوات بوجهٍ عام ؟ وماذا عن الأصوات في اللغة العربية ؟

---

* انظر ((فقه اللغة وسر العربية)) للثعالبي ص ٣٠٧ وما بعدها .

** انظر ((فقه اللغة في الكتب العربية)) لعبده الراجحي ص ٦٣ .

*** انظر ((فقه اللغة في الكتب العربية)) لعبده الراجحي ص ٦١ وما بعدها..

علم الأصوات اللغويّة :

موضوع هذا العِلم هو الصوت الإنساني الذي يؤدي لغة معيّنة .

ومنذُ القديم صنّف كُلٌ من اليونان والرومان والهنود والعرب أصوات لُغاتهم . وكان التصنيفان العربي والهندي أدقّ من سواهما وبينهما تشابه على أساس أن الهنود يرتبون الأصوات* ابتداءً من أقصاها في الحلْق إلى الشفتين ثم يذكرون الأصوات الأنفيّة ، وهذا الترتيب هو الذي نجده عند الخليل بن أحمد ، وعند سيبويه ، وهو الذي سار عليه المؤلفون العرب من بَعْد** . وقد طبقوا ما توصلوا إليه في علوم اللغة العربية ، نحوِها وصرفها وعروضها . وفي كتب اللغة ، وفي مقدمات معظم المعاجم العربية معلومات عن أصوات اللغة العربية ، بتأثرٍ مما جاء به الخليل وتلميذه سيبويه الذي صنّف الأصوات العربية حسب المخارج .

وقد أسهم علماء ((القراءات القرآنية)) في إضافة تفضيلات صوتيه لما أُثر عن الخليل وسيبويه ، وسجّلوا خصائص صوتية تنفرد بها التلاوة القرآنية ، ووضعوا رموزاً كتابية تمثل هذه الخصائص .

وبدءاً من أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل العشرين ، تواجد من علماء اللغة الغربيين من يطبق على الأصوات اللغوية منهج الدراسة اللغوية ، بما في ذلك الاستعانه بالوسائل الآلية .

وكان من أوائل هؤلاء روسلو Rousselot وجاستون باري Gaston Paris من فرنسا ، وهنري سويت Henry Sweet من انجلترا*** ومن الوسائل الهامة التي يلجأ إليها علم الأصوات اللغوية ما يُعرف بالدراسة الصوتية التجريبية أو ما يعرف بالكتابة الآليّة .. وأي معمل لدراسة الأصوات اللغوية نجده مزوّداً بمكتبةٍ

---

* أصوات الهندية القديمة المعروفة بالسنسكريتية .

** انظر ((علم اللغة)) للدكتور محمود السعران ص ٩٠ وما بعدها .

*** انظر أسماء طائفة من علماء الأصوات ص ٩٧ من كتاب الدكتور سعران ((علم اللغة)) .

من ((الأسطوانات)) وحاليّاً ((أشرطة التسجيل)) ، وتبقى الأذن السليمة المرهفة المدربة هي العمدة في دراسة الأصوات .

وتطورت الأمور إلى وضع ((ألف باء الجمعية الصوتية الدوليّة)) وكرَّسَ علماء اللغة ، والأصوات خاصّةً جُهودهم ليظهر إلى الوجود علم جديد باسم Phonology الذي هو علم الأصوات اللغوية الوظيفي . ووجدت فيه طائفة من المصطلحات لا تزال بين أخذ ، وردّ في مدلولاتها كما نجد في كلمة : Phoneme التي ترجمها معجم من أكبر المعاجم اللغوية بأنها إحدى وحدات الكلام الصغرى التي تساعد على تمييز نطق لفظةٍ عن نطق لفظة أخرى في لغةٍ أو لهجة* .. ومن المعروف أن ((الألف باء الصوتية الدولية)) لم تضع رموزاً لكتابة اللغات الأوربية وحدها ، بل وضعت رموزاً تصلح لكتابة أية لغة من اللغات كتابةً صوتية . وأضحت هنالك فرص كثيرة للتعاون بين علماء الصوتيات وعلماء اللغات لخدمة ((فقه اللغة)) العلم الذي نحن بصدده . ولكن بعض الأساتذة الباحثين سارعوا إلى تبنّي مصطلحات هذا وذاك من العلوم الصوتية دون أن يكون في اللغة العربية ذلك التقبّل المطلق لهذه المصطلحات ولذلك سنسمح لأنفسنا بالتبسيط والاختصار ، وبتناول المستحدثات بشيءٍ من الحذر مستأنسين دائماً بأوّليات فقه اللغة في الكتب العربية وعند أعلامها الكبار على وجه الخصوص .

لنضع حدّاً بين طلابنا وبين التّردي في هوّة المجاهيل .

الأصوات في اللغة العربيّة :

١- **الجهاز الصوتي :** بدأت بعض الكتب المهتمة بالأصوات في اللغة العربية بالحديث عن الجهاز الصوتي الإنساني ، وهو - ولا شكّ - جهاز مشترك

---

* انظرها في المورد لمنير البعلبكي .

بين عموم اللغات لأنه جهاز التصويت اللغوي عند عموم البشر . وقد وُجد في الجهاز الصوتي الإنساني أربعة عشر عضواً أقصاها الرئتان وأدناها الشفتان وهذا هو تعدادها دونما تفصيلات تشريحية : الرئتان ، الرُّغامى أو القصبة الهوائية ، الحنجرة ، الوتران ، المزمار الحلقي أو التجويف الحلقي ، لسان المزمار ، الحلق وهو مابين الحنجرة والفم ، اللّسان وهو الأهم بين أعضاء التصويت كُلِّها ، الحَنَك الأعلى وأماميُّهُ الغار وخلفيّهُ الطبق ، اللهاة ، الأسنان ، اللثة وهي من أصول الأسنان أو طوقها اللحمي ، الفراغ الأنفي من البّوابتين الأنفيّتين إلى الخيشوم أقصى داخل الأنف ، وأخيراً الشفتان ، وإليهما تنسب جميع الكلمات على سبيل الكناية فيقال : فلان لم ينطق ببنت شفة أي لم يتلفظ بكلمةٍ ، أو بحرفٍ من حروف اللغة* .

٢- **الصوت اللغوي :** وهو المسموع الصادر عن احتكاك الهواء بنقطةٍ من عضوٍ من أعضاء الجهاز الصوتي المذكورة وهو منطلق علم الأصوات وبالتالي علم اللغة .

٣- **الصامت والصائت :** وهي الأصوات اللغوية التي تشكل الحروف الأبجدية أو الهجائية في اللغة العربية وغيرها على اختلاف التسميات .

وقد وردت في كُتب اللغة بعدة تسمياتٍ بمدلول واحد ، ومن هذه التسميات :

الصامت والصائت .

الحبيس والطليق .

الساكن والمتحرك .

الحرف الصَّحيح وحرف العِلّة ** .

---

* انظر رأي ابن خلدون في مقدمته ص ٣٣ يقول : ((الحروف في النطق هي كيفيات الأصوات الخارجة من الحنجرة ..))

** سماه الخليل (حرفاً هوائياً) انظر ((فقه اللغة) للدكتور راجحي ص ١٣٠ .

اليابس (الجامد) والليِّن ، أو الشديد والليّن الخ....

كل ذلك مما يُترجمهُ المصطلح الإنجليزي للمتضادين :

Consonants الحروف الصامتة ، و Vowels الحروف اللّينة .

ومع أننا نميل إلى توحيد المصطلحَيْن بكلمتي صامت و صائت جَرْياً مع أهم المراجع في علم اللغة ، نجدنا مضطرين إلى التنبيه إلى المقصود بكلٍّ من المفردات المترادفة السابقة ، حتى إذا ورد استعمال أحدها عُرفَ مدلولُه .

إنّ رسم الحروف الهجائية أو الألفباء في اللغة العربية وغيرها من اللغات ، رسمٌ اصطلاحي غايته تمثيل الأصوات عن طريق الخط بالقلم ، ولهذا لا نجد فَرقاً بين أن نقول تتألف الصوامت العربية من ثمانية وعشرين صامتاً ، أو إنها تتألّف من ثمانية وعشرين حرفاً هي الآتية :

أ (همـــزة) – ب – ت – ث – ج – ح – خ – د – ذ – ر – ز – س – ش – ص – ض – ط – ظ – ع – غ – ف – ق – ك – ل – م – ن – هـــ – و – ي .

وهاهنا ، لا بد لنا من ملاحظة أن الحرف الأوّل إذا شئناه بين الصوامت أو الحبيسات من الحروف فهو همزة (أ) ، ونطقه من الحنجرة . أمّا إذا أطلقناه بلا همزة فهو من الأحرف الصائتة أو الطليقة ، التي سنأتي على ذِكْرها .

ونلاحظ أيضاً أن الحرفين (و ، ي) لا يدخلان في الحروف الصامتة إلّا في مثل كلمتي : و ، وَرْد و ي يَد ، لأنهما من الأحرف الصائتة أو الطليقة في كلمتين مثل :

و يدعو – ي يَرْمي .

ويمكننا أن نعدّ الواو والياء من الأحرف شبه الصائتة أو من الحروف شبه الصامتة لاعتبار صوتيٍّ من جهةٍ أو لاعتبار صرفيٍّ من جهة أخرى ، والاعتبار الصرفي يعني اعتبار بُنْية الكلمة وكيفيّة صوغها من أحرفٍ صامتة وصائتة .

أما ترتيب الأصوات أو الحروف فلقد جاء أبجديّاً كما وضعه الكنعانيّون واحتوى على حروف : (أبجد ، هَوّزْ ، حُطّي ، كَلَمُنْ ، قَرَشَتْ) ، غير أن اللهجات الحجازية واليمنية زادت عليها ستة حروف هي (ثخذّ ، ضظغّ) *وقد تغيّر ترتيب الحروف بعد الإسلام فرُتِّبتْ ترتيباً يضع الحروف المتشابهة في الرسم متجاورةً فجاء الترتيب الألفبائي أو الهجائي المعروف (أ – ب – ت – ث – ..) .

وصُنِّفت الحروف الهجائية الصوامت بحسب مخارجها على الوجه التالي :

- أحرف شفوية : ب – م – و – ف – .
- أحرف مابين الأسنان : ث – ذ – ظ .
- أحرف سنيّه لثويّة : ت – ط – د – ض – س – ز – ص .
- أحرف لثوية : ل – ر – ن .
- أحرف الحنك : ش –ج – ي – ك – غ – خ .
- حرف لهوي (يصدر عن اللهاة وهو : ق .
- حرفان حلقيّان هما : ع – ح .
- حرفا الحنجرة وهما : الهمزة – هـ .

وقد عمد بعضُ** الباحثين إلى دراسة نِسب شيوع الحروف الصامتة أو الحبيسة في الاستعمال القرآني فوجدَ أن معدّلات ورودها في كل ألف كلمة من القرآن الكريم كما يلي :

---

* ((قد يكون لأمةٍ من الحروف ما ليس لأمة أخرى)) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٣٤ .

** الباحث الدكتور إبراهيم أنيس ، في كتابه ((الأصوات اللغوية)) .

الحرف والعدد	الحرف والعدد	الحرف والعدد
ل – ١٢٧	ص – ٨	ق – ٢٣
ن – ١١٢	ض – ٦	د – ٢٠
هـ – ٥٦	ث – ٥	ج – ١٦
ت – ٥٠	ظ – ٤	خ – ١٠
ب – ٤٣	م – ١٢٤	ش – ٧
ر – ٣٨	همزة – ٧٢	غ – ٥
ع – ٣٧	و – ٥٢	ز – ٤
س – ٢٠	ي – ٤٥	ظ – ٣
ذ – ١٨	ك – ٤١	
ح – ١٥	ف – ٣٨	

ويلاحظ من الجدول السابق أن أكثر الصوامت استعمالاً حرف اللام ، ولكننا إذا وضعنا في الحساب وروده مع الـ التعريف ، كان حرف الميم هو الأكثر استعمالاً بالنسبة للكلام بوجهٍ عام بصرف النظر عن الأسماء المعرّفة .

الصوائت (ا ، و ، ي) :

أحرف المدّ أو اللين أو الإطلاق أو العلّة أو الأحرف الطليقة تلك هي المقصودة بالصوائت نقيض الصوامت أو الحبيسات من الحروف .

وتقسم هذه الأحرف الصوائت أو الطليقة إلى قسمين هامّين هُما : الصوائت القصيرة والصوائت الطويلة .

الصوائت القصيرة : وهي بلغة النحو والإعراب الكَسْرة والضمّة والفتحة كما وردت لإطلاق الصامت الأوّل في كُلٍّ من الكلمات الآتية على ترتيبها :

عِدْ ، عُدْ عَدد .

والصوائت الطويلة : وهي المدود اللّينة أو الطليقات وتنحصر في (ا ، و ، ي) ودورها أن تطلق الصامت أو الحبيس الذي قبلها على النحو الوارد في الكلمات الآتية :

عادَ : إطلاق العين الحبيسة بالألف .

يعودُ : اطلاق العين الحبيسة بالواو .

يُعيدُ : إطلاق العين الحبيسة بالياء .

وقد جُمعت الأصوات العربية ما بين صامتة Consonants ، وصائتة Vowels في جدولَي الجمعية الدولية للرموز الصوتية والمعروفة بمصطلح IPA على النحو التالي * :

- الجدول رقم ١-

١) الأصوات الساكنة / الجامدة Consonants		
١ ب	[b]	صوت انحباسي شفوي صوتي
٢ ت	[t]	صوت انحباسي سني - لساني لا صوتي
٣ ط	[t]	صوت انحباسي توكيدي سني - لساني لا صوتي
٤ د	[d]	صوت انحباسي سني - لساني صوتي
٥ ض	[d]	صوت انحباسي توكيدي سني - لساني صوتي
٦ ك	[k]	صوت انحباسي حلقي لا صوتي
٧ ق	[q]	صوت انحباسي لهوي (حلقي) لاصوتي
٨ أ	[?]	صوت انحباسي مزماري لا صوتي
٩ ج	[j]	صوت انحباسي-احتكاكي حلقي حنكي-لساني لاصوتي
١٠ ع	[c]	صوت احتكاكي - بلعومي صوتي
١١ ف	[f]	صوت احتكاكي سني - شفوي لا صوتي
١٢ ث	[Θ]	صوت احتكاكي ما بين الأسنان لا صوتي

* الجدولان عن كتاب الدكتور أحمد مؤمن ((علم اللغة والترجمة)) ص ٩ و ١٠ طبع دار القلم العربي بحلب ١٩٩٧ .

١٣ ذ	[O]	صوت احتكاكي ما بين الأسنان صوتي
١٤ ظ	[O]	صوت احتكاكي توكيدي ما بين الأسنان صوتي
١٥ س	[S]	صوت احتكاكي حنكي – لساني أمامي لا صوتي
١٦ ص	[S]	صوت احتكاكي توكيدي حنكي–لساني أمامي صوتي
١٧ ز	[Z]	صوت احتكاكي حنكي – لساني أمامي صوتي
١٨ ش	[s]	صوت احتكاكي حلقي – لساني جانبي لا صوتي
١٩ خ	[x]	صوت احتكاكي لهوي – خلفي لا صوتي
٢٠ غ	[g]	صوت احتكاكي لهوي – خلفي صوتي
٢١ ح	[h]	صوت احتكاكي بلعومي لا صوتي
٢٢ هـ	[h]	صوت احتكاكي حنجري لا صوتي
٢٣ ر	[r]	صوت مكرر ارتعاشي لساني – أمامي صوتي
٢٤ ل	[L]	صوت جانبي حنكي – لساني أمامي صوتي
٢٥ م	[m]	صوت أنفي شفوي صوتي
٢٦ ن	[n]	صوت أنفي حنكي – لساني أمامي صوتي
٢٧ و	[w]	صوت انزلاقي حلقي (مدور) شفوي صوتي
٢٨ ي	[y]	صوت انزلاقي (غير مدور) حلقي صولي

- الجدول رقم ٢* -

(٢) الأصوات اللينة Vowels		
١ إ	[I]	صوت لين غير مدور مرتفع أمامي قصير صوتي
٢ إي	[I]	صوت لين غير مدور مرتفع أمامي طويل صوتي
٣ أ	[a]	صوت لين غير مدور متوسط قصير صوتي
٤ آ	[a]	صوت لين غير مدور متوسط طويل صوتي
٥ ؤ	[u]	صوت لين مدور مرتفع خلفي قصير صوتي
٦ ؤو	[u]	صوت لين مدور مرتفع خلفي طويل صوتي

وقد سيق هذان الجدولان في معرض الحديث عن كتابة الرموز الصوتية ليستعملا كدليل للأصوات في اللغة العربية .

طوارئ الأصوات العربيّة :

طرأ على الأصوات المذكورة للّغة العربية ، منذ القديم وحتى عصرنا الحاضر طوارئ سببها تعدّد لهجات القبائل العربية من غير قُريش ، أو الميل الطبيعي العفوي إلى تسهيل النطق ، أو الاعتراف بقراءات القرآن الكريم كما أقرّها الرسول (ص) في حياته ، أو للتفنن والتنغيم ، وهذه الدّواعي في ظهور الطوارئ حسنها وقبيحها عديدة لا حَصْر لها ، وكذلك الطوارئ نفسُها ، مما رصد بعضَه علم النحو ، وبعضَه الآخر علم الصرف ، وبعضه الثالث علم القراءات القرآنية ، وسنكتفي بملامح موجزة عن كُلٍّ من الإمالة والإشمام والتخفيف والنبر والوقف ، مع الإحالة إلى مرجعٍ أو أكثر مما عني بالتفاصيل .

الإمالة : وهي في أشهر معانيها إصدار الصوت مابين الفتحة والكسرة في الممدود بالألف ، كقولهم في هذه المفردات :

ريجع مكان راجِع : بصائت متوسط e

حيوان مكان حَيَوان : بصائت أوّلي e َ .

رَمي مكان رَمى . بصائت : e َ .

مستشفي مكان مستشفى . بصائت : e َ .

والضُّحي مكان والضُّحى . بصائت : e َ .

وليست الياءات المذكورة في أمثلة الإمالة ياءات حادة الكسر بل هي تقع بين الكسر والفتح أشبه ما تكون بنطق الحرف اللاتيني e َ .

الإشمام : ويكون بالإشارة إلى الحركة (الصائت القصير) بالشفة من غير تصويت ، ويتقنه قرّاء القرآن الكريم عند التلاوة . والواقع أن الإشمام ليس صَوْتاً بل هو حركة عضليّة بالشفاه فقط ، القصد منها ، على قول النحاة بيان أنّ الموقوف مضموم .

فهو لا يعدو كونه طريقةً من طرق الوقف .

وليس له صوت يمثّله في لغةٍ من اللغات ، ولم يعترف به إلّا قلّة من النحاة .

التخفيف : ونعني به تخفيف نطق الهمزة التي هي أثقل نطقاً من الأصوات الأُخرى . وهناك مصطلحات صوتية في نطق الهمزة وتخفيفها نذكرها مع الأمثلة :

الهمزة المحققة : وهي الهمزة التي ينطق بها من غير تغيير مثل همزة : أَقْبَل .

الهمزة المخففة حَذْفاً : كنطق مَسْأَلة على شكل مَسَلَة .

الهمزة المخفّفة بحركتها : وهي الهمزة التي يحذف النطق بها لتبقى حركَتُها كهمزة التساؤل أإنْ إذْ تنطق أ – نْ .

الهمزة المخففة بالإدراج : وهي الهمزة التي تقلب إلى حرف مدٍّ من جنس حركة ما قبلها كقولنا

في رأس	راس
وفي بُؤْس	بُوس
وفي بِئْر	بير

هذا ، وليس تخفيف الهمزة من الوجوب ، وقد سُمِع عن عرب الحجاز

تخفيفها جوازاً ، وسمع عن قُرّاء الكوفة تحقيقها ، وسمع عن بني تميم التحقيق والتخفيف* .

النَّبْر : يقصد به التمكين في لفظ مقطعٍ من مقاطع الكلمة أو التمكين في لفظ الكلمة وحيدة المقطع مثل دَعْ ، قِفْ ، صُمْ .. وإذا كانت الكلمة مؤلفة من ثلاثة مقاطع فأكثر ومع النبر أو الشدّة في اللفظ على الثالث منها وتُعَدُّ المقاطع من اليسار إلى اليمين :

إسْتَغْفَرَ = إسْ – تَغْ – فَ – رَ .

وهنا وقع النبر على المقطع : تَغْ وهو الثالث من اليسار . وللنبر قواعد لفظية يحققها اللافظ الفصيح تلقائياً ولا جدوى من تفصيلها** .

الوقف : مهما طال نَفَسُ المتكلم في تلفظه بأصوات اللغة فلا بدَّله من الوقوف أخيراً عند لفظةٍ يجعلها آخر الكلام . فالوقوف هو السكوت بعد تصويت على منهجٍ أو دون منهج . أمّا إذا كان الوقفُ منهّجاً فله عدّة طرقٍ أهمُّها :

أ – الوقف على صامت ، أو الوقف دون تغيير كما في أواخر الجمل الآتية :

اجتَهِدْ تنجَحْ .

الخلوقُ يَسْمو .

قلْ لأبويكَ : نعَمْ .

ب – الوقف بالحذف : كما في حذف حركة الإعراب أو البناء من المُعرب أو المبني :

نحو : قامَ الرجُلْ . لحظتُ قيامَهْ .

وقد يحذف التنوين بالرفع أو الجرّ فيحذف منه صوتان هما الحركة (نصف الطليق أو بعضه) والنون الساكنة بعدها نحو : انتصرَ خالِدْ ، أُعجِبْتُ بخالِدْ – أمّاالمنوّن نصباً فيقتصر على حذفِ نون التنوين نحو هنّأتُ خالِدا .. وأجاز بعض المذاهب الوقوف على آخر المنون بالنصب ساكناً .

---

* راجع ((المحيط)) لمحمد الأنطاكي ج١ ص ٨٤ وما بعدها .

** انظر كتاب ((المحيط)) للأنطاكي ج١ ص ٥٢ .

ج – الوقف بالزيادة : ويكون بإضافة هاء السكت أو ألف الندبة وهاء السكت كما في هاتين الجملتين :

بِوَعْدِكَ فِهْ : أصلها فِ .

واحرَّ قلباه : أصلها واحرَّ قلبِ ، أو واحرّ قلبي أبدلت ياء الضمير ألفاً وأضيفت هاء السكت على شكل حرفٍ صامت .

د – الوقف بالقلب وله مظاهر كثيرة منها قلبُ تاء المؤنث في الاسم المفرد هاءً :

نحو : نجحتْ عائشةُ نجحتْهْ عائِشَهْ .

وقلب الهمزة ألفاً ، نحو : خاطبتُ المَلَأَ خاطبتُ المَلَا .

هـ – الوقف بالتقاء الساكنين على نحو :

لَعِبَ الطِّفْلْ .

رَجَعَ زَيْدْ .

ولكن هذا النوع من الوقف مكروه ومستثقل وقد يُتخفَّفُ منهُ بنقل حركة ما قبل الثاني من الأخير إلى الثاني من الأخير نحو : لَعِبَ الطِّفِلْ – فَتَحْتُ القُفُلْ .. ممّا تحكمهُ قواعد مختلفة* .

رصد التبدّلات الصوتيّة :

تقع التبدّلات الصوتيّة نتيجة عوامل نحوية أو صرفيّة مما يحكمه علم النحو أو علم الصرف ويحدّد قواعده بناءً على استقراء لحالاته المختلفة كأن ينتهي الفاعل بصوتٍ هو الضمّ الشبيه بالطليق (الواو) ، وكأن ينتهي المفعول بصوتٍ هو الفتح الشبيه بالطليق (الألف اللينة) ، وكأنْ تنقلب قُولَ إلى قِيلَ بقانون الإعلال ، أو تضاف على الأصل الثلاثي ألف ليتحوّل الفعل إلى اسم لمن قام بالفعْل (ضَرَبَ ، ضارِب) .. أمّا التبدّلات الصوتية التي لا أثر لها في معنى اللفظ ولا في وظيفته في التركيب اللغوي فتلك على الأرجح تبدّلات عفوية لا شعورية أو تابعة للهجة سائدة

* انظر تفصيلات وأمثلة أكثر في كتاب الأنطاكي ((المحيط)) ص ٦١ وما بعدها .

لدى عامّة المجتمع ، وهي جزء من موضوع علم الأصوات ، وهـي فـي منـأى عـن علمَيْ النحو والصرف . وإن ضمَّ القدماءُ بعضها إلى علم الصَّرْف .

والسؤال المطروح حولها ، في هذه الفقرة أين موضع التبدّلات الصوتية المحضة من علم اللغة ومن فقه اللغة ؟

إنّ لها – ولا شكّ – مكاناً في علم اللغـة أو اللسانيات Linguistique لأنـه من حيث الاختصاص يشمل كل جوانب اللغة الصوتيّة والصرفية ، والنحوية ، والدلالية* ، دون تخصيص لغة معينة كالعربية أو الفرنسية أو الإنجليزية الخ... وقد مَرّ بنا تعاون الجمعية الدولية للرّموز الصوتية بجدولـة عمـوم الأصـوات فـي عمـوم اللغات .

ونحن مع التعريف الإنجليزي لفقه اللغة الذي جاء فيه أن فقه اللغة علم اللغة التاريخي المقارن Historical and comparative Linguistics** فهو علم الإلمام باللغويات والصوتيات وتاريخها وتطوّرها ليس فـي لغـة معيّنـة بـل فـي أكثر اللغات حضوراً في دائرة الإنسان المثقّف . ولكلٍّ نصيبُه الأوفى ممـا هـو ألصـق بـه وهو لسان حال أمّته بأية لغةٍ تكلمتْ .

لذلك لن يكون غريباً أن نركزّ اهتمامنا في كتابنا :

((**الوجيز في فقه اللغة**)) علـى عموميّـات اللغـات وصوتيّاتهـا ، وعلـى خصوصيات هي ألصق بالعربية الفصحى التي ندرس معالمها الأبرز ضمن الإطـار العام من فقه اللغة .

---

* ((المدخل إلى فقه اللغة العربية)) الدكتور أحمد محمد قدور ص ٦ نقلاً عن ((علم اللغة العربية)) لمحمود فهمي حجازي ص ٣١ وما بعدها .

** بطاقة من إعداد الدكتور أحمد محمد قدور مدرس فقه اللغة في كلية الآداب بجامعة حلب .

الباب الثاني

الفصل الأول :

اللغة والمجتمع الإنساني .

الفصل الثاني :

تطور اللغات .

الفصل الثالث :

ملامح من الفقه اللغوي المقارن .

الفصل الرابع :

إشكاليات الترجمة والنقل .

الـــفـــصـــل الأول
اَللُّغَةُ وَالْمُجْتَمَعُ الإِنْسَانِيْ

اللغة أهم الظواهر الاجتماعية المتطوّرة :

إنّ ما يميّز مجتمعاً بشرياً عن مجتمع آخر قد يتجسّد في اختلاف المعالم الوجهية ، والقامات طولاً وقصراً ، والبشرات ألواناً ، والشُّعور التي فوق الرؤوس شقرةً وسوادًا .. إلى غير ذلك إلّا أن اللغة إذا لم نسمِّها بلغة المجاز أُمّاً لكل مجتمع ، تأتي كظاهرةٍ اجتماعية أُولى بين الظواهر الأخرى التي ذكرنا بعضها ، والتي لا تحصى عَدّاً وإذا كانت بعض الظواهر الاجتماعية شبه ثابتة على الزمن نجد اللغة كظاهرة اجتماعية متطورة تطوراً مطرِّداً في جوانب عدة من جوانبها في الأصوات ، في المتون والنصوص ، في القواعد ، في الدلالات المعنوية للألفاظ .

هذا التطور مما يتعاون علم اللغة Linguistics وفقه اللغة Philologg على تجسيده من جهة ، وعلى متابعة التاريخية المقارنة من جهة أُخرى .

ولا يدخل في قدرة الأفراد المتكلمين بلغة معيّنة ، ولا الأجانب عنها ، أن يقفوا تطوّر لغةٍ ما ، أو يجعلوها تجمد على وضعها وإن حاولوا ذلك عن طرق مختلفة كوضع المعجمات ، وتأليف القواعد النظرية .

لقد خرج العرب في صدر الإسلام من شبه جزيرتهم فاتحين ، وعمدتهم القرآن الكريم الذي نزل بلهجة قريش ، أرقى اللهجات العربية القبلية وأصلحها للبقاء فما الذي حدث عبر العصور حتى اليوم ؟

لقد توزع العرب الفاتحون في أقطارٍ وأمصار ، واختلطوا بشعوبٍ شتّى ، وفرضت العربية الفصحى سيادتها إلى حينٍ وساعدها على ذلك عواملُ عديدة منها

العامل الديني والعامل السياسي فالأوّل يعني حداثة العهد بالإسلام ، والثاني يعني هيمنة العنصر العربي حاكماً متمثلاً في الأشاوس من خلفاء بني أميّة وبني العبّاس حتى تقرب الأدباء والشعراء إلى سدد الخلافة بأفصح لغة منثورة أو منظومة ، بل بالأبحاث اللغوية الدقيقة والتي تتعامل مع اللغة النابعة من البادية العربية تعاملاً أشبه مايكون بالتعامل مع المقدّسات ، فأصرّت على تغليب السَّماع على القياس في المجال اللغوي ، وحَسْبُنا أن نضرب مثلاً على ذلك فصاحة الشاعر بشار بن برد ، واهتمام سيبويه* في كتابه بالنحو العربي . ودخوله في سجالٍ مع أهل السماع وعلى رأسهم الكسائيّ لينتصر السماع وينتصر الكسائي ، في مجلس يحيى بن خالد البرمكيّ في مسألةٍ شهيرة ((مسألة العقرب والزُّنْبور)) .

إنّ اللَّهْجة العامّية السائدة اليوم في كُلِّ قطرٍ من أقطار العروبة تكاد تفرض نفسها ، وتحقق لذاتها استقلالية ، دعا بعض المتعجلين إلى تكريسها والاعتراف بها ، وأدخلوها أحياناً إلى الفنون اللغوية الإبداعية على شكل زجليّات وشعرٍ نبطيّ وأدب شعبيّ .

وما يهمنا من ذلك كُلّه هو الإشارة إلى خط التطور اللغوي لا تقويمه ونقده . ومما يقيم للعربية الفصحى وزنها وقيمتها وبقاءها أن سيرورة اللهجات المحلية لم تقو – حتى اليوم – على اللغة المكتوبة ، ولم تقدر على استيعاب العلوم والآداب والفنون ، ولم تجد من يتبناها ، ويضع لها القواعد وحَرْمَ ذلك بحراسة مثل الأمة العربية العليا ، بالمحافظة على الدين وعلى الوحدة القومية .

وقد يتساءل العالم اللغوي بمعيارٍ فقهيٍّ عن العوامل المباشرة في تفرّع اللغة إلى لهجات وهذا ما أجاب عنه في وقت مبكر ، الباحث الدكتور علي عبد الواحد وافي في كتابه ((اللغة والمجتمع)) مما سنورده موجزاً فيما يأتي :

إن السبب الرئيسيّ في تفرع اللغة إلى لهجات ولغات هو سعة انتشارها .. مما يتيحُ الفرص لظهور عوامل أخرى تؤدي إلى هذه النتيجة .. وهذه العوامل الفرعية منها :

---

* انظر ترجمة لسيبويه في كتاب ((الوسيط)) لأحمد الاسكندري ورفيقه ص ٢٣١ .

١- **عوامل اجتماعية سياسية :** تتعلق باستقلال المناطق التي انتشرت فيها اللغة بعضها عن بعض ، مما يؤدّي إلى ضعف السلطان المركزي الذي كان يجمعها ، وهذا يؤدي بدوره إلى انفصام الوحدة الفكرية واللغوية .

٢- **عوامل اجتماعية نفسيّة :** تتجلى بالفروق بين النظم الاجتماعية والأعراف والتقاليد والعادات ومناحي التفكير والوجدان مما ينعكس على أداة التعبير وهي اللغة .

٣- **عوامل جغرافيّة بيئية :** وتتمثل فيما يكون من فروق بين المناطق في التضاريس والجوّ وطبيعة البلاد ، من صحارى إلى أغياط وأحراج ، وما يفصلها عن بعضها من جبالٍ وأنهارٍ وبحار وهذا كلّه مما يؤدّي إلى فروق وفواصل في اللغات .

٤- **عوامل عرقية وراثية :** تفرز الانتماءات إلى قومٍ دون آخر مما يؤدي في النتيجة إلى تفرّع اللغة الواحدة إلى لهجاتٍ ولغات .

٥- **عوامل جسميّة خَلقيّة :** تنعكس على الجهاز الصوتي لدى الإنسان مما يمضي بالمتكلم إلى اختيار عفوي أو جنوحٍ لأصواتٍ دون أخرى يؤدي في النهاية إلى حلول لهجة جديدة أو لغة جديدة .

والمسألة بين اللهجة واللغة مسألة مسافة . فإذا اتّسعت المسافة بين اللهجات الناشئة ، أصبحت كل لهجةٍ منها لغة متميّزة مستقلّة لا يتعاطاها ولا يفهمها إلّا أهلها .

بين الفُصحى والعامية :

بوجود العوامل السابقة تشعبت العربية الفصحى إلى عاميّاتٍ قطرية ولهجات . وقد قسم العلماء هذه اللهجات العامية إلى خمس مجموعات تشتمل كُلٌّ مجموعةٍ منها على لهجاتٍ متقاربة في أصواتها ومفرداتها وأساليبها وقواعدها . وهي متقاربة فيما بينها في مجال المؤثرات التي خضعت لها . ونعدد هذه المجموعات فيما يلي :

١- مجموعة اللهجات الحجازية النجدية .

٢- مجموعة اللهجات الشامية (سورية ولبنان وفلسطين والأردن) .

٣- مجموعة اللهجات العراقية .

٤- مجموعة اللهجات المصرية (مصر والسودان) .

٥- مجموعة اللهجات المغربية (شمالي إفريقيا) .

ويجب علينا أن نلاحظ أن نسبة هذه اللهجات العامية إلى مواطنها في الشام والعراق ومصر يؤكد على أصلها العربي استثناء من بعض لهجاتٍ منحدرة من الآرامية ، والكردية ، والبربريّة ، وهي متواجدة في مناطق محدودة من أقطار الوطن العربي الكبير وقد لوحظ أن أدنى هذه المجموعات العامية إلى العربية الفصحى مجموعتان هما :

١- اللهجة الحجازية النجدية .

٢- اللهجة المصريّة .

أمّا اللهجة الحجازية النجدية فهي أدنى إلى الفصحى ، لأن معظم أهل الحجاز ونجد ينتمون إلى عناصر عربيّة خالصة ، وأمّا اللهجة المصرية فهي أدنى إلى الفصحى لأن صراع العربية الفصحى الذي بدأ مع الفتوح الإسلامية ، في القرن السابع الميلادي لم يكن عنيفاً ، ولم تلق اللغة العربية في أثنائه مقاومةً شديدة من اللسان القبطي الذي كان يتكلم به أهل مصر قبل الفتح العربي الإسلامي .

ومن المعترف به في قوانين اللغويات أن اللغة التي يتمُّ لها الغلب بلا مقاومة شديدة تخرج من صراعها ، أقرب ما تكون إلى صحّتها . ومع ذلك ، إن معظم أهل مصر منحدرٌ من عشائر عربية الأصل* .

ويلاحظ أن أبعد هذه المجموعات عن العربية الفصحى هي المجموعتان العراقية والمغربية . إذ العراقيّة شديدة التأثّر بالآرامية والفارسية والكردية . بينما المجموعة المغربية شديدة التأثر باللهجات البربرية التي كان يتكلم بها معظم السكان قبل الفتح العربي الاسلامي .

وحكماً ، نجد لهجات البدو أفصح وأقرب إلى **الفصحى** من لهجات الحضر ، كما أن لهجات القُرى في جميع المناطق أفصح من لهجات المدن ، وأقلُّ منها عدداً في الكلمات الدخيلة ، ويرجع ذلك إلى ميل سكان القرى إلى المحافظة وقلة الاحتكاك بالغريب .

ومع ذلك نجدُ للفصحى سيادتها عندما تستخدم في الخطابة والتدريس والمحاضرات وتلقين العلوم المختلفة .

ولا يخفى أن العامية والفصحى قد أوشكتا قبل ثلاثة أجيال أو أكثر من اليوم ، أن تتّجها إلى الانفصال بفريقَيْن من المؤيدين لهذه أو تلك . فقد دعا المستشرق الألماني ((ولهلم سبتا)) أمينُ دار الكتب بالقاهرة ، المتوفى سنة ١٨٨٣ ، إلى تحقيق مشروع استقلال اللهجة المصرية العامية باستنباط حروف إفرنجيه ، وتأليف كتابٍ في قواعد الصرف والاشتقاق التي تسير عليها هذه اللهجة . ورغم استجابة بعض المؤيّدين لهذا الاتجاه من أمثال سلامه موسى المتوفى ١٩٥٨م ، انتصر الباعث القومي والحضاري ، ومظهرُ الوحدة الدينية والثقافيّة على هذا التكريس المغرض ، وجاءت أجهزة الإعلام المتطوّرة أخيراً لتقارب بين عموم

---

* انظر ((فقه اللغة)) للدكتور علي عبد الواحد وافي ص ١٤٣ وما بعدها .

اللهجات عن طريق الحوار المسرحي ولتعمم الفصحى المبسّطة على كل أنحاء الوطن العربي الكبير بأجزائه المترامية الأطراف من الخليج إلى المحيط .

وكان حرّياً بنا أن نسوق بعض نماذج لعاميّة كل قطر ، ولخروجها على الفصحى ودساتيرها المصونة في الكتب وفي صدور المتعلمين ، وهذا ما سوف نفعله من قبيل التمثيل لا من قبيل الإحاطة ، لأن الإحاطة الشاملة تكلّف جهداً كبيراً وتستغرق كُتباً لا كتاباً واحداً اختار لنفسه اسم ((الوجيز في فقه اللغة)) وتبقى إطلالتنا من خلال (اللغة والمجتمع الإنساني) وهذا هو عنوان الفصل الذي ابتدأناه .

= من التكيّفات الخارجة على الفصحى مثلاً ذلك التغيير في نطق الصوامت من الحروف الفصيحة التالية :

الجيم	جيم غير معطّشة	كيم في العامية المصرية .
الثاء	س – ثابت	سابِت
الذال	د – ذَهَب	دَهَب
الظاء	ض – ظُلمة	ضَلْمة
الظاء	زاي غليظة – ظريف	زريف*
القاف	همزة – قُطّة	أُطّه
القاف	جيم – قُلت	جُلْت

= ومن التكيّفات الخطيرة سقوط علامات الإعراب واستبدالها بالوقف على جميع الكلمات في العبارة الواحدة :

* لا رسم إملائي أو كتابي يمثّل الظاء في العاميّة الشامية أو المصرية لدى سكان المدن خاصة .

عَزَلَ عُمَرُ خالداً　　عَزَلْ عُمَرْ خالدْ .

= سقوط ألف الاثنين ، و واو جمع المذكر السّالم ، ونون النسوة في معظم اللهجات العاميّة ، وتكرار الفاعل* من ضمير واسمٍ لاحقٍ .

مات الرَّجلان　　ماتوا الرَّجلين .

وصل المتسابقون　　وصلوا المتسابقين .

عائشة وفاطمة وخولة وَصَلْنَ　　عائشة وفاطمة وخولة وصلوا

= تحريك ياء المضارعة المفتوحة كيفيّاً بإلغاء كلّ قاعدة :

يرَوحُ　　يُروحْ

يَسْجُدُ　　يِسْجُدْ

يَسْمعُ　　يِسْمَعْ .

= الإمالة فيما ثانيه ألف من الأسماء على غير قاعدة :

بائت　　بايت　　بييتْ .

نازِل　　نيزِل .

راجعْ　　ريجع .

= الاختلاف الدلالي لبعض الكلمات :

مكسوف = خجِل .

شايف حاله = متكبّر .

مرقَ = انهزم .

= إدخال المفردات الأجنبية من قبيل التظارف والتميّز .

---

* وهذا مما عيب قديماً في أول ظهوره وعرف بلغة : ((أكلوني البراغيث)) حيث تكرر الفاعل ممثلاً في واو الجماعة والبراغيث .

فُلان جانتي = فلان لطيف المعشر .

فلان سفستكيتِد = فلان معقّد النفس .

أوكّي = حَسَناً ، موافق .

باي = وداعاً .

= إقحام الفعل المساعد (أكون) أو ما يدل على الكون العام الذي يحذف وجوباً في العربية الفصحى :

أنا أبوه أنا أكون أبوه .

أنا في البيت أنا موجود في البيت .

في ترجمة حرفية لقولك بالإنجليزية

I am his father

I am at home

هذا غيضٌ من فيض لتجاوزات العاميات من اللهجات على الفصحى الأمّ ، ولو اقتصر الموضوع على إغزار القاموس العربي والإكثار من مفرداته لهان الأمر فقد استفادت العربية الفصحى في القديم ، من القاموس الفارسي ليمدها بالكثير من المفردات كمسمّيات لأشياء لا تسميات لها بالعربيّة ، وكان منها منذ الجاهلية : الدولاب ، الدّسكرَة ، الكعك ، السّميذ ، الجلّنار ..

ومن القاموس الهندي ، الفلفل ، الجاموس ، الشّطرنج ، الصّندل . ومن القاموس اليوناني ، القبّان ، والقنطار والترياق .

وقد ورد حتى في القرآن الكريم الكثير من معرّبات الجاهلية ، حتى قال ابن جرير : ((في القرآن من كُلِّ لسان))* .

---

* انظر ((دراسات في فقه اللغة)) للدكتور صبحي الصالح ص ٣١٦ .

وليس من غضاضةٍ في إغزار المفردات إذا شملها التعريب بتقريب لهجتها إلى العربيّة (أرائك) أو أشير إلى عُجْمتها بالبناء على حركة آخرها :

(سيبويهِ) أو بالمنع من التنوين في حال العلميّة : (بغداد ، همذان ، أصفهان) .

هذا ، وقد أتيح للعربية الفصحى ما يعضدها من الكتب المنبهة إلى وجوه الصواب في كلِّ خروجٍ عن الفصحى . ومنذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين الميلاديين تطوّعت الصحافة ورجالها لتصويب عثرات الألسنة والأقلام ، إمّا على صفحاتها ، وإمّا بإصدار كتيّبات لهذا الغرض ومن المعنيين بهذه القضية أحمد فارس الشدياق صاحب الجوائب ، وإبراهيم اليازجي* ، والشيخ أمين ظاهر خير الله ** ، وسليم الجندي*** ، وعبد القادر المغربي وغيرهم كثيرون .. وقد جاء هذا المقطع في كتاب لغة الجرائد للشيخ إبراهيم اليازجي ليحدد ما هدف إليه من تناول لغة الجرائد غير السويّة بالنقد والتصويب ، وهو مما نشره في مجلّته المسّماة بـ ((الضياء)) ، يقول اليازجي : ((.. ولا يخفى أن الغلط في اللغة أقبح من اللحن في الإعراب ، وأبعد من مظانّ التصحيح ، لرجوعها إلى النقل دون القياس ، فيكون الغلط فيها أسرع تفشّياً وأشدّ استدراجاً للسّقوط في دركات الوهم .. ولمّا كان الاستمرار على ذلك مما يُخاف منه ، أن تفسدَ اللغة بأيدي أنصارها والموكول إليهم أمر إصلاحها ، وهو الفساد الذي لا صلاح بعده ، رأينا أن نفرد لذلك هذا الفصل ، نذكر فيه أكثر تلك الألفاظ تداولاً ، وننبّه على ما فيها ، مع بيان وجه صحّتها من نصوص اللغة .. ولا نقصد بها إلّا المحافظة على اللغة وصيانة

---

* ولد في بيروت ١٨٤٧ وتوفي في مصر ١٩٠٦ له كتاب ((لغة الجرائد)) .

** له كتاب اللؤلؤ المنضود في رفع نقود .

*** له كتاب إصلاح الفاسد من لغة الجرائد .

أقلامهم من مثل هذه الشوائب مع كفايتهم مؤونة البحث والتنقيب في كتب اللغة ، على ماهو معلومٌ من وعورة مسلكها وشكاسة ترتيبها* ..))

ولا ينكر الباحث المطلع أن جهود رجال الأدب والصحافة وغيرتهم على اللغة العربية الفصحى قد أعطت ثمارها فتصحّحت الفصحى المتداولة في عصر النهضة ، وعادت إلى سابق عهدها من الازدهار تدريجاً بلغ أوجه مع نهاية القرن العشرين الميلادي الذي نحن فيه .

ونذكر جهود مجامع اللغة العربية المنشأة في دمشق وبغداد والقاهرة وغيرها من عواصم المشرق والمغرب دون تفصيلات تخرجنا عن موضوع الفصل الذي نحن بصدده ، وعن موضوع الكتاب إجْمالاً ..

لقد شرعت الفصحى تُطرد العامية في كل قطرٍ عربي وإن كان ذلك ببطء كتبدد السحب من صفحة السماء ومن ذكريات المؤلّف ما تساقط وانعدم من مفردات وتعابير عامية استعملها جيل الآباء* . فلقد استعملوا :

ترين ، وابور ، أوتومبيل ، لتحل محلها الفصيحات من قطار ، وباخرة ، وسيّارة . واستعملوا :

تلغراف ، تلفون ، تياترو لتحل محلها الفصيحات :

برقية ، هاتف ، مَسْرح . وعبّروا بقولهم :

انجعز خاطره ، تلخبط ، تجعلك قمبازه ، طصّ بعينُه .. عمّا يُعَبّر به اليوم بـ انزعج ، خجل أو اضطرب ، نجعّدَ ثوبه ، نظر بعينه ..

ومهما يكن فإن اللغة الحية كالشجرة النامية تتساقط منها أوراق لتتجدد أوراق . ولن تمسّ صحتها بكبير ضرر ما دام الجذع قائماً منتصباً له حضوره في عيون راصديه ، وقبل ذلك في وجدان أصحابه ، وعلى أفواههم وألسنتهم .

---

* عن ((لغة الجرائد)) لليازجي . الطبعة الأولى بالإسكندرية بلا تاريخ التمهيد ص ٣ و ٤ .

* من أهالي مدينة حلب شمال سورية

الفصل الثاني
تَطَوُّرُ اللُّغَاتِ

لا نعني بهذا العنوان أكثر من إيراد نبذة عن المنحى التطوري للغات عموماً ، مع ضرب بعض الأمثلة المحدودة على وجه الإيضاح لا الاستغراق في التفصيلات . والفصل في مجمله أقرب إلى أن يكون نبذةً مما يقال تحت هذا العنوان الضخم .

منحى التطوّر اللغوي :

كانت المجتمعات البشرية وما تزال عرضةً للاحتكاك الاجتماعي بسببٍ من غزوٍ أو فتحٍ أو تجارة ، وقد جاء الاحتكاك بين اللغات نتيجة لازمة للاحتكاك الاجتماعي وهو ما ينطلق منه التطور اللغوي .

وفي تاريخ كل لغةٍ من اللغات الحيّة شواهد على الأخذ والعطاء بين لغةٍ ولغة .

فاللغة الإنجليزية قد أخذت عن النورمانديّة ، لأن الغزاة النورمانديين استقرّوا في بلاد الإنجليز بعد الغزو . واللغة اللاتينية اقتبست من الإغريقية لتجاور الشعبين اللاتيني والإغريقي وامتزاجهما .

والملاحظ أن المفردات التي تقتبسها لغة عن أُخرى تختص بما تحتاجه وبما تتميز به الأمّة الواهبة . وهكذا نجد أن معظم ما دخل إلى اللغة العربية من المفردات الفارسية واليونانية مما يتّصل بمميزات الفرس واليونان كشعبين سابقين في ميدان التحضّر .

جاء في الباب التاسع والعشرين من كتاب فقه اللغة للثعالبي فصل عنوانه ((فصل في سياقة أسماء فارسيّتها منسية وعربيّتها محكيّة)) وهذا يعني أن ما دخل اللغة العربية من اللغة الفارسية قد استقر فيها حتى حُسِبَ منها ، وقد أربى على المائة عَدّاً مع أنه قد جاء في معرض فصلٍ من كتابٍ لا معرض استقصاء . ولأن العرب مختصون بما عندهم أورد المؤلف (الثعالبي) في كتابه فصلاً في أسماء عربية ، يتعذَّر وجودُ ما يقابلها بالفارسية ومنها : (المسلم ، المؤمن ،الحجّ، الزكاة ، القرآن ، القبلة ، المحراب ، المنارة ، الضَّريح ، الزَّقّوم ، التيمّم ، الإقامة ...) ويأتي فصل ثالث ، بل فصل لاحق في سياقة أسماء تفرّدت بها الفرس دونَ العرب منها : (الكوز ، الإبْريق ، الخوان ، الطَّبق ، القصعة ، الطِّشْت أو الطَّسْت ، السُكُرَّجَة * ..)

نستنتج أن كل لغةٍ من اللغات المتجاورة أو المحتكّة ببعضها تعطي الأخرى ما ينقصها ، وقد يحدث التبادل ليبقى الأصلح للبقاء من أكثر من جهةٍ أحدها ما يلائم اللسان ، وثانيها ما يلائم الوجدان ، وثالثها ما يلائم مذهباً أو عرفاً اجتماعياً مستجِدّاً ، إلى آخر الاحتمالات . وشاهدها أن الأمة العربية الإسلامية حين اتجهت في طريق الحضارة الأمميّة ترجمت عن اليونانية ، وعرّبت من ألفاظها عدا مصطلحات الطبّ والفلسفة أسماء كثيرة مثل : (القنطرة ، القنطار ، البطاقة ، القرميد ، القسطاس ، السجنجل أي المرآة) .. ومن هذه المفردات ما تبنّاه الشعر العربي ، والقرآن الكريم قبل مرحلة الترجمة .

وتخضع الكلمات المقتبسة للأساليب الصوتية التي اقتبستها ولمقوّمات هذه اللغة من موازين صرفية وقوالب إلى تلاؤم نسيجي بين الأصوات في الكلمة الواحدة لأن حروف الهجاء منطوقةً أو مكتوبة قد تعجز عن استيعاب ما يقابلها في اللغات

---

* السُكُرَّجة : نوع من صحاف الطعام .

الأخرى . ففي حين نطق العرب ترجمة كلمة الشعر عن اليونانية بوطيقا ، نطق الإنجليز والفرنسيون ترجمة كلمة (قُطن) إلى ما هو أرق من الطاء العربية فتلفظوا بها كوتونْ : cotton ولفظوا : كافي (cafe) في قهوة . ولم يسعفهم التكيف اللسانيّ بغير لفظة (كيكْ cake) المنقولة عن العربية عن الفارسية القديمة ، إذ صوت العين شبه معدوم في اللغات الأوربية كافة .

وهكذا نجد المنحى الأكبر للتطور اللغوي يتلوّن بالدرجة الأولى باللون الاجتماعي . ولكنه في الوقت نفسه يتأثر بعوامل بيئيّة ، ولسانية عضوية (فيزيولوجية) ، ويصدق ذلك حتى في اللغات المتّفقة في حروف الهجاء كالفرنسية والإنجليزية وحتى في الألفاظ الشائعة بالتبادل بين اللغتين من أمثال :

foot - ball - boy scout
sterling - rugby .....

فما يكاد الإنجليزي يتبينها إذا نطق بها الفرنسي رغم الاتفاق على مدلولاتها* .

حركة التجديد في اللغة :

الكائن الحيّ ، يتعرّض إلى حالة كُمون تسبق نهوضَه وتجدده .. ولا تستبعد هذه الحقيقة عن أية لغة باعتبارها تشبه الكائن الحيّ تمرّ في حالة كُمون واسترخاء قبل أن تثب وتتجدّد .

إنّ اللغة الحيّة لا تخسر هويّتها مَهْما تجددت مراحل بقائها ، ويمكننا رصد هذا التجدد من خلال بعض مظاهره متمثلين بتجارب اللغات قديماً وحديثاً .. وفيما يلي تعداد لأقرب المظاهر الملحوظة ، نوردها بشيءٍ من الإيجاز في الشرح :

---

* راجع ((اللغة والمجتمع)) للدكتور علي عبد الواحد وافي ص ٤٠ .

١- **تأثّرُ الأدباء بأساليب اللغات الأجنبية :** ونعني بهذا التأثر تأثر الاختيار والاستحباب والرغبة في التطلع إلى عالمٍ أوسع .. وهذا التأثر يأتي من جرأة الطليعة الشبابية والمثقفة وتطلعها نحو التجدد ، وقد مرّت لغتنا العربيـة فـي قدمها وحداثتها بهذه التجارب ..

فبعد الانكماش النسبي للغة ، والذي كان في العصر الأمـوي ، وهـو مرحلـة تثبيت الهويّة اللغوية والقومية ، انطلق الأدباء في عصـر بنـي العبّاس إلـى الانتفـاع باللغتين الفارسية واليونانية ، وحسبنا ذكر اسمَيْ ذروتيـن مـن ذُرا الثقافـة المؤثـرة والمتأثرة وهما شخصيتا عبد الله بن المقفع وأبي عثمان الجاحظ .. لقد أخـذ هـؤلاء يترجمون آثار غيرهم من الأمم ، ويقتبسون من مفرداتها ويمزجونها بمفردات لغتهم فاتّسع بذلك متن اللغة العربية ، وانقلب بحرها إلى محيطٍ واسع ..

وكذلك الحال ، من بعد حملة نابليون علـى مصـر فـي أواخـر القرن الثـامن عشر وجد جيل ، رفاعة الطهطاوي وأحمد فارس الشدياق ، وأنشئت مدرسة الألسن لتعريب كلّ شيءٍ ، واقتباس كُلِّ شيءٍ ، ونشطت الهجرات إلى العالم الأوربي وعالم مـا وراء البحـار ، لينشـأ أدبٌ جديـد بلغـة جديـدة حرسـها التيـار المحافظ ، وأغناها التيار المتجدد .

وهذا ما يذكرنا بعصـر النهضـة الأوربيـة Renaissance الـذي فتـح بوابـة الاقتبـاس مـن اللغتيـن اللاتينيـة واليونانيـة واسـتغلها أمثـال Balzac بـلزاك ، وDescartes ديكارت ، فإذا بالفرنسية لغة متطورة غنيّة .. ولولا فيض المفردات التي استمدّها الأدب الألماني من اللغة اللاتينية واللغات الأوربية الحديثة لم تقو لغة الكتابة بألمانيا حتى بلغت المعاصرة الراقية .

٢-الردّة المعجميّة : التي تتجلى بعودة الأدباء ، وقبلهم علماء اللغة إلى معاجم اللغة القديمة ، للتعبير عن معانٍ لا يجدون في المفردات المستعملة ما يعبّر عنها تعبيراً دقيقاً ، ورغم أن المفردات المبعوثة من المعاجم تعيش في جوٍّ من الاغتراب في بادئ أمرها ، إلّا أنها ما تلبث حتى تدخل معجم الحداثة والمواكبة لعصرها ، وتغدو بين الكلمات المطروقة الدارجة على كُلِّ لسان . وقد تبنّت المجامع العلمية العربية عندنا عديداً من المفردات نبشتها من التراث الراكد ، او استخدمت معها الاشتقاق . وبناء عليه تمكنّت جامعة دمشق المُنْشأة في مرحلة مبكرة من القرن العشرين الميلادي من تعميم الدراسة باللغة العربية في جميع كليّاتها ، بما فيها كلية الطبّ البشري وكليّات العلوم الكيميائية والفيزيائية والصيدلانية .

وتبعتها جامعات وكليّات أخرى في سورية ، وفي أقطار أخرى من الوطن العربي وظلّت الجامعات السورية هي الرائدة وهي المتمكنة في هذا الباب ، باب إحياء المفردات القديمة المهجورة باستخدامها لما استجدّ من حاجات :

٣- التوليد والاختراع : فقد عمد الأدباء وعلماء اللغة إلى فرض مفرداتٍ لم يكن لها أصلٌ في الكلمات المندثرة . وقد لا يدفعهم إلى ذلك مجرد الاحتياج بل مجرّد الرغبة في الإبداع ، أو مجانبة الألفاظ المتداولة المألوفة

وقد أجاز مجمع القاهرة اللجوء إلى هذه الطريقة حين تدعو إلى ذلك الضرورة ، ولا يوجد في مفردات اللغة ، المتداول منها والمهجور ، ما يعبّر تعبيراً دقيقاً عن الاصطلاح المراد التعبير عنه .

وقد ارتضى الأدباء والعلماء بعض قواعد عامّة في وضع هذه الألفاظ . وهم يستعينون في تكوينها عادةً بالنحت والاشتقاق الأكبر* ، والتركيب المزجي ، ومن

---

* هو استغلال اتفاق الأحرف الثابتة في كلمتين أو عدة كلمات مع تقارب معانيها ما يلزم من كلمات جديدة . انظر ((في أصول النحو)) لسعيد الأفغاني ص ١٠٥ .

حسن الحظ أن هذه الطرق معروفة كُلها لأهل العربيّة ومنذ أول عهدها وحين احتاج الغربيون إلى مفردات جديدة للتعبير عن المستجد من العلوم والمخترعات والمكتشفات . لم يجدوا غضاضةً في المزج بين كلمتين من لغتين مختلفتين مثل Sociology سوسيولوجيا أي علم الاجتماع فصدر الكلمة لاتيني معناه الجماعة ، وآخرها من أصل يوناني معناه مقال أو منطق أو عِلْم .

وقد أغرق جيل المعاصرة من الأدباء العرب في اختراع شيءٍ من لا شيء في بعض مفرداتهم :

فجاء عندهم الفعل (تماهى) من الماهيّة ، وقصدوا به التكوّن والتجلّي ، وتلاشى بمعنى انعدم وجوده . وتلفز بمعنى بثّ المرئيات عبر الفضاء ..

ولا يخفى أن مثل هذه المفردات المتولّدة في آنها تظل تجري إلى غير مستقرّ حتى يجري تدوينها والاعتراف بها في كتب اللغة ، وإلّا تطردها من الساحة مفرداتٌ أخرى أصلح منها للبقاء .

٤- **التأليف اللغوي** : إذ يشهد هذا العصر ومنذ بداية عصر النهضة نشاطاً ملحوظاً في التأليف ونشر البحوث التي ترمي إلى حفظ اللغة وضبطها وتحقيق سلامتها وتخليدها ، مع المحافظة قدر المستطاع على خصائصها .. وهذا التأليف يشمل : إصدار المجلّات والدوريّات اللغوية كمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، ومجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة .. ومنه إصدار المعجمات ودوائر المعارف . وكتبٍ أخرى شاملة لعلوم اللغة العربية* . وقد ركبت بعض الاهتمامات موجة الحداثة فقدمت مواد اللغة على شكل أشرطة تسجيل صوتية ، وصوتية وبصرية .. واستعدّت بعض المؤلّفات لبرمجة نفسها عن طريق الحاسوب** . والمستقبل يبشر

---

* للمؤلف سلسلة كاملة في علوم اللغة العربية . نشرتها دار القلم العربي بحلب .

** انظر مقدمة ((القانون في النحو)) للمؤلّف .

بتطوراتٍ جديدة لنشر المعلومات وتعميمها واستخدام طرق علمية جديدة في الحفظ والتوثيق والتصحيح المنهجي .

وعلى هامش التأليف اللغوي ، إنْ لم يكن بشكل مستقل ، يأتي الاهتمام بالترجمة للأعمال الأجنبيّة ، الإبداعية منها واللغوية . وهذا مما يكفل تبادل التأثير اللغوي والتأثّر ، ويوسّع الدائرة أمام علماء اللغة ومبدعي نصوصها .

وقد أضحت الأبواب مشرعة أمام تبادل التأثير والتأثر ولا سيما في مجاليْ علم اللغة وفقه اللغة باستخدام الآليات الحديثة للاختبار والاستنتاج وبالتأليف في فقه اللغة المقارن* .

٥- **عقد المؤتمرات اللغوية :** في عام ١٩٦١ عُقدَ مؤتمر لغوي عام لتبسيط قواعد اللغة ، وقد انبثق عنه ((المكتب الدائم لتنسيق التعريب)) وقد اتخذ طائفةً من التوصيات كان من بينها : وضع كتاب شامل لقواعد اللغة والنحو يراعى فيه التبسيط وقرب المتناوَل مع تزويده بفهارس دقيقة تمكن الباحث من العثور على ما يريد بأقل مشقة .

وفي عام ١٩٦٤ عقد مؤتمر توحيد المصطلحات وقد وكلت المهمة للإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية ، والمجامع العلمية واللغوية القائمة في كلٍّ من القاهرة ودمشق وبغداد .

ومن الجدير بالذكر أن المكتب الدائم لتنسيق التعريب قد أنجز معجماً للفقه والقانون ، وباشر بإعداد معجماتٍ في كلٍّ من الرياضيات والفيزياء والكيمياء تشتمل على المصطلح العربي من قبل مختلف البلاد العربية .

---

* انظر جدول الجمعية الدولية للرُموز الصوتية **IPA** في الفصل الرابع من الباب الأول من هذا الكتاب .

ومـع أن المعـاهد التراثيـة والمجـامع العلميـة القطريـة دائبـة النشـاط والاجتماعات نجدنا في أشد الحاجة وفي مواعيد دورية إلى عقد مؤتمر عـام كبير ، يضع المشكلات المستجدّة علـى منضدة البحث والدراسة للخروج بالحل المناسب الذي يكون التوحيد بين الاتجاهات أكبر همّه ، بالإضافة إلى التحديث ومواكبة العصر .

وقد كان آخر ما بحثت فيه الندوة المنعقدة في دمشق * لمجمع اللغة العربية بعنوان ((اللغة العربية ، ملامح الحاضروآفاق المستقبل)) ودارت الندوة حول المحاور الآتية :

١- مشكلة الأداء في اللغة العربية ، أسباب الضعف ووسائل العلاج .

٢- التعريب والمصطلح .

٣- تيسير مباحث العربية : الإملاء ، النحو والصرف ، البلاغة .

٤- المعجم العربي : وصف المعجمات المتوافرة .. ووضع معجم عربي حديث يفي بجميع المتطلبات .

٥- مستقبل اللغة العربية : وسائل تحديثها : لتستطيع هذه اللغة مسايرة التطور العلمي والتقني المتسارع .

هذا ، ولقد كان أكبر إنجاز ملموس لجهود المجامع اللغوية القضاء على فكرة استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، وهو الاقتراح الذي لعلعت به بعض الأصوات عن حسن نية أو عن سوء نية ، وانتهى إلى الإخفاق .

---

* عقدت بتاريخ ٢٦ / ١٠ /١٩٩٧ لغاية ٢٩ / ١٠ ١٩٩٧ .

الفصل الثالث
مَلامِحُ مِنَ الفِقْهِ المُقارَنِ

تمهيد :

إذا كان علم اللغة الذي يتّخذُ ((اللغة)) موضوعاً لـه ، دون أن يخص لغةً معينة من اللغات ، قد اتخذ مفهوم اللغة على إطلاقه فإن ((فقه اللغة)) يتبعه في هذه النظرة ولكن مع بعض التحفّظ ، فالفقيه أو العالم المتوسِّع في لغة قومه وأجداده مهما كانت ،لا بدّ له من إلمام شاملٍ بعلم اللغات ونظرياته المتواترة من الفرض والبرهان ، ولا بدّ له تبعاً لذلك من إلمام على مستوى ما بلغة أجنبية أو أكثر ، ويتناسب تعمقه في فقه لغته طرداً مع سعة إلمامه واطلاعه اللغوي بوجه عام .

وقد سبق لنا الإلمام بتعريفٍ مختصر لفقه اللغة يلحّ على الجانب التاريخي من جهة ، وعلى الجانب المقارن من جهة أخرى .. وهذا ما يعبر عنه تعريف أكاديمي لفقه اللغة باللغة الإنجليزية :

Philologg : is a Historical and comparative Linguistics

فعلم اللغة إذن ، يدخل في إطار فقه اللغة بشكلٍ أو بآخر .. وقد يُترجم بلغةٍ حرفيّة باللسانيّات ، وهي كما جاءت في المرجع الأكاديمي نفسه : دراسة للّغة الإنسانية مع التدقيق في طبيعتها ، ومبناها وتطورها .

((Linguistics)) means : the study of human language with regard to its nature , strueture and modification

ويقرّر منطق العلم والحقيقة أن هناك فرقاً واضحاً بين الدراستين . فعلم اللغة على قول دي سوسير de Saussure يقوم على ((دراسة اللغة في ذاتها ومن

أجل ذاتها .. أمّا الفيلولوجيا أو (فقه اللغة) فليست اللغة هدفها الوحيد أو الأساسي . بل تعنى بدراسة الوثائق والنصوص المكتوبة ولغتها بقصد تصحيح هذه الوثائق والنصوص أو التعليق عليها أو المقارنة بينها وفقاً للظرف المعيّن الذي تجري فيه الدراسة* فعلم اللغة جاء مؤخراً ليعطي ما عنده إلى فقه اللغة وفقه اللغة كان قديماً ومايزال مستمّراً بالاستعانة بعلم اللغة ضمن رؤيةٍ تجعل من اللغة غاية في ذاتها وكلّما اقترب علم اللغة من دراسة المعنى من دون الصوتيات ومن دون بنية الكلمة ، اقترب من فقهِ اللغة .. ومع ذلك – على قول الدكتور – عبده الراجحي – ظلَّ فقه اللغة يشمله الغموض فيختلط بعلم اللغة حتى الأيام الأخيرة** .

جئنا بهذه المقدّمة الطويلة نسبيّاً ، لنخرج بنظرية توفيقية وجديدة تقرُّ ((فقه اللغة المقارن)) Compartive Philologg موضوعاً هامّاً ، بل تجعله الموضوع الأهمّ بين موضوعات فقه اللغة المعتدّ بوسيلتهِ الكبرى أي بعلم اللغة سواءً ما كان منه وصفيّاً أو تجريبيّاً .

نظرة مقارنة :

كان الكشفُ عن اللغة السنسكريتية على يد وليم جونز W liam Jones في القرن الثامن عشر الميلادي حدثاً خطيراً في تطور الدراسات اللغوية من ، جوه كثيرة .

فهذا الكشف كان عاملاً هامّا في إدراك العلاقة بين اللغات الهندية والإيرانية من ناحيةٍ ، وبين بعض اللغات الأوربية كاليونانية واللاتينية وما تفرع عنها *** .

---

* انظر ((دراسات في علم اللغة)) القسم الأول للدكتور كمال محمد بِشر . طبع دار المعارف بمصر ص ١٣ – ١٤ .

** انظر ((فقه اللغة في الكتب العربية)) للدكتور عبده الراجحي ص ٢٩ .

*** ((علم اللغة)) للدكتور محمود السعران ص ٩٢ .

ولمّا كُشفتْ السنسكريتية ، اطلع العلماء الغربيون على آثار نحويّة وصوتية لنحاة الهند تبلغ غايةً من الدقة في وصف الأصوات بوجهٍ خاص .

فاهتمام الهنود بكتبهم المقدّسة دفعهم إلى وصف لغتهم وصفاً دقيقاً ، ولا سيّما من الناحية الصوتية .

أمّا العرب ، فقد كان لهم اهتمام مشابه ، وبدأ الاهتمام بالصوتيات من قِبَل أبي الأسود الدُّؤلي الذي ابتكر وضع نقط على الحروف تمثّل الحركات القصيرة والتنوين . وتلاه الخليلُ بن أحمد في معجمه ((العين)) انطلاقاً من أقصى الأصوات مخرجاً في الحلق حتى الشفويّات .

وجاء تصنيف سيبويه أكثر دقّةً من تصنيف الخليل ولا يُدرى ما إذا كان تأثر بالهُنود أم لا . على أن النحو والصرف كليهما قد انطلقا من الصوتيات ، وقد أسهم علماء القراءات القرآنية في إضافة تفصيلات صوتية إلى ما أُثر عن الخليل وسيبويه .

وبتقدم علم الصوتيات في أوربا ، تقدمت الدراسة اللغوية* ولم يجد العلماء بُدّاً من تصنيف الألسن إمّا من خلال خواصّها ، وإمّا من خلال جغرافيتها وشعوبها ونسب التصنيف الأول إلى العالم اللغوي شليجل Schlegel ، ونسب التصنيف الثاني إلى العالم اللغوي ماكس مولر Max Muller .

وكوجهٍ عام من وجوه فقه اللغة المقارن ، نوجز نظرية شليجل Schlegel فهي ألصق بالفقه المقارن من نظرية ماكس مولر Max Muller لأنها تتناول الواقع الصرفي لعدة طوائف من اللغات ، والصرف هو علم البُنية اللفظية ، المنطلق أوّلاً وآخراً من الأصوات .

---

* انظر أسماء العديد من علماء اللغة والصوتيات في أوربا في كتاب ((علم اللغة)) للدكتور محمود السعران ص ٩٦ و ٩٧ .

نظر شليجل إلى الألسن من زاوية قواعد الصرف والتنظيم فوجد أن اللغات في ضوء هذه النظرية ثلاث فصائل :

١- اللغات التحليلية Analytiques .

٢- اللغات الإلصاقية Agglomerantes .

٣- اللغات العازلة Isolantes .

اللغات التحليلية : ويقصد بها التي تتولّد مفرداتها وفق نظامٍ صرفي يختلف بموجبه معنى الكلمة باختلاف بنيتها . وهذا ماانتهت إليه اللغات الأرقى تطوراً وفي طليعتها اللغة العربية .

ومثال التصرّف بالعربية الفعل الثلاثي ضَرَب الذي يتصرف عنه وعن أمثاله بشكلٍ مطرّد ، مثل قولِكَ :

ضَرَب - يضربُ - ضارب - مضروب ...

ومثل قولك :

كتب - يكتُبُ - كاتب - مكتوب ...

اللغات الإلصاقية : وتمتاز هذه الطائفة ، بأن تغيرّ معاني الكلمات فيها يتأتى عن سوابق pre-fixes ، ولواحق suffixes يرتبط أحدها بالأصل سابقاً أو لاحقاً لتوليد كلمة جديدة بمعنى جديد أو مختلف ، وهذه كلمات باللغة الإنجليزية تشتمل على سوابق ، وكلمات أخرى تشتمل على لواحق مع الإشارة إليها :

over come يغلب . anti biotic مضاد حيوي

de fense دفاع . for bid يمنع .

for give ness عَفْو أو مسامحة . doubt ful مريب

consider able هام أو مُعتَبر . cons true يفسِّر

اللغات العازلة : وهي اللغات غير المتصرّفة وغير المعتمدة على سوابق ولواحق ، وتأتي فيها الكلمات مستقلة البُنى وليس بينها أجزاء متواصلة .

ونلاحظ أن الآخذين بالتصنيف الثلاثي للغات على ماذكرنا يعتقدون أن بدائية اللغات هي العازلة ، والمتطورة عنها الإلْصاقية ، وأرقاها هي التحليلية .

ويضعون في اللغات العازلة : اللغة الصينية ومجمل اللغات البدائية – بينما يضعون في اللغات الإلصاقية : اليابانية والتركية وبعض اللغات البدائية ، ويضعون في اللغات التحليلية الأرقى : اللغات السامية وفي طليعتها العربيّة ، كما يضعون أكثر اللغات الهندية الأوربية .

وأصحاب هذه النظرية ، نظرية شليجل schlegel ، يستدلّون على مراحل التطوّر فيها بلغة الطِّفل ولغات الأمم البدائية ، ويرون أن مرحلة التصريف والتنظيم مرحلةٌ متأخرة في سلّم اللغات الإنسانية وهي الأرقى . ولكن هذا الرأي ينقضه الكثير جداً من الاستثناءات فجميع الظواهر (العزل ، والإلصاق ، التصريف) كلّها موجودة في كُلِّ اللغات بلا استثناء .*

التصنيف الأمميّ الجغرافيّ :

أمّا ما أورده ماكس مولر max moller من التصنيف الأممي الجغرافي ، وهو تقسيمه ألسن العالم إلى أُسَرٍ ثلاث ، فقد سبق له ذِكْر في الفصل الثالث من الباب الأوّل في معرض الحديث عن اللغات السامية وخصائصها المشتركة ، ونعود إليه من زاوية فقه اللغة المقارن .

قسّم مولر لغات العالم إلى ثلاث أُسَرٍ هي :

---

* راجع "علم اللغة" للدكتور علي عبد الواحد وافي ص١٠٨ وكتاب "دراسات في فقه اللغة" للدكتور صبحي الصالح ص٤٦ . والعنوان نفسه لمحمد الأنطاكي ص٥٩ .

١-**أسرة الألسُن الهندية الأوربية :** هي أكثر الأسر اللغوية عدداً وأوسعها انتشاراً وقد حظيت باهتمامٍ خاص من قبل العلماء الأوربيين لانتماء ألسنتهم القومية إليها . وهي بين مؤثّرة شبه منقرضة كالإغريقية واللاتينية ، وبين متأثرة حيّة كالايطالية ، والفرنسية والاسبانية ، والبرتغالية ، والإرلندية ، والألمانية ، والهولندية ، والسنسكريتية والفارسية الخ .... قد انتشرت هذه اللغات مع بداية الغزو والانتشار الاستعماري من القرن الخامس عشر إلى اليوم . ولأنها كذلك ، فرضت نفسها كلغاتٍ منتقاة واصطفائية على صعيد عالمي وفي المجالس والمحافل الدولية كمجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدّة ولاسيما اللغات الطليعية منها كالانجليزية والفرنسية والإسبانية والألمانية ..

٢-**الأسرة الحاميّة - الساميّة :** وتتألف هذه الأسرة من مجموعتين : المجموعة السامية والمجموعة الحاميّة . أمّا المجموعة السامية ففي طليعتها اللغة العربية وتضم الآرامية والكنعانية والعبريّة ..

٣-**الأسرة الطورانية :** تضمّ المتبقيّ من ألسن آسيا وأوربا مما لم يسلك في الأسرة الهندية الأوربية ولا في الأسرة الحامية السامية .

وانتقد تصنيف مولر هذا ، بأنه غير دقيق وبأنه أدخل في بعضَ الأسر ماليس منها* ولن نتعاطى التفصيلات ، بل إننا لم نجدْ مانعاً في السابق من تسليط الأضواء على العربية الساميّة ، لأنها لغة انتمائنا ولغة موضوعنا الأصليّ المتعلّق بفقه اللغة .. وماذا عسانا نستفيد من الإطالة إذا كانت معظم المصطلحات المستجدة والمتنامية في علم اللغة وفقه اللغة عند الغربيين تبدو عسيرة الفهم حتى على

* راجع "دراسات في فقه اللغة" لمحمد الانطاكي ص ٦٠ .

المختصّين من المؤلفين العرب الذين حفلت مؤلفاتهم بعشرات المصطلحات دون جدوى* ؟

وإذا كان للمؤلفين الغربيين ، وعلماء اللغة في الغرب أن يجعلوا اللغة السنسكريتية أساساً للبحث اللغوي ، فلنا أن نجعل اللغة العربية أساساً للبحث اللغوي لأنها تفضل السنسكريتية من حيث كونها تاريخية وحيّة معاصرة في آنٍ معاً تفرّعت عن الشجرة الساميّة . وضمّت إليها فروعاً ولهجاتٍ مما حولها في جزيرة العرب ، وبلاد الشام ومابين النهرين ، واستمرّت سبعة عشر قرناً تأخذ الأقلّ وتعطي الأكثر وتشدّ أزرها بالقرآن الكريم والدين الاسلامي .

يقول ماكس مولر : "إن السنسكريتية هي الأساس الوحيد لفقه اللغة المقارن ، وسوف تبقى المرشد الوحيد الصحيح لهذا العِلم ، وعالِم فقه اللغة المقارن الذي لا يعرف السنسكرّيتية ، شأنُه شأنَ عالِم الفلك الذي لا يعرف الرياضيات** "

هذا ودراسة اللغة –عند غالبية علماء اللغة تكون على مستويات أربعة :

صوتية ، وصرفية ، ونحوية ، ودلالية وهي بالمصطلحات الغربية على الترتيب من اليسار إلى اليمين :

phonetics , morphology , syntax or grammar , semantics

علماً بأن الصوتيات phonetics قد تأخذ اسماً آخر هو phenology*** إذا عنيت بوظائف الكلمة غير الصوتية ، وتجاوزتها إلى التشكيل المقارن للخروج بدلالة معنوية**** .

---

* راجع ما كتبه الدكتور محمود السعران تحت عنوان 'النحو الوصفي' في شرح كلمتي morpheme و semanteme . "علم اللغة" ص٢١٦ ومابعدها .
وراجع كتاب الأنطاكي"دراسات في فقه اللغة" ص١٢ وما بعدها .

** انظر "فقه اللغة في الكتب العربية" للدكتور عبده الراجحي ص١٦ .

*** انظر الشرح الوافي للكلمة ص١٩٤ من كتاب الدكتور محمود السعران : 'علم اللغة' .

**** ترجمت كلمة phonology بـ التشكيل الصوتي عند بعضهم ، انظر المرجع السابق حاشية الصفحة ١٩٤ .

تطبيق مقارن :

وبناء على ما تقدّم نجري مقارنات بين منسوبات إلى الصوت ، النحو ، الصَّرف ، الدلالة ، في اللغة العربية وفي واحدةٍ هامّةٍ من اللغات الأجنبية الهندية الأوربيّة ولتكن اللغة الإنجليزية لأنها الأعمّ انتشاراً كلغةٍ أولى لبلادها ، أو كلغة ثانية لشعوب العالم .

أ-الصوتيات phonetics :

لم ينفرد علماء اللغة العربية وحدهم من حيث الاهتمام بالصوتيات على أنها أُسسٌ للبحث في فقه اللغة العربية وغيرها من اللغات الإنسانية . وقد أبدى العالم اللغوي ابن جني* في كتابه الخصائص رأيه في موضوع نشأة اللغات بوضوح فكان مع من رأى أنّ بداية اللغة الإنسانية كان على شكل أصواتٍ هي تقليد لأصوات الطبيعة ، فقال : ((وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلّها إنّما هو من الأصوات المسموعات ، كدويٍّ البحر ، وحنين الرعد وخرير المياه ، وشحيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفَرَس ، ونزيب الظبي ، ونحو ذلك . ثمّ ولدت اللغات من ذلك فيما بعد ، وهذا عندي وجهٌ صالحٌ ، ومذهبٌ متقبّل.)) .

ولم يكتف ابن جني بإيراد النظرية وقبولها على عواهنها بل أكد مذهبه في مكان لاحق ، وأفرد باباً من أبواب كتابه سمّاه "باب في 'إمساس الألفاظ أشباه المعاني" ، وشرح في هذا الباب عدة ظواهر لغوية جاءت فيها اللفظة صورة من أصوات الطبيعة ، ولخّص بهذا المعنى أقوالاً لسابقيه الخليل بن أحمد وسيبويه مع أمثلتها ، ثم أضاف ((ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة .. ومن ذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير نحو :الزعزعة ، والقلقلة ، والصلصلة ،

---

* توفي ٣٩٢هـ ، وسنترجم له لاحقاً .

والقعقعة ، والصعصعة ، والجرجرة ، والقرقرة . ومن أمثلة ذلك تسميتهم الخازباز * لصوته ، والبط لصوته ، وغاق للغراب لصوته . ونحو منه قولهم : حاصيتُ وعاعيتُ ، وهاهيتُ ؛ إذا قلت : حاء ، وعاء ، وهاء وقولهم :بسْملتُ ، وهَيْلَلْتُ ، وحوقلتُ ،كل ذلك وأشباهه ،إنما يرجع في اشتقاقه إلى الأصوات**)) . هذا بعض مافي اللغة العربية من الأخذ بالصوتيات . فماذا عن اللغة الإنكليزية ، وعلماء اللغة الغربيين بوجه عام ؟

لقد أخذ عديدون من هؤلاء بنظرية ابن جني القديمة واعتبروا نشأة اللغة عن محاكاة أصوات الطبيعة ، ومن الطريف أن يسمى أحدهم نظريته باسم صوتٍ من الأصوات وجد أنه من الأصوات البدائية في تقليد الطبيعة . فهذا يِسْبرسن jespersen يسمي نظريته باسم (باو ، واو)baw-wow وغيره من سمّاها (بوه ، بوه) pooh-pooh وثالث سماها (دنْج ، دونْج)ding-dong ورابع سمّاها (يو ، هي ، هو)yo-he-ho *** .

وكل ما أراد هؤلاء أن يقولوه :هو أن هناك صلة وثيقة بين ما ينطق به المرء من أصوات ، وبين ما يدور في خلده من أفكار . ووجد بعضهم أن اللغة الإنسانية بدأت على صورة شهقات صدرت عن الإنسان بشكل غريزي لتعبّر عن فرحٍ أو دهشة . أو غضب أو ألم ونحو ذلك من انفعالات قوية ...

ويلاحظ أن هذه النظريات الغربية في الصوتيات قد انطلقت من موقعٍ أبكر من التقليد ، بل أكثر منه تطرّفاً ، انطلقت من حيوانية الإنسان وتصويته العفوي الساذج لا تقليداً للطبيعة بل على أنه جزءٌ من الطبيعة . واتفقت اللغة العربية ، واللغة الانجليزية ، وسواهما من اللغات فيما بعد مرحلة النشأة ، على وجود كلمات

---

* الخازباز : نوع من الذباب .

** نقلاً عن "فقه اللغة في الكتب العربية" للراجحي ص٨٨ . وقد نقله بتصرف عن الأصل . انظر خصائص ابن جني ج٢ ص١٥٢ .

*** انظر "فقه اللغة في الكتب العربية" لعبده الراجحي وما جاء به نقلاً عن الدكتور إبراهيم أنيس في الحاشية ص٨٩ .

هي تقليدٌ أمين لأصوات تعنيها بما يعرف بالإنجليزية onomatopoeia وهي تسمية الأشياء أو صياغة الأفعال بمحاكاة أصواتها . وهذا الضرب من الألفاظ قد اعتُرف بوجوده في اللغات الإنسانية المختلفة ... حتى الذين عارضوا مذهب الصلة بين اللفظ ومدلوله في إطاره العام لم يستنكفوا ان يعترفوا بوجود هذا الحدّ الأدنى من النماذج اللفظية ذات الدلالة الطبيعية الصريحة* .

ومن المعروف أن علم النحو العربي قد اشتمل على بحث "أسماء الأصوات" وقعّد صوغ الأفعال من بعض الأصوات** مثل :

طَقْطقَ من صوتِ : طَقْ . وبقبقَ من صوت بَق فيقال طقطق الخشَبُ أو بقبَقَ الماءُ في القِدْر .

وهذا كلّه من قبيل توليد الكلمات من الأصوات أو ما سميناه بالانجليزية onomatopoeia . وقد التقطنا من المعجم الإنجليزي بعض المفردات من هذا الطرز*** :

الكلمة : ding	صوتها : دِنِجْ	معناها : يقرع الناقوس
الكلمة : dip	صوتها : دِب	معناها : يغطس
الكلمة : dumdum	صوتها : دَمْ دَمْ	معناها : رصاص دَمْدم
الكلمة : hobby	صوتها : هوبي	معناها : فَرَس يمتطى
الكلمة : hooey	صوتها : هُوي	معناها : هُراء ، كلام فارغ
الكلمة : hop	صوتها : هُب	معناها : يقفز في الجو

لاحظ قرب الكلمة الأخيرة من الصوت والمعنى العربي : هَبَّ يهبُّ .

الكلمة : kick	صوتها : كِك	معناها : يَرْكُل ، يرفُس
الكلمة : mouth	صوتها : ماوث	معناها : فتحة الفم
الكلمة : pack	صوتها : باك	معناها : صرّة أو حِمل

---

* انظر دراسات في فقه اللغة' للدكتور صبحي الصالح ص١٧٠ .

** انظر 'القانون في النحو'المادة ١١ ص٢٤ للمؤلف .

*** 'المورد' وضع منير البعلبكي الطبعة الأولى -بيروت-١٩٦٧ .

الكلمة : parrot	صوتها : باروت	معناها : ببغاء مبربرْ
الكلمة : pipe	صوتها : بايب	معناها : مزمار
الكلمة : quick	صوتها :كويك	معناها : سريع
الكلمة : racket	صوتها : راكيت	معناها : مضرب
الكلمة : roar	صوتها : رُورْ	معناها : يهدر
الكلمة : shrug	صوتها : شْرَجْ	معناها : يهتزّ
الكلمة : shock	صوتها : شك	معناها : صدمة
الكلمة : shudder	صوتها : شَدَرْ	معناها : يرتعد
الكلمة : soft	صوتها : سوفت	معناها : ناعم ، أملس
الكلمة : stress	صوتها : سْتَرسْ	معناها : يضغط
الكلمة : strike	صوتها : ستّرايك	معناها : يضرب

الصَّرف morphology :

يتصرّف الفعل في اللغة العربية بين ماضٍ ومضارعٍ وأمر . فإذا لم تأت الصيغ الثلاث من فعلٍ ما نسمي ذلك الفعل جامداً أو غير متصرّف أو ناقص التصرّف .

والماضي في اللغة العربية هو الماضي البسيط في اللغة الانجليزية simple past ، أمّا المضارع فهو المضارع البسيط الدال على الفعل مقترناً بالزمن الحاضر simple present أمّا إذا أريد به المستقبل فيستدل على ذلك من القرينة باللغة العربية ، بينما لابدّ أن يشفع بفعلٍ مساعد : shall or will إذا أُريدت به الدلالة على الاستقبال في اللغة الإنجليزية ، ولا ضرورة لذلك في اللغة العربية فأنت تفهم من عبارة سأراك بعد الظهر أو أراك بعد الظهر :

معنى الاستقبال في الفعل أرى دونما حاجةٍ ماسّة إلى فعلٍ مساعد .

بينما يجب اقتران الفعل الإنجليزي بفعل آخر مساعد helping verb لإفادة معنى الفعل الاستقبال . تقول :

I shall see you afternoon .

ليس قصدنا ممّا تقدم شرح قاعدة من قواعد اللغة الإنجليزية بل القصد المقارنة بين تصريف الفعل بالعربية وتصريف الفعل بالإنجليزية لنستنتج أن الصيغة العربية للفعل أبسط ، ولا تحتاج إلى الاقتران بالضمير المنفصل وإلّا تحولت الجملة إلى جملة اسمية خبرها جملة تليها :

أنا أكْتبُ : أنا ضمير رفع منفصل مبتدأ . وأكتب جملة فعلية فاعلها ضمير مستتر ومحلّها خبر للمبتدأ .. ولنأخذ التصريف في أبسط أشكاله في اللغة الإنجليزية بين زمنين هما :

المضارع البسيط والماضي البسيط

simple present and simple past

لنرى أن هناك قاعدة مطرّدة في تحويل المضارع إلى ماضٍ بإضافة لاحقة (ed) إلى المضارع كما في الأفعال الآتية :

to love	loved	أن يحب ، أحبَّ
to shave	shaved	أن يحلق ، حلق
to dwell	dwelled	أن يقيم ، أقام
to kill	killed	أن يقتل ، قتلَ

تُعرف الأفعال المتصرفة إلى ماضيها البسيط بإضافة (ed) لاحقة لفظية بالأفعال القياسية regu lar verbs وهناك قائمة طويلة من الأفعال غير القياسية Irregular verbs لابد من حفظ تصريفاتها لأنها متفاوتة تماماً بين فعلٍ وآخر . وهذه بعض الأمثلة :

to blow	blew	ان يهبَّ ، هَبَّ
to bring	broaght	أن يجلب ، جَلَبَ
to do	did	أن يفعل ، فَعَل
to feed	fed	أن يطعم ، أطعم

وبالمقارنة مع التصريف العربيّ ، نجد الفعل العربي أقرب إلى الثبات في التصريف بين ماضٍ ومضارعٍ وأمر على أن الثلاثي منه يحتاج إلى حفظ انتمائه إلى إحدى الصيغ الستّ التي يجمعها البيت المنظوم :

فَتْحُ ضَمٍّ ، فَتْحَ كسرٍ ، فتحتان

كَسْرُ فتحٍ ، ضمُّ ضمٍّ ، كسرتان

والمقصود بذكر الحركتين في كلِّ مرّة ورودهما على التوالي بتحريك عين الماضي الثلاثي فعين المضارع منه وفق الأمثلة الآتية* :

فتح ضمٍّ	دخَل ، يدخُلُ
فتح كسرٍ	جَلَس ، يجلِسُ
فتحتان	فَتَح ، يفتَحُ
كَسْر فتح	فهِم ، يَفْهَمُ
ضمّ ضمّ	كَرُمَ ، يكرُمُ
كسرتان	حَسِبَ ، يَحْسِبُ

ويبلغ مجموع بُنى الأفعال الصرفية في اللغة العربية اثنتين وعشرين بنية أو صورة ، وهي في مجموعها أقل بكثير من عدد الأفعال الشاذّة Irregular في اللغة الإنجليزية التي تقارب المئتين .

النّحو Syntax or grammar :

* انظر القانون في الصرف ، المخطوط في مكتبة نقابة المحامين بحلب ، للمؤلف . [المادة ٩٠ ، الفقرة أ.] .

تتميّز اللغة العربية عن كثيرٍ غيرها من اللغات بأنها لغة إعراب ، يتحكم الضبط أو التشكيل في تعيين الفاعل أو المفعول أو المبتدأ أو المفعول به ، وبالتالي يتحكم الضبط أو الإعراب في إفهام معنى الجملة الكلامية بتطبيق قواعد نحوية تفصيلية دقيقة . وبينما نجد الجملة Sentence في العربية ، تنقسم إلى قسمين : فعليّة واسميّة ، نجد الجملة الإنجليزية اسمية فقط بمعنى أنها تبدأ دائماً بما يدل على من قام بالفعل من اسم أو ضمير ليلي الواحد منهما الفِعْل دون تقدير ضمير يعود على المبتدأ كما هو الحال في الجملة العربية .

وعناصر الجملة الإنجليزية هي الآتية

Subject المبتدأ أو المسند إليه الذي أسند إليه الفعل .

Verb الفعل وهو ركن أساسي في الجملة تقدمه مايدل على فاعله من اسمٍ أو ضمير منفصل ويمثل المُسْنَد : Predicate

وقد يلي الفعل المفعولُ به إن كان الفعل متعدّياً ويسمى : Object

وكل ماعدا ذلك يعدّ تكملة Rest of sentence

إليك فيمايلي جملة إنجليزية مع تحليل عناصرها وفق ماذكرناه وهو ما يعرفه الإنجليز بـ word order أي ترتيب الكلمات في الجملة :

I read a book then a magazine
I = subject .
Read = verb or predicate
a book = object
then a magazine = rest of sentence

وترجمة ما قدمناه حرفياً :

[أنا أقرأ كتاباً ثم مجلّة] وعناصر الجملة بما يوافق المصطلحين العربي والإنجليزي :

أنا : مسند إليه .

أقرأ : مُسْنَد .

كتاباً : مفعول يه .

ثم مجلّةً : فضلة في الكلام .

على أن الإعراب بالمنطق النحوي العربي في مثل هذه الجملة هو كالآتي :

انا : ضمير رفع منفصل ، مبتدأ .

أقرأ : فعل مضارع ، فاعله ضمير مستتر يعود على الضمير المتقدم (أنا) .

كتاباً : مفعول به منصوب .

ثم : حرف عطف .

مجلة : اسم معطوف على منصوب فهو منصوب .

وإذا كان من الجائز في العربية أن نقدم المفعول به على الفاعل وتمييزه عن الفاعل بحركة الإعراب الفتحة أو ماينوب منابها فإن ذلك لا يجوز مطلقاً في اللغة الإنجليزية التي يحكمُها الترتيب المعترف به وحده : الفاعل المبتدأ به أو المسند إليه ثم الفعل لازماً أو متعدياً ، ثم المفعول به أو فضلة الكلام وهذا هو word order ، وهو غير النظام النحوي الإعرابي القائم على استقرار المعنى باستقرار التشكيل أو الضبط بالحركات ولا أهمية كبرى للترتيب .

أمّا الحركة في اللغة العربية فهي بالنظرة الصوتية عبارة عن نصف صائت أو شبه صائت يُطلق الحرف الصامت قبله بما يشبه الألف أو الواو أو الياء ، ويقابل بالإنجليزية :

short (a) - short (o) - short (e)

كما تنطق من الكلمات العربيّة : [وَرْد – ward] ، [هُدى – huda] ، [شِبْر – shibr] .

أما التنوين كحركة إعراب في اللغة العربية فيلحق الاسم النكرة مكان (an ,a) بالإنجليزية .

ويتألف من صوتين : صائت قصير مع النون الساكنة أو الصامتة ، حيث تقرأ الحرف الأخير من (كتاب) العربية هكذا :

bon في حالة الرفع ، ban في حالة النصب ، ben في حالة الجرّ ، ولكل حالةٍ من هذه الحالات تعليل بالقاعدة النحويّة التي تحكمها .

الدّلالة (دلالة اللفظ على المعنى) : Semantics

ليس يخفى أن اللغة ، أية لغة انسانية ، قد انطلقت عبر خط تطورها من صوتٍ مبهم إلى صوتٍ ذي دلالة ، إلى رمزٍ كتابيّ بوسيلةٍ ما تطورت أخيراً إلى الوسيلة أو الأداة المعروفة بالقلم ، وقد عزّت من وسيلةٍ حتى أشادت بها الكتب المقدّسة وأقربها إلى العربية وأهلها القرآن الكريم :

{ن والقلمِ ومايسطرون} القلم(١) . {الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم .} العلق(٤و٥) .

ويبدو أن أول نظام كتابةٍ معروف هو نظام الكتابة السومريّة* في بلاد مابين النهرين ، وبدأ تصويريّاً وتأثرت به الكتابة المصرية القديمة وكذلك الكتابة الصينية ، وفي مرحلة متأخرة نسبياً ، وتقول الكتب :

"إن العرب قد أخذوا خطهم الحجازي عن الحيرة والأنبار ، وهما أخذاهُ عن كندة والنبط عن الآراميين والفينيقيين وصولاً إلى مصر القديمة" . وقد كان الخط الذي يكتب به العرب في مبدأ ظهور الاسلام ، هو الخط الأنباري الحيري ، ومالبث أن سمّي بالخطّ الحجازي حتى تميّز منه الكوفي بتطوراته إلى اليوم** ..

---

* انظر "موجز تاريخ علم اللغة" ص٨٥ .

** كتابنا "الخط والإملاء" نشر دار القلم العربي بحلب ص٧ .

وبإيجاز بالغ ، ولغاية تحقيق الفقه اللغوي المقارن نومئ إلى أخذ اللغات الأوربية بالحرف اللاتيني عن اليوناني المتأثر بدوره بالمصري القديم ..

وليس يعنينا تاريخ الخطوط في شيء بل الذي يعنينا هو الرمز الدلالي في اللغة المكتوبة ، سواء أكانت العربية أم غيرها وهذا الرمز الدلالي قد انطلق -بلا ريب - عن صوتٍ جاء ليجسّده ويحفظه من النسيان .

قد أدرك علماء اللغة العرب ، ومند القديم ، تلك العلاقة الوشيجة والوثيقة بين اللفظ والمدلول . قال بذلك : ابن جني وابن فارس وابن سيده والسيوطي وسواهم ، ولكن هذا لم يمنع علماء الغرب من رؤية مخالفةٍ بفصم العلاقة المباشرة بين اللفظ والمعنى الدلالي ، ومن ثمّ بين الرمز المكتوب والمعنى الدلالي ....

أما الأمثلة التي ضربها القدامى لوجود العلاقة المباشرة والمجسّدة بين اللفظ ومدلوله فهي كثيرة جدّاً ، وحسبنا أن نشير إلى ماجاء منها في كتاب الخصائص لابن جني ، ولاسيّما في فصلين جاءا بعنوان :

"باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني"

"باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني" * .

أما النظرة الحديثة لعلماء الغرب فتقول : "ليست هناك علاقة بين الرمز والشيء الذي يرمز إليه أو بين اللفظ ومدلوله ** . فكلمة "الرجل" أو "the man" تدل على الرجل في العربية أو الإنجليزية ، دون أن يكون هناك تناسب بين أي صوتٍ من أصوات هذا الرمز وبين المسمّى الذي يدلُّ عليه .. حتى التعابير الصادرة عن انفعال أو إحساس مثل "أنا جائع" بالعربية أو "Iam hungry" بالإنجليزية ، لا علاقة فيها بين اللفظ والمدلول .. ويذهب بعضهم أبعد من ذلك ، وهو الأمريكي Edward sapir فيقول : "إن الكلمات التي تبدو على أنها تقليد للطبيعة مثل : (to caw) ..

---

* انظر تلخيصاً لرؤية ابن جني في "فقه اللغة في الكتب العربية" للراجحي ص٦٦ ومابعدها .

** المرجع السابق ص٦٨ .

وهو صوت القطة cat ، ليست إلّا من خلق العقل الأنساني ، ومن تخيّله ، كأي شيءٍ آخر في اللغة* "

وبين العربية والإنجليزية بنظرة الفقه المقارن ، توافق في الحد الأدنى وهو أن اللغتين كلتيهما لغتان بشريتان حيتان ومتطورتان ، ودلالة الألفاظ على المعاني في كُلٍّ من اللغتين هي دلالة اصطلاحية في الأعم الأغلب ، وخصوصاً بعد وجود المعاجم المتطوّرة باللغتين ، ولكن نسبةً من الألفاظ العربية والإنجليزية دلالتها ذاتية على معانيها ، إمّا لأنها ماتزال موحيةً بمعانيها من خلال الصوت ؛ كما قيل : to caw ، to mew بالنسبة للهرة والغراب بالإنجليزية ، أو كما قيل : الواوي ، البَبْر ، بالنسبة لابن آوى والنمر بالعربية .

وإمّا لأنها متسلّلة طبيعيّاً عبر التواصل العالمي بما يشبه لغة عالمية موحدة كألفاظ : film , radio , football...

وعلى كُلٍّ حال ، سنأتي إلى دراسة توظيف اللغة من خلال دلالاتها في بحث مستقل ، نتطرق فيه إلى الطوارئ التي تعتري هذا التوظيف الدلالي والواقع الحالي للغات العالم من خلال عنصر الدلالة .

---

* فقه اللغة في الكتب العربية للدكتور عبده الراجحي ص٦٩ .

الفصل الرابع
إشكاليات الترجمة والنقل

بين اللغة المحكيّة والنصّ المترجم :

مادام الاتفاق قد تمّ على أن اللغات الإنسانية من أدناها إلى أرقاها تتألف من مجاميع من الألفاظ الاصطلاحية الدلالة ، فإنّ الحقيقة الماثلة هي جدار من الغربة بين هذه وتلك .

هذا الجدار من الغربة ، هو المبرّر الأكيد لتسمية كل لغةٍ باسم شَعْبِها الذي يستخدمها ، ولتسمية مايغايرها بأنه أجنبيّ ...

وفي سبيل ممارسة التواصل بين أمّةٍ وأخرى ، أو بين فردٍ وآخر من أمتين مختلفتين كان لابدّ من الترجمة علىٰ أنها وسيلة لا غاية .

قد يغترب الإنسان عن وطنه حيث استعماله للغة المحلّية المحكية أيسر من تنفس الهواء وشرب الماء وما إن يطأ بقدميه أرضاً غريبة ، ويواجه أناساً غرباء عن قوميته وانتمائه ، حتى يشعر بحاجته إلى اللسان المتفاهم ، اللسان الذي هو بمعنى اللغة الأخرى الجديدة عليه ، والتي سمّي بسبب جهلهِ لها أجنبيّاً .

وقد يحدث أن يتفاهم الغريب مع الغريب بلغة عالميّة ميسورة الاستعمال للجميع هي لغة الإشارة أو لغة الخرسان ، ولكنه يظل بحاجةٍ إلى الدقة في المقصد ، وإلى التقارب مع أخيه الإنسان بوسيلةٍ أجدى ، فلا يجد إلّا البحث عن مترجِم ، أو التفتيش في الذاكرة عمّا حَوَتْ من ألفاظٍ يفهمها الفريقُ الآخر ؛ ألفاظٍ من اللغة المحكيّة ، وكلٌّ مافيها ، تبادل التحيّة ، والسؤال عن الطريق والمطعم والفندق .. وما أكثر ما امتلأتْ رفوفُ المكتبات بل أرصفة الشوارع ، بتلك الكتب المساعدة : كيف تتعلم الإنجليزية أو الفرنسيّة أو الإسبانية أو التركية الخ .. بخمسة أيام !..

فاللغة المحكية إذن ، هي لغة الشارع العام فإذا نقل الأجنبي للأجنبي الآخر مقصده بلسانه نفسه ، يكون قد تعلم لغة أجنبيه بأبسط صورها ومضامينها ، وإذا تدخل بيهما شخص وسيط كان مترجماً للغة المحكيّة .. وهذا ماحدث لكلِّ البشر منذ أقدم العصور حتى اليوم ، إمّا تعلّم للّسان الآخر ، وإمّا فهم مدلول ألفاظه عن طريق ثالثٍ وسيطٍ هو المترجمِ . وهذه هي أولى الإشكاليّات وأبسطها حلّاً .

على أن الإنسان كلّما ارتقى ذهنه ، وتقدم في مدارج الحضارة والمدنية ، احتاج إلى تبادلٍ يفوق في الأهمية المقصد العارض واللوازم الحياتيّة اليومية ، إنه تبادل المعرفة العلمية أو المتعة الأدبية الفنّية عن طريق ترجمة كلماتٍ تكثر عدداً حتى تبلغ مكتوبةً ؛ سطوراً وصفحاتٍ بل كتباً ومجلّداتٍ ، وهاهنا يأتي ما يعرف بترجمة النص " TEXT " وهذا مافعلته الأمم عند تبادل الثقافات والعلوم والآداب والفنون .

فمثلاً ، حين توجهت الأمة العربية في باكورة مجدها الحضاري للتقدم في مدارجه ، لجأتْ إلى الترجمة ، ترجمة النصوص والكُتُب .. وكان من أوائل النصوص المترجمة ، إن لم يكن أولها بين الكتب ، كتاب "كليلة ودمنة" الذي ترجمهُ عبد الله بن المقفع عن الفارسيّة وأضافَ عليه بعض الفصول . وكان الكتاب قد نقل عن الهندية ، ضمنَ خُطّةً مرسومةٍ ، وتدبيرٍ عجيبٍ ، يبرّره أن الحكمة ضالّة الإنسان العاقل أنّى وجَدها التقطها ، وإن حيل بينَهُ وبينها اختطفها جهراً ، أو سِرّاً كما فعل الوزيرُ 'برزَويْهِ' بإيعازٍ من مليكه كِسْرى أبو شروان* .

---

* أقرأ الحكاية في "كليلة ودمنة" بشرح المرصفي ص١٠٧ .

وليس لنا أن نتوسّع في الأمثلة وذكر النماذج ، مادام موضوعنا متّصلاً بفقه اللغة ، وليس بالتاريخ الأدبي ، على أن فقه اللغة يتطلّع بالإضافة إلى ماذكرناه من العناصر الأربعة (الصوت ، النحو ، الصرف ، الدلالة) يتطلّع إلى المَتْن أو النص الأدبي كمظهرٍ من مظاهر تقدم اللغة وارتقائها . ولم تكن اللغة العربية لتبلغ ذروة ارتقائها لولا نزولُ الكتاب المبين وحياً من عند الله على نبيّه الأمين محمد بن عبد الله ﷺ ، وهو العربي القُرشيّ . ولهجة قريش هي اللهجة التي كانت مسيطرة على سواها من لهجات القبائل لأسباب دينية ، واجتماعية ، وتجارية .. كُنّا ألمحنا إليها . ويعتبر النص القرآني ، مابلغ منه آيةً واحدة أو سورةً أو كتاباً بين دفّتين ، يُعتبرُ النص النموذجي المثاليّ الذي تجلت فيه خصائص العربيّة الفصحى بما حواه من المفردات المعرّبة لتبقى الحقيقةُ حقيقةً { إنا أنزلناه قرآناً عربيّاً } . يوسف [٢] . وتبعه الحديث النبوي الشريف بنصوصٍ معظمها مقتضب ، ولكن يمثّل الفُصحى وخصائصها أصدق تمثيل ، وتسامى بعضهم إلى ترجمة النصّ القرآني ، والأحاديث النبوية الشريفة لما وجدوا إليهما من حاجةٍ ماسّة لا استغناء عن تلبيتها .*

وعلى ذكر الترجمة والنّقل ؛ ما من لغةٍ في العالم إلّا وهي بين أخذٍ وعطاء ضمن مواسم ، أو بشكل حُرٍّ مفتوح .. وهذا ما سيقودنا إلى الترجمة بين العرض والطلب ، في الفقرة التالية :

---

* انظر على سبيل المثال :

THE MEANING OF THE GLORIOUS KORAN BY MOHAMED MARMADUKE PICKTHALL .

ومتن الأربعين النووية مترجمة إلى الإنجليزية ، وقد ترجمها عزّ الدين إبراهيم وديتيس جونسون ديفيز .

حركة الترجمة بين الرواج والخمود :

وقد يلوحُ في عنوان هذه الفقْرة مايُشعر بالعلاقة شبه التجارية ، بين الأفراد والأمم وبين حركة الترجمة من لغةٍ إلى لغة ، ولا يخفى من الاستعراض التاريخي للترجمات عبر العربيّة الفصحى وجود حركات ومواسم اقتضت تبنّي الترجمة للمتون المتنوّعة ، من قبل حاكمٍ أو أمير مستنير صادر عن هوايةٍ منه ، أو عن مصلحةٍ عامّة لأبناء الأمّة جميعاً .

وقد هبّت ريحُ الترجمة قوية مرّتين كبيرتين في تاريخ العربية الفصحى ؛ أولاهما في عهد المأمون العبّاسيّ ، والثانية منهما في العصر الحديث ، عقب حملة نابليون على مصر في أواخر القرن الثامن عشر الميلاديّ .

لقد كثر الطلب على الترجمة من التراث اليوناني والتراث الفارسي في عهد المأمون ، لما احتاجه المأمون من التنوير ، بتغطية ما خلّفته الفتنة بينه وبين أخيه الأمين من آثارٍ فاجعة ، ولما احتاجهُ من دعمِ مذهبه المعتزليّ من حجج المناطقة العقليين ، فضلاً عن الحاجة الماسّة للتقدم في الطبّ والهندسة وسائر المناحي ، إلّا الشعر والأدب ، فقد كانوا يعتقدون بفن الشعر خالصاً للعرب وحدهم من دون سائر الأمم ، وهكذا بلاغة النثر في الرسائل والخطب والمقامات .

وهبّت ريح الترجمة عن اللغات الأوربيّة مرّة ثانية في عهد والي مصر محمد علي وعددٍ من أبنائه ، من بعده ، وكان أن أُنشئت مدرسة الألْسُن لغاية الترجمة وحدها وترأسها الأديب المفكر اللغوي رفاعة الطهطاوي (١٨٠١-١٨٧٣) وهو كما يقال عنه : ركنٌ من أركان النهضة العلمية الحديثة في مصر ، تعلّم في الأزهر ، ثم في فرنسا على أيدي كبار المستشرقين . ويعتبرُ من روّاد الصحافة العربية ترجم كتباً علمية كثيرة ؛ في الجغرافية والقانون والهندسة وغيرها .. ولم يقلّ عنه تألّقاً أديبٌ وشاعرٌ ورحالة ومترجم من جيله ، وهو أحمد فارس الشدياق المتوفى ١٨٨٧م .

وقد ضلع الشدياق في ترجمة الأسْفار* المقدّسة إلى العربية مع ضبطها وتصحيحها ، وأصدر صحيفة الجوائب التي عم انتشارها عام ١٨٦٠ ، وتلاها إنشاؤه مطبعة باسمها .. واستمرّ الجوع الثقافي إلى الترجمة حتى أوائل القرن العشرين الميلادي ، وكتبَ محمد كردعلي يدعو إلى تعلم اللغات الأجنبيّة وإتقانها كأبنائها كي تبدو ترجمات المترجمين عنها وكأنها بلغتهم الأصلية قال : ((على من رام أن يتكلم لغة ويكتب فيها ، أن يفكر في تلك اللغة ، ويكون شعوره شعور أهلها فيها ، لاأن يصيغ تراجم وينقل جُملاً .. ولاتكون الترجمة من لغتهِ أو إليها -إذا دعت الحال- حرفاً بحرف بل على طريقة تنقل بها الصورة إلى التعبير عنها .. وما اللغة في حقيقتها إلّا صورة محكيّة من الحياة فاقتضى في تعلّمها أن يسيرَ الإنسانُ من نفس الحياة ..)) .

ويشرح الأديب العلّامة اللغوي : محمد كردعلي ** الأصول التي ينبغي اتباعها في تعليم اللغات وتعلّمها ، مما ينمّ عن إدراكه الكامل لعناصر اللغة وتطورها معتمداً على مذهب الأستاذ برلتيز . ولايرضى بدرجة أقل من الإتقان *** .

وهو لايخفي وجوب الانتفاع من تعلم اللغة الاجنبية وإتقانها ، ويعدّد وجوه هذا الانتفاع ، متمثلةً في : التجارة ، وأعمال الإدارة ، والقضاء ، والعلم ....

"فالأمة العربية إذا أرادت النهوض العقلي والعلمي يجبُ عليها أن تأخذ من كل علمٍ بالسهم الأوفر ، ولا يتمّ لها ذلك إلّا بالنقل عن الأمم الغربيّة**** .

وهو يفتقد الإنتاج الكافي من المترجمات ، إلّا ماتقدم به طائفة من المولعين بالترجمة لبعض المجلّات ..

---

* الأسفار جمع سِفر وهو الكتاب . انظر كتاب " أحمد فارس الشدياق "سلسلة أعلام العرب رقم ٥٠ بقلم محمد عبد الغني حسن ص٧ وما بعدها .

** (١٨٧٦-١٩٥٣) كان رئيس المجمع العربي بدمشق ومؤسسه ١٩١٩م . صاحب مجلة المقتبس وله مؤلفات منها "القديم والحديث" وهو مجموعة مقالات انظره في موضوع : تعليم اللغات ص٦٠.

*** المرجع نفسه ص٦٥ بعنوان : اللغات الافرنجية .

**** المرجع نفسه الكرد علي ص٦٦ .

هل آمنّا بعد ذلك أنّ مسألة الترجمات لدى الأمم مسألة عرضٍ وطلب ، مسألة متجرٍ عظيم يبتغي ربحاً عظيماً . ولن تكفي هواية عددٍ محدود من المتعلّمين، ومايصدر عنهم من أعمالٍ مترجمةٍ فرديّة ، مالمْ تقم بهذا الدّور مؤسساتٌ كالمجامع العلميّة ، ولجان التأليف والترجمة والنشر . ولمْ تقصّر مجامعنا العلمية ، ومؤسساتنا الثّقافية في هذا الشأن ، لكنّ أمّتنا بحاجةٍ ماسّةٍ إلى المزيد ، لصنع المستقبل الذي كثر فيه المنافسون ، من كُلِّ جهات المعمورة . ناهيك عن عدوٍّ متربِّص . وقد انتهى إلينا أن مجمع اللغة العربية بدمشق قد جعل محور اهتمامه الثاني بعد مشكلة الأداء باللغة العربية وأسباب ضعفه ، جعلَ "التعريب والمصطلح" قضيّته التالية* ...

ومن منظور فقهي نتعرض للفرق بين الترجمة والتعريب .

الفرق بين الترجمة والتعريب :

قد يكون من الحاضر في علمنا أن الترجمة هي النقل الأمين من لسانٍ إلى لسانٍ آخر أجنبي عنه . والنقل المقصود هو تكرار الدلالة لألفاظٍ معينة بألفاظ لغةٍ ثانية . وقد يكون هذا النقل أو التكرار صادراًعن مشافهةٍ ، باللسان إلى متلقٍّ بالمسامع والآذان . أو يكون من مخطوط إلى مايعنيه من الدلالة خطاً وكتابة أو مشافهةً فالتبادل في عملية الترجمة يكون صوتياً أو كتابياً ، منطوقاً أو مخطوطاً ، ولابأس من تبادل منطوق بمكتوب أو مخطوط بملفوظ ، فالأمر واحد ، وتبقى العملية عملية ترجمةٍ تقود أحد جهتي الاطلاع إلى الفهم الدلالي الصحيح .

تلك هي الترجمة ، ولكن ما الفرق بينها وبين التعريب؟

---

* راجع محاور الندوة الأخيرة الصادرة عن المجمع المذكور في الشهر الخامس من عام ١٩٩٧م .

إن مصطلح "التعريب" يعني النقل إلى العربيّة من لغةٍ أخرى أجنبيّة ، وإذا أخذ المصطلح بالمعنى العام أو بالمعنى الأوسع كان معناه إضفاء سمة العروبة على الشيء مهما يكن .

وكما يعرّب البناء اللغوي أو النص ، قد يُعرّب البناء الحجري أو الهيكل المعماري ليتلاءم مع أصحابه العرب في عاداتهم وتقاليدهم ومألوفا من مناظر العمران .

نظلُّ في موضوع "التعريب" بمعناه الخاص الذي هو نظير الترجمة أو النقل عن لغة أخرى إلى العربية . ونعود إلى التفريق بين الترجمة والتعريب بما استدقّ ، من الفروق التي أبرزها أن الترجمة نقل حرفي لدلالة الألفاظ أما التعريب فهو نقلٌ عن اللغة المترجم عنها ولكن مع تصرّفٍ لا يخرج بالنص عن غايته ، وهذا التصرّف قد يمليه تفاوت أسلوبي التعبير بين لغتين بحيث يُخشى خروج التعبير عن غايته فيما إذا كان النقل حرفيّاً : افترض أنك تود نقل العبارة المستحبة والمطروقة في تحية الرسول العربي كلّما ورد ذكره ، فإنك قد تقولها بالإنجليزية :

oh God , pray for the prophet

فهل تترجمها إلى العربية بقولك : "أيها الاله ، صَلِّ من أجل النبيّ؟! " أم تنقلها معرّبة كما يسوقها العرب أنفسهم بالقول : "اللهم صلِّ على النبيّ"؟!

فالعبارة الأولى ترجمة ، والعبارة الثانية تعريب ..

ويختلف التعريب عن الترجمة من جهةٍ أخرى أن الترجمة تقصد الإفهام ، والتعريب يقصد التمكّن الأسلوبي إلى درجة تقلب الأجنبي عربياً .

والتعريب يضع اللفظ الأجنبي المترجم في قالب عربي لا يستعصي على النطق العربي ولا على البنية أوالصيغة الصرفيّة المشابهة . فلقد ترجم علماء اللغة المحدثون كلمة telvision بكلمة "الرائي" وهنا جاءت (فاعِل) من رأى بمعنى الذي يُري غَيْرَهُ ماعنده .

وجاءَ من العلماء أنفسهم من اختار التعريب على الترجمة ليقول عن المدلول نفسه ، أو عن المسمّى نفسه "تِلْفاز" وهو وزن "تِفْعال" المعروف في العربية ، ومثلـه "تِبْيان" .. ويلاحظ اليوم شيوع اللفظ المعرّب وتغلبه على اللفظ المترجم ..

وكما أن اللغة مفردات وجُمل فكذلك التعريب مفردات وجمل . أمّا تعريب المفردات فقد تجلى بإخصاب اللغة العربية بإلحاق عددٍ كبير من المفردات الأجنبية بالمعجم العربي .. حتى القرآن الكريم ، اشتمل على العشرات من الكلمات المعرّبة لا بلفظها الأصلي بل بما يتلاءم مع البنية الصرفية العربية وفصاحتها ، ومن تلك الألفاظ المعرّبة :

القسطاس : عن الرومية بمعنى الميزان .

الإستَبْرق : عن الفارسية بمعنى الديباج الغليظ .

طوبى : عن الهندية بمعنى الجنة .

الأرائك : عن الحبشية بمعنى السُّرر جمع سرير .

ويلاحظ أن تبني الكلمة الأجنبية لتأخذ محلّها في القاموس العربي وتدخل ضمن المعرّب أو الدخيل ، يُعرّضها لتغيير في لفْظ بعض حروفها لخلو الأبجدية العربية من بعض الحروف الأجنبية مثل الـp . والـV .

وقد تبنى التعريب بموافقة المجامع العلمية العربية إدخال السوابق مثل لا النافية على بعض الأسماء لإعطائها شكلها العلمي الدقيق المنقول أصلاً عن الأجنبية بما يشبه المصطلحات كقولهم :

لاسلكيّ ، لامائي ، لاهوائي ، لاأخلاقي ، الخ ....

كما تبنى النحتَ عند الضرورة ، وهو تكوين كلمةٍ اصطلاحية من كلمتين في الأصل ، وذلك لئلا تضيق دائرة التعريب أمام المعرّبين ، ومن الكلمات المنحوته .

الحيَنباتي : (حيوان ونبات) ، الجَوْ أرضي : (جو وأرض) الكهرطيسيّ (كهرباء ومغنطيس) ..

ويبقى تعريب النصوص الطويلة والكتب ، كنوعٍ من الترجمة بتصرّفٍ يحافظ على شخصية اللغة العربية وخصوصيتها بين اللغات ، دونما تغيير في الأرقام والحقائق الثابتة .

إشكاليّات الترجمة :

عندما تكون الترجمة ترجمة نصوص ، ولاتقتصر على عددٍ محدودٍ من الجُمل لتلبية حاجةٍ عارضة من حوائج الحياة . فإنّها تقود إلى إشكاليات عديدة ، ويقع النص TEXT كوحدةٍ كبرى للترجمة دون أن يعني هذا الاسم كتاباً كاملاً ، أو مشروعاً أدبياً منجزاً ، أو مؤلّفاً علميّاً متكاملاً . على أن كل لغةٍ من اللغات الحية الناقلة أو المنقول إليها ، تحدّها حدود من الخصوصيّة تجعلها بحكم المحجوزة عن الاختلاط بالأخرى كالأواني المستطرقة ، ولابدّ في عملية الترجمة من مراعاة خصوصية كلّ لغةٍ من هذه وتلك .

وقد يجد المترجم نفسَه في حال تجرده للترجمة أمام إحدى الحالات من حالاتٍ ثلاث هي :

١-حالات التساوي أو حالة الإمكان .

٢-حالة الإمكان بصعوبة .

٣-حالة استحالة الترجمة .

أمّا حالة التساوي ، ويسميها علماء اللغة الغربيون EQUIVALENCE فيشترك فيها أن يتلاقى النصّان المترجَم والمترجم إليه في الموقف الذي يعطي الأولوية للمعنى وليس للأسلوب اللفظي . هذا التلاقي يسمح بصياغة التعبير من جديد باللغة المترجم إليها . وهذا مايحقق "الهوية المعبّرة" المتوفرة في كلا النصّيْن وهي ماعبر عنه العلماء الأجانب بمصطلح :

EXPRESSIVE IDENTITY. *

وحالة الإمكان بصعوبة هي الحالة القائمة في معظم عمليات الترجمة ، فإن إعطاء الأهمية للمعنى على حساب الأسلوب اللفظي لاتواتي المترجم دائماً ، فلا يوجد تشابه تام بين ترجمتين لنصٍّ واحد لو قام بالترجمة اثنان ، ولكن يبدو مقبولاً أن يتقارب النص المترجم مع نظيره ، وأن يتقارب الاثنان مع فحوى النص المترجَم دونما ضرورةٍ للتطابق التام وهناك من يقطع بأن التساوي التام في الترجمة أمرٌ بعيد المنال . وهناك من يكتشف حالات من استحالة الترجمة من لغة إلى لغة ، فكيف ذلك ؟!

تدخل الترجمة حالة عدم الإمكان أو حالة الاستحالة بعامل من العوامل أو أكثر ، فهناك العامل الثقافي الذي هو أضخم العوامل ، وهناك العامل الديني ، والعامل الاجتماعي ، والعامل الفَردي . هذه الحالة من عدم الإمكان لاتعني مطلقاً أن يتخلى المترجم عن مهمته لشعوره بالعجز عن النقل إلى اللغة الأخرى ، بل إنها تعني وقوفه وجهاً لوجه أمام هاوية الخطأ ، ومن ثمّ سقوطه في الهوّة متردّياً بخطأ جسيم بعبارة ضالّة قد تؤدي إلى الإضحاك أو الاستغراب ، أو الغموض التام .. وفي سبيل تصوّر مثل هذا الوضع ، لابد من ضرب بعض الأمثلة في النقل من الإنجليزية إلى العربية ، وبالعكس . لنفرض أننا أمام نقل العبارة الإنجليزية :

The housekeeper asked me : "howabout a picnic? "

فهل ننقلها إلى العربية بهذه العبارة :

"حافظة المنزل سألتني ماذا حول نزهةٍ؟ "

أم هل تترجمها قائلين : "سألتني الوصيفة ما رأيك في نزهة؟ " أم هل نقول : "سألتني أمينة المنزل هل ترى أن نتنزه؟ " هنا تستحيل المطابقة ، وبالتالي تستحيل الترجمة الّا على وجهٍ لا يخلو من تجاوز للمراد الدقيق من العبارة .

وإذا سمعنا من يقول مشيداً بشجاعة غيره بالعربية :

---

* اعتمدنا في تلخيص إشكاليات الترجمة على كتاب الدكتور أحمد مؤقت "علم اللغة والترجمة" نشر دار القلم العربي بحلب انظر ص١٤٦ .

فلان عنتر زمانه .. فهل ننقلها إلى الإنجليزية بعبارة :

? " He is Antar of his time "

أم ننقلها بعبارة : ? "He is the mighyest of all "

أم ننقلها بعبارة ? "This man is very very courageous "

قد يبلغ المؤدى الدلالي لهذه العبارة عدداً لا حصر له من الأشكال التعبيرية ، ولهذا وضع في الترجمة المستحيلة ، ولكن على وجه التمثيل فقط ، لأن الإشكاليات في واقع الترجمة أكبر من ذلك بكثير والمهم في ذلك كله أن يكون القائم بعملية الترجمة واعياً لأبعاد مهمته ، مطلعاً على تراث اللغتين المترجم عنها والمترجم إليها ، مدركاً لتصنيف كلٍّ منهما على المستوى الدّلالي ، ليضع المستوى إلى جانب نظيره في ذلك التصنيف ، أو يرتقي به إذا شاء دون إفراط ولا تفريط .

وقد اتفق الكثيرون من علماء اللغة على أن استعمال اللغة يكون على عدة مستويات ، بسبب التباين بين الأفراد ، في الأصوات وفي الالتزام بقواعد النحو والصرف ، وقواعد السلوك الاجتماعي وغيره . وأحصوا هذه المستويات بالنسبة للمتكلمين بالإنجليزية فكانت خمسة مستويات هي * :

١-المتحفّظ أو الجامد : Frozen .

٢-الرسمي : Formal .

٣-العَرَضي أو التلقائي : Casual .

٤-الودّي : Friendly .

٥-الودّي جدّاً أو الحميمي : Intimate .

وبالنسبة للغة العربية نجد من مستوياتها ما يقابل ذلك ويحصر في هذه المستويات الأربعة :

---

* انظر "علم اللغة والترجمة" للدكتور موفّق ص١٧١ ومابعدها .

١-**مستوى العربية الفصحى :** وهي لغة الطبقة العليا من المثقفين ، وأصحابها أقرب إلى الاختصاص الجامعي(الأكاديمي) في كافة الميادين ولا سيّما ميدان التخصّص .

٢-**مستوى الفصحى :** القريبة من العامية أو العامية القريبة من الفصحى : وهي لغة الطبقة المتعلمة من المجتمع ، وتتساهل في قواعد الإعراب ، وتفرط في استعمال "الوقف" ، وهو الوقوف غالباً على حرفٍ صامتٍ بلا تحريك ، أو بلا إطلاق بوساطة أشباه الصوائت (الفتحة والضمة والكسرة) .. وقد نُسب إلى الأديب المسرحي توفيق الحكيم أنه سمّاها باللغة الثالثة بين العامية والفصحى ورشحها لتكون لغة المسرح ليفهمها الجميع .

٣-**مستوى العامّية :** وهو المستوى الشائع محلياً ؛ في كلّ مدينة ، وكُلّ قريةٍ ، وكلّ إقليمٍ جغرافي ، ودوائره لا تُحصى عدداً بالنسبة لقربه من الفصحى أو بعده عنها . ويذكرنا هذا المستوى باللهجات التي كانت شائعة في جزيرة العرب ، قبل حصول السّيادة للهجة قُريش . ومع ذلك إنّ التحرّي الدقيق لألفاظ العاميّات ومفرداتها ينبئ عن وراثة **كلِّ** لهجةٍ عامية محلّية للهجةٍ من لهجات القبائل العربية أو الحبشية أو البربرية أو الآرامية السريانية . وهذه الكثرة الكاثرة من التفرّعات جعلت أرباب الفصحى الغيورين على اللغة العربية المعتمدة في الطليعة كلغةٍ للثقافة والتعليم ، جعلتهم يعتبرون شيوع العامية وتأصيلها في كل قطرٍ على حدة ، آفةً خطيرة ينبغي مكافحتها والحدّ من دائرة انتشارها .. وهذا ما التزمت به وزارات التربية والتعليم والثقافة ، والمجامع العلمية العربية ، ويلاحظ في الآونة الأخيرة ،

أنّ بثّ البرامج المرئيّة عبر الأقمار الفضائية دمج اللهجات والمستويات اللغوية بعضها ببعض وقارب مابينها ، مما يتوقع معه شيوع لغةٍ هي صفوة اللهجات أو عاميّة العاميات على مستوى الأقطار المتكلمة بالعربية . ويطمح المجمعيّون ، والمتخصصون بالعربية ، والمخلصون للثقافة العربية الموحدة ، أن يكون بثّ البرامج الإعلامية ، والإعلانات التجارية باللغة الفصحى الأصيلة ، وذلك لتسخير اللغة في تحقيق توحيد الأمة العربية بدلاً من تشتتها في وجه أعدائها .

لهذا سنجعل محور اهتمامنا في الباب التالي : معالم اللغة العربية الفصحى ، وخصائصها ، وتوظيفها حاضراً ومستقبلاً .

الباب الثالث

الفصل الأول :

معالم اللغة العربية الفصحى .

الفصل الثاني :

خصـــائص اللغة العربية .

الفصل الثالث :

تـطـــوّر الـــدّلالـــة .

الفصل الأول
مَعَالِمُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْفُصْحَى

النحو – الصرف – البلاغة – المتون

تذكر الكتب المعتمدة ، أنَّ الأمة العربية ترجع في جذورها إلى فرعين كبيرين ، هما قحطان أوعرب الجنوب ولغتهم الحميرية ، وعدنان أو عرب الشمال ولغتهم متعددة اللهجات وعلى رأسها كانت لهجة قريش التي سادَت وتأصلت بفعل عدة عوامل تعرضنا لذكرها من قبل ، وجاء القرآن الكريم منزّلاً بها ليقرّها لغةً لأمة العرب إلى ما يشاء الله ..

والملاحظ أننا بدأنا نقيّد العربية بدلاً من إطلاقها بنعت "الفصحى" لأن الفصحى هي أمنا وهي التي تهمنا عندما ندرس (فقه اللغة) كعلمٍ على إطلاقه .. وقد اتفقنا غير مرة على أنه علم العلوم اللغوية من خلال اللغة القومية الواحدة بمقارنتها مع اللغات الحية الأخرى ، ماوسعت المقارنة ، والاستعانة بالعلم الناشئ الحديث علم اللغة أو علم اللسانيات ، Linguistics . ففقه اللغة ؛ علم لسانيّ ، تاريخي ، مقارن • وفي هذا الباب من كتابنا 'الوجيز في فقه اللغة' نحاول استيعاب معالم العربية الفصحى بكلّياتها دون تفصيلات ، وبأبرزها دون الثانويّات . وقد سبق لي حين طلبتْ إليَّ إحدى دور النشر الكبرى* في حلب أن أغطي بالبحث العلوم اللغوية العربية كلّها بأسلوبٍ مبسّط ، سبق لي ، أن اقترحتُ هذه العلوم واستطعتُ – بفضلٍ من الله وتوفيق – أن أتناولها بالبحث عموماً ، فجاءت كمايلي :

---

* هي دار القلم العربيّ .

علم النحو ، علم الصرف ، علم البلاغة ، علم العروض ، الخط والإملاء أو علم الكتابة ، علم دراسة المتون أو الدراسة الأدبية ، فن الإنشاء أو علم صنع المتون ، علم الأساليب النحوية ، علم الجُمل وأشباهها * علم الحروف والأدوات النحويّة ..

كان عددها عَشَرةً ، جاء "فقهُ اللغة" ليطوّقها بالإلمام العام ، وبالقدر المستطاع الذي ينفع الجامعيّين من دارسي اللغة العربية الملمّين بلغة أجنبية واحدةٍ على الأقل .. وافترضنا أنها اللغة الانجليزية لأنها الأوسع انتشاراً في أوساط المثقّفين ..

أما بالنسبة لأصوات الفصحى فيرى بعض المحدثين أنها أصوات ثابتة لم ينلها التطوّر ، وأنا ننطقها اليوم كما كان العرب ينطقونها منذ أربعة عشر قَرناً** . وهذا الرأي أقرب مايكون إلى الصواب ، لأن العربية الفُصحى وإنْ تشعّبت إلى عامياتٍ قطريّة ، ما فتئت على ماكانت عليه ولا سيّما عندما يُتلى بها القرآن الكريم .. وإنّ ما أصابها من التغيّر خلال عمرها الطويل ، لايعدّ شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى ماأصاب غيرها من الألْسن .

لكن الثبات المشهود به للفصحى ، تساوره محلّيات إقليمية وجغرافيّة ترفد الفصحى ، ولاتقوى على تغييرها . بل لعلها تستمدّ منها نتيجةً لاختراق الفصحى للحجب المفروضة ، واجتيازها للمسافات بفعل الإعلام المتطوّر ووسائل البث والاتصال المتوفرة .

---

* هو العمل الوحيد الذي لم ينفّذ بعد من السلسلة المذكورة .

** عن رأي للأستاذ محمد المبارك نقلاً عن كتابه : "فقه اللغة وخصائص العربية" . انظر كتاب الأنطاكي "دراسات في فقه اللغة" ٢٢٤ .

النحو والإعراب

من المعروف أن اللغة العربية الفصحى لغة إعراب ، بمعنى أن أسماءها ضمن الجمل تكون مرفوعةً أو منصوبة أومجرورة . وقد ذهبت الآراء بالنسبة لحركات الإعراب مذهبين مختلفين :

الفريق الأوّل : يرى أن حركات الإعراب لا تحدّد المعاني وإنما هي وسائل لوصل الكلمات ببعضها إذ يصعب أو يتعذر وصل الساكن بساكن آخر أثناء الكلام المتواصل .

الفريق الثاني : يرى أن حركات الإعراب فيها تمييز للمعاني ولو قال قائلٌ : " ما أحسنْ زيدْ* " لم يفهم مقصده فإذا أطلق الكلام بحركات الإعراب توجه بها إلى المعنى المقصود المختلف في كلِّ حالةٍ عن غيرها :

ما أحسَنَ زيدٌ = نفي فِعْل الإحسان عن زيد .

ما أحسنَ زيداً = التعجّب من حسنِ زيدٍ .

ما أحسن زيدٍ؟ = السؤال عن أحسنِ ما في زيد .

هذا فضلاًعن أنّ العرب الفصحاء يفرقون بالحركة بين اسم الفاعل واسم المفعول في مثل مُكرِم ومُكرَم وبين الفعل والمصدر في مثلِ :

عَلِمَ وعِلْم ، وبين الفعل المعلوم فاعله ، والفعل المجهول فاعله مثل فَهِمَ وفُهِم .. فللحركة أثر فعّال في بناء الكلمة بناءً صرفيّاً .

ولامجال للتردّد في أن القرآن الكريم المنزّل بلغةٍ فُصحى قد قرئ مُعْرَباً ، وإلّا ترك المجال مفتوحاً للوقوع في الالتباس والكفر ، كما في الآية :

{إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ} الواردة في سورة فاطر . فإن الضبط الصحيح بحركات الاعراب ، هو الذي يفهم معه بأن الله هو الذي يخشاه عباده العلماء مهما علا شأنهم .

---

* الحجّة والمثال منقولان عن اللغوي أحمد بن فارس انظر كتاب الانطاكي " دراسات في فقه اللغة " ص ٢١٥ .

ومن المتفق عليه أن اللغة العربية الفصحى لم تنفرد بين أخواتها الساميّات بنظام الإعراب ، فللإعراب مظاهر في اللغات الحبشية السامية كالجغريّة والأمهريّة ، وهذا دليل على أن الإعراب الذي هو في الفصحى أوضح وأجلّ شأناً ، ليس من صنع النحاة والاصطلاح عليه فيما بينهم ، حتى إنّ أوزان الشعر العربي لم تكن لتتم دون إعراب الكلمات وإطلاقها بالحركات الثلاث .. وهذه الأوزان أسبق وجوداً من وجود علماء النحو في البصرة والكوفة فليست قواعد الإعراب قواعد مخترعة بَلْ مستقرأة من قبل العلماء ، وماتدوينها والاهتمام بها في علم النحو إلّا لمكافحة اللحن وهو الخطأ الإعرابي الذي جعل يتفشّى على الألسن باتّساع رقعة الإسلام واتساع رقعة الدولة العربية معه ، ودخول العناصر الأعجميّة بأعدادٍ كبيرة .

ولقد وقفنا على الخلاصة الإعرابيّة في كتاب 'جامع الدروس العربية' للعلّامة المرحوم الشيخ مصطفى الغلاييني ، ونجد من المناسب إلحاقها بموضوع النحو والاعراب بشيء ، من التصرف والتلخيص مع نظرة مقارنة لقواعد اللغة الإنجليزية G rammar يقول : الكلمة الإعرابية أربعة أقسام : مسند ، ومسند إليه ، وفضلة ، وأداة .

المسند يكون اسماً مثل : العلم نافعٌ

ويكون فعلاً مثل : جاء خالدٌ

ويكون اسم فعل مثل : هيهات المزارُ

والمسند إليه لا يكونُ إلا اسماً . وهو يقع مرفوعاً سواءً إذا كان فاعلاً جاء خالدٌ . أو مبتدأ :

خالدٌ حاضرٌ . أو اسماً لكان أو احدى أخواتها :

كان خالدٌ مستعدّاً .. لكنّ المسند إليه يقع منصوباً إذاوقع بعد إنّ أو إحدى أخواتها مثل :

إنّ خالداً شجاعٌ .

والمسند يكون اسماً مرفوعاً : إنّ الحقّ غالبٌ .

ويكون اسماً منصوباً إذا وقع بعد (كان) أو إحدى أخواتها : كان خالدٌ بطلاً .

أمّا الفِعل في العربية الفصحى فهو ماضٍ ومضارع وأمر ؛ الماضي مبني دائماً على فتحٍ أو ضم أو سكون جاءَ – جاؤوا – حَضَرْتُ

والمضارع مُعربٌ مرفوع أو منصوب أو مجزوم :

ينصرُ الله المؤمنينَ .

لن ينصرُ الله إلّا المؤمنين .

لم ينتصرْ قاعدٌ عن الجهاد .

ويكون المضارع مبنيّاً على الفتح إذا اتصلت به إحدى نوني التوكيد : أقسم ليجتهدَنَّ أو ليجتَهِدَنْ .

ويكون المضارع مبنياً على السكون إذا اتصلت به نون النسوة : الفتيات يجتَهِدْن .

وفعل الأمر : يكون مبنياً على السكون : اكتُبْ ، أو على حذف حرف العلّة : اسْعَ ، أو على حذف النون إن كان مضارعُه من الأفعال الخمسة .اكتبا ، اكتبوا ، اكتبي .

ويبنى فعل الأمر على الفتح إن كان متصلا بإحدى نوني التوكيد : اكتُبَنْ . اكتُبَنَّ .

أمّا الفضلة : وهي اسم يذكر لإتمام معنى الجملة بعد توفر ركنيها المسند والمسند إليه :

أرشدَ الأنبياءُ الناسَ الناس اسم فضلة منصوب .

أحسنَ الله إلى العبادِ .

والأداة : كلمة رابطة بين جَزأيْ الجملة من المسند والمسند إليه ، أو بينهما وبين الفضلة ، أو بين جملتين .. وتكون اسماً مبنيّاً أو حرفاً ، والحرف لا يكونُ إلّا مبنيّا على وضع آخره من حركة أو سكون ، وعدّوا في الأدوات أدواتِ الشرط والاستفهام والتحضيض والتمنّي والترجّي ، ونواصب المضارع وجوازمه وحروف الجرّ وغيرها .

هذا ، ويقابل المسند إليه بالإنجليزية كلمة : Subject وهو مبتدأ يغني غناء الفاعل في الوقت نفسه .

ويقابل المسند باللغة الإنجليزية Predicate ، وهو الفعل Verb ، ويكون متعدّياً :

Transitive أو لازماً Intrasitive ، أمّا الفضلة فهي المفعول به Object، بالإضافة إلى البقيّة المسماة Rest of sentence ، ومن المعدود في الفضلة الأداة Article من جارّة Preposition وعاطفة Conjuncitions ، وظروف adverbs الخ ..

ويحقق نظام الفعل المساعد helping verb ، وخاصة فعل الكون : verb to be للجملة ركنها الثاني المسند الاسمي أو الخبر Predicate فيقابل قولنا عليٌّ مُعلِّمٌ بالإنجليزية :

Ali is a teacher بينما يحذف وجوباً كلُّ مادلّ على كونٍ عام في اللغة العربية فيقال :

أنا أخوه ولا يقال أنا أكون أخاه كما يقال في الإنجليزية Iam his brother.

نتوصّل بهذه الفقرة المقارنة بين قواعد اللغتين على بساطتها المتناهية إلى استنتاج مايلي :

١-وحدة الاتجاه الذهني بين اللغتين باعتماد المسند والمسند إليه في بناء الجملة الكلامية .

٢-الاتجاه العامّي إلى تقوية المسند الاسمي بفعلِ كَوْنٍ مساعد (أكون ، to be) .

٣-التوسّع في مدلول الفضلة في الكلام ، من المفعول به وحده إلى أشياء أخرى غير المسند والمسند إليه .

وقد سبقت اللغة الإنجليزية وتبعتها العامية العربية إلى إلغاء التفريق بين نون النسوة وجمع الذكور العقلاء ، ومعاملة المثّنى بمعاملة الجمع . فيقال عن الجمع والمثنى والذكور والإناث بالإنجليزية They come كما يقال اليوم في معظم العاميّات العربيّات مايشبه ذلك :

الرجال جاؤوا ، والنساء جاؤوا

عليّ ومصطفى جاؤوا ، وأولادهم جاؤوا

مع ملاحظة قلب الفعل (جاؤوا) لفظاً إلى (أجُوا) بتقديم الهمزة من وسط الكلمة إلى أولها .

ويبقى علينا أن نشير إلى أنواع الإعراب في العربية الفصحى فهو : ظاهري ، وتقديري ، ومحلّي :

الظاهري بظهور الحركات على آخر الكلمة : الفتاةُ ناجحةٌ . والتقديري بعدم ظهور الحركة وتقديرها بالنسبة إلى محلّ الكلمة من الإعراب : الفتى ناجحٌ .

والمحلّي ببناء آخر الكلمة على السكون أو على حركةٍ من الحركات ولها محلّ من الإعراب يقتضي خلافَ حركتها :

نجح هؤلاءِ التلاميذُ : اسم الإشارة مبني على الكسر في محل رفع فاعل .

الصَّرف (علم بنية الكلمة)

الصرف علمٌ من علوم اللغة العربية ، موضوعه بنية الكلمة المفردة خارج السياق المعنوي أي دون أن تتأثر بموقعها في الجملة وحركة إعرابها .

ويلاحظ أن بنية الكلمة تتعرض أحياناً للتغيّر في لفظها إمّا لتحقيق الانسجام الصوتي أو لاستحداث معنى فرعيٍّ جديد .

بُيِعَ بِيعَ : تحقيق انسجام صوتي .

عالِم معلوم : استحداث معنى جديد .

ويلاحظ أن الميزان الأساسي للكلمة العربية يقوم على ثلاثة أحرف ، وهذا ما استقر عليه الرأي بعد طرح النظرية الأحادية ، والنظرية الثنائية لأصل الكلمة ، ومازاد على الأصل ، الثلاثي ينقل الكلمة سواءً أكانت فِعلاً أم اسماً ينقلها من المجرّد إلى المزيد .

عَلِمَ = مجرّد ، أعْلَمَ = مزيد فعلي .

عِلْم = مجرّد ، عالِم = مزيد اسمي .

ومالم تكن الزيادة بمضاعفة أحد حروف الأصل (علَّم) تكنْ بأحد حروف الزيادة التي تجمعها كلمة "سألتمونيها" .

وقد جعل 'القانون في الصرف' مهمة علم الصرف محصورة في دراسة التغيرات التي تطرأ على الاسم والفعل وأسماها تكيّفات ، وقسمها إلى تكيفات لفظية وتكيّفات معنوية* .

فمن التكيفات اللفظية مايخص الأسماء والأفعال كالإعلال والقلب والإبدال ، ومن التكيفات المعنوية ما يخّص الأسماء كالمجرد والمزيد والجامد والمشتق والمذكر والمؤنث الخ ...

---

* انظر المادة الرابعة من القانون في الصرف "للمؤلف" .

ومن التكيفات المعنوية مايخصّ الأفعال كالمجرد والمزيد ، والجامد والمتصرّف واللازم والمتعدّي* الخ ...

وليس في منهاج " فقه اللغة " شرح التكيفات الصرفية بين الأسماء والأفعال ، ولكن لابد من الإشارة المؤكدة إلى أن اللغة العربية الفصحى لغة مستمرة الإخصاب والتوالد عن طريق الاشتقاق وهو التفرّع عن الأصل العام وهو المصدر ، الذي يدل على الحدث المطلق مجرّداً عن الزمن ، وعنه تولّدت شجرة الكلمات العشر وفيها الأفعال الثلاثة ، وسبع من المشتقات الاسمية .

الأفعال هي الماضي والمضارع والأمر

والمشتقات الاسميّة هي : اسم الفاعل ، اسم المفعول ، الصفة المشبهة باسم الفاعل ، اسم التفضيل ، اسم الزمان ، اسم المكان ، اسم الآلة .

هذا كلّه عدا طائفة كبرى من الأسماء الجامدة التي وضعها الاصطلاح تطوراً عن الأصوات البدائية ، أو نقلاً وتسرّباً من لغاتٍ مجاورة أدخلها (التعريب) إلى الفصحى فهي من المعرّب أو من الدخيل ، وأحصيت في العصر الوسيط بألف كلمةٍ على وجه التقريب .

لقد كان موضوع المصدر وكونه أصلاً للأفعال الثلاثة ، موضع خلاف بين نحاة البصرة والكوفة .. فالبصريون يرونه أصلاً للأفعال، والكوفيون يرون أن المصدر مشتق من الفعل وهو فرعٌ من فروعه ، ولكون المصدر يدلّ على الحدث وحده ، دون الحدث والزمن وهما من دلالة الفعل يرجح بعضُهم نظرية البصريّين لأن البسيط أي المصدر ، أحرى بأن يتولد عنه المركّب أي الفعل المركب من حدثٍ وزمن ، أو اسم الفاعل أو اسم المفعول أو اسم التفضيل وهذه المشتقات فيها دلالة

---

* انظر التكيفات بتمامها كما عددتها المادة /٦/ من القانون في الصرف .

حدثٍ وزمن فصلاً عن تميّز كلٌ منها بدلالة صيغته على فاعلٍ أو مفعول أو مفضل على سواه* .

على أننا قد نرى المصدر أصلاً للأفعال ، لتكون الأفعال أصلاً للمشتقات الاسميّة .. وعلى التخصيص يصلح الفعل الماضي للاشتقاق منه مع تحييد الزمن ، فلا يعرف للمشتق زمن معيّن إلّا بقرينة . كما أن دلالة المعنى تنسب اسم الفاعل إلى الفعل المبني للمعلوم ، وتنسبُ اسمَ المفعول إلى الفعل المبني للمجهول .

هذا كلّه يعود بنا إلى قررناه من أن العربية الفصحى لغة تحليلية أو متصرّفة ، وتستطيع أن تجدد نفسها دائماً عن طريق الاشتقاق بأنواعه الذي هو خاصّة من أبرز خواصّها ، وقد اعتمدته المجامع العلمية العربية وأولها مجمع القاهرة** وبالمقارنة مع اللغة الانجليزية مثلاً نجد مجال العربية مجالاً أرحب . فاللغة الإنجليزية التي هي لغة إلصاقية تعتمد على توليد الكلمات بوساطة السوابق Prefixes واللواحق Suffixes وقد تدخل إليها بعض المفردات من لغات أجنبية كما هي ، وتكتبها بالحرف اللاتيني لتؤدي أداءً لفظياً غريباً أمّا الفصحى فتلجأ إلى الاشتقاق أو إلى النبش المعجي لألفاظٍ عربية جاء دورها لتبعث إلى الحياة والنور ، وربما لاتمانع في الأسلوب الإلصاقي عندما تضيق بها الحيل ، فنحن نجد في قاموسنا العربي المعاصر ألفاظاً مثل : لا إرادي ، لافقريّات ، معلوماتيّة .. ونجد من الصيغ الاشتقاقية ما اعتمد على الأسماء الجامدة من غير أسماء المعاني أو على ألفاظ أجنبية مثل دَرْهَم ، كَهْرَبَ ، مَوْسقَ ، تلفَزَ من : درْهم ، كهرباء ، موسيقا ، تلفزيون ..

---

* انظر كتاب سعيد الأفغاني : " في اصول النحو " ص١١٣ .

** انظر قواعد البنية في اللغة العربية في كتاب "فقه اللغة" للدكتور علي عبد الواحد وافي ص٢١٠ ومابعدها .

وهكذا تتسع آفاق علم الصرف العربي من ضبط بنية الكلمة ضمن قالبٍ معهود إلى اعتماد أساليب محدثة في توليد الألفاظ بالاشتقاق بأنواعه والبحث عن جذور مهملة وإغزار المعجم المعاصر عن طريقين : التعريب ، واستعارة أساليب اللغات الإلحاقية عند الضرورة .

البـــلاغـــة

البلاغة هي فنّ القول المتميّز الذي يَعْنيه جمال العبارة على قدر مايعنيه وضوحها المؤثر في نفس المتلقي من سامعٍ أو قارئ .. ومن زاوية فقه اللغة والمقارنة بين لغةٍ وأخرى نقول :

إنّ لكل لغة إنسانيةٍ بلاغتَها أي كلامَها المتخيّر الذي يتقنه الخاصة أوّلاً ثم يتبعهم العامة ثانياً على وجه التقليد والتأثر ، ثم لا تلبث الصورة البلاغية المبتكرة أن تصبح مبتذلة يملكها الجميع بل تصبح جزءاً من اللغة المتداولة كأيِّ كلامٍ يُقال ..

مما تقدم نستنتج أن البلاغة في الكلام مما يوسع وجوه الكلام ويخصب اللغة ويمدها بمصطلحات جديدة في التعبير لا تنفد ولا تنتهي ، وفيما يلي سنقوم بجولةٍ عامّةٍ حول وجوه البلاغة وتأثيرها اللغوي دون تدقيق في الأبحاث البلاغية . ويمكننا القول : إن للبلاغة أبوابها وماهي إلا وجوه استخدام الكلام ، وإليك هذه الوجوه مع التمثيل لها بنطاقٍ محدود :

١-يستخدم اللفظ أحياناً في غير ما وضع له فهو بذلك يتجاوز حقيقته ويسمّى في العرف البلاغي " مجازاً " ، فإن كانت العلاقة بين أصل الكلام وبين ما استجد من دلالته علاقة مشابهة ، فهذه هي الاستعارة . فإذا صرّح فيها بذكر المشبه به فهي استعارة تصريحية : قال تعالى في وصف كتابه الحكيم (ابراهيم ١) : { الر ، كتابٌ أنزلناهُ إليك لتخرج الناسَ من الظلمات إلى النور ..} أُريد بالظلمات الضّلال ، وأُريدَ بالنور الهداية . أمّا إذا حذف المشبَّه به واستُبْقيَ شيٌ من لوازمه يدلُّ عليه فهي استعارة مكنيّة . كما تقول : رفرَف الشوقُ بجناحه .

ويستخدم التركيب أحياناً في غير ماوضع له لتشبيه حالةٍ بحالةٍ على وجه الاستعارة التمثيلية لأنها تمثّل حال المشبه بحال المشبه به كقولك : "هو ينفخ في رماد" فيمن يعمل عملاً بلا جدوى .

وإذا لم تُلحظ المشابهة في المجاز كانت المجاز عقليّاً كأن تقول : بنت الحكومةُ المدارس ، وهذه علاقة سببيّة لا علاقة تشبيه ولذا كان المجاز عقليّاً .

٢-وقد يكون الكلام مُراداً في ظاهره على حقيقتين ولكن يرمي إلى هدف بعيد ، فإن قيل عن أحدهم "إنّه نؤوم الضحى" قُصِد بظاهر الكلام أنه كثير النوم وبالاستنتاج البعيد أنه كسول .. وهذا الأسلوب البلاغي يعرف بالكناية وهي من وجوه البيان .

٣-وتكون البلاغة داعياً للإغناء اللغوي عن طريق انتقال اللفظ إلى معناه المجازيّ وثباته عليه .. لنأخذ كلمة الفصاحة التي نفهم منها مباشرةً وضوح الكلام ، لكن معناها قبل أن تنتقل إلى معناها الشائع أنها صفاء اللبن وذهاب رغوته .. والمجد كلمة تعني العظمة ، ولكنها قبل النقل كانت تعني الشَّبَع . والصَّيَد الذي هو الكبرياء والأنفة ، كان يعني ميل العُنُق لعلّةٍ . وبهذا نجد الاستعمال البلاغي وسيلةً من وسائل النقل بمعناه اللغوي .

٤-إذا كانت الجملة بالمصطلح النحوي عبارة عن ركنين أساسيين هما المبتدأ والخبر ، أو الفعل والفاعل ، فهي بالمصطلح البلاغي ، وفي علم المعاني رُكنان أيضاً هما : المُسند والمسند إليه .فهل تتحقق بلاغة الكلام ، ويأتي التأثير المعنوي عن استعمال بسيطٍ للمسند والمسند إليه ؟!

لقد تنزّل القرآن الكريم معجزة بلاغية ، وقوة هذه المعجزة ، دفعت علماء البلاغة إلى استجلاء حقيقة معانيه ، وأسباب تفوّقها على سائر المعاني . وجعل علماء اللغة من همهم أن يقارنوا بين بلاغة القرآن وبين بلاغة النصوص المتفوقة كالحديث النبوي الشريف ومنثور العرب ومنظومهم .

ويبدو أن العرب لم يلمسوا أركان علم المعاني المتوفرة في الكلام البليغ إلّا بعد أن قطعوا شوْطاً بعيداً في دراسة علوم اللغة العربية الأُخرى ولاسيّما النحو . وأوّلُ من سمّى علم المعاني بهذه التسمية هو الإمام عبد القاهر الجرجانيّ* في كتابه : " دلائل الإعْجاز " وقد كان يقصد بكلمة المعاني ، معاني النحو والبناء الجُمْلي . وقد حامت أبحاثُ علم المعاني منذ أيّام عبد القاهر حول المراكز الآتية :

الإسناد ، الذكر والحذف ، الخبر والإنشاء ، التقديم والتأخير ، القصر ، الفصل والوصل ، الإيجاز والإطناب والمساواة .

وعن الخبر والإنشاء نقول : إن الخبر هو امتداد المتون أو النصوص مُذ كانت المقولة الإبداعية أو المكتوبة الإبداعية على شكل نَصّ . وقد صُنِّف الخبر على أنه (ابتدائي وطلبيّ وإنكاري) بحسب خلوّه من المؤكدات أو اقترانه بها .. فاللغة العربية ببلاغتها لغة مُترفة باهتمام علماء اللغة بكل ظاهرةٍ من ظواهرها حتّى الإنشاء وهو مادلّ من الكلام على طلبٍ رصد علماء اللغة والبلاغة تنوّعَه من أمرٍ ، إلى نهيٍ ، إلى استفهام ، إلى تمنٍّ ، إلى نداء ورصدوا بمنظارٍ أدقّ خروج كلٍّ من الأمر والنهي والاستفهام والتمني عن غرضه الأصلي إلى غرضٍ آخر ، ولو نظرنا إلى الاستفهام وحده لرأينا من صيغه البليغة ما ، يفيد النفي مثل : " هل جزاء الإحسانِ إلّا الإحسان ." ، وما يفيد الإنكار مثل : " أغَيْر الله تدعون؟ " ومايفيد الأمر مثل أبوك سيّدك ، هل تفهم؟ ، وما يفيد النهي مثل : أتَعُقُّ والديك؟! وما يفيد التشويق مثل الآية (هل أدلكم على تجارةٍ تنجيكم من عذابٍ أليم') وهناك من الاستفهام مايدلّ على التعظيم أو التحقير أو التسوية ..

---

* هو واضع أصول البلاغة ، لغوي ، وشاعر ، له من الكتب :

(أسرار البلاغة) و (دلائل الإعجاز) و (إعجاز القرآن) وغيرها في اللغة والنحو . توفي ٤٧١هـ .

٥- وهناك المحسّنات البديعية من لفظية ومعنويّة التي تدخل في سياق البلاغة ، وتُساقُ بشكل غزير ومتعّمد مع النصوص المفتقرة إلى المضمون المعنوي الهامّ . كما في أدب المقامات ، والمداعبات الكلاميّة ، وهذا ما تفتقر إليه اللغات الأجنبية غير العربية ، وغير الفصحى القديمة والمدرسيّة . فإذا جمعت بين الليل والنهار في عبارة فهذا من الطّباق البديعي ، وإذا قلت للمزهو بنفسه : يا فَخّارْ إياك أن تتكسّر ، فهذه تورية من المحسنات المعنوية البديعية ، وإذا قلتَ ناصحاً : (لا تحسَّسوا ولاتجسَّسوا) فهذا من الجِناس والمحسّنات اللفظية ..

وكلُّ هذه الأضرب من البلاغيّات سواء ما انضوى منها تحت علم البيان كالتشبيه والاستعارة والكناية أو تحت علم البديع كالطباق والجناس ، أوتحت علم المعاني كالخبر والإنشاء ، والإطناب والإيجاز ، تبدي غزارة بحر العربيّة مقابل غيرها من اللغات . وبينما تقتصر النظرة البلاغية على تشخيص وتجسيم واستعارة وتشبيه في لغتين عالميّتين كالإنجليزية والفرنسية نجد للعربية دستوراً بلاغياً متطوّراً تقيّدَ به القدامى ، واستأنس به المحدثون وهم على رأس جِسر التجديد ، والانتقال من العصر الوسيط إلى العصر الحديث ، ومن ثمَّ إلى الحياة المعاصرة .

المتون اللغوية

متون اللغة بالمعنى المعجمي هي أصول اللغة ومفرداتها ، ونحن في بحثنا الموجز في فقه اللغة بين أحد خيارين ؛ الأوّل : أن نقتصر في فهم كلمة المتن على المجال اللغوي وحده وما أُلِّف فيه عبر العصور . والثاني : أن نجمع إلى النصوص اللغوية ومؤلفاتها كتباً أُخرى من المنظوم والمنثور والأخبار والنقد والطرائف ، وكل ما استوعبه وعاء اللغة باعتباره ذا تأثير وتأثّر : فله جانب واضح من جوانب الفقه اللغوي القائم على الملاحظة اللغوية والمتابعة والرصد والتأريخ والاستنباط والتوقع لما هو محتمل من خلال منحى التطور العام ، وإنْ من خلال النصوص الأدبية أو النصوص بلا تحديد .

ونحن وإن كنا سنعطي أفضلية الاهتمام لنصوص اللغة والمفردات ومؤلفاتها سنعرّج ولو بالذكر على ذكر أمهات الكتب والمؤلفات الأخرى باعتبارها ذات تأثير في منحى التطور اللغوي ، وبالتالي في فقه اللغة .

لعل أهم مانرصدُه في المتون اللغوية* ثلاثة أنواع

أ-معاجم الموضوعات أو الأغراض المخصوصة .

ب-معاجم المعاني .

ج-المعاجم الجامعة للمفردات ومعانيها .

أ-معاجم الموضوعات أو الأغراض المخصوصة : ويقصد بها تلك الكتب والمؤلفات اللغوية التي أخذت شكل رسائل محدودة الغرض . فهي أوّلاً صغيرة الحجم بالقياس إلى المعاجم الجامعة ، وهي ثانياً مما انضوى بمضمونه فيما بعد في المعاجم الكبرى فكم يبق له أثرٌ ولا ذكـرْ . ونضرب مثلاً على معاجم الأغراض المخصوصة ، بذكر بعض أسمائها مع أسماء مؤلفيها ، نقلاً عن كتاب "فقه اللغة" للدكتور علي عبد الواحد وافي :

- كتاب أبي حنيفة في الأنواء والنبات.
- كتب الأصمعي في الدارات ، والسلاح ، والإبل ، والخيل ..
- كتب ابن قتيبة في الرّحل والمنزل ، واللّبأ واللبن ..
- كُتُب ابن دُرَيْد في صفات السَّرج واللجام ، والسحاب والغيث .
- كتاب الفيروزابادي (الروض المألوف)في المترادف من الأسماء.
- كتاب الأضداد لِقُطْرُب** .

---

* انظر رصداً عامّا لمتن اللغة في كتاب محمد الأنطاكي "دراسات في فقه اللغة" ص ٣٤ .

** اسمه محمد بن المستنير وقطرب لقبه . لغوي ونحوي ومفسر من تلاميذ سيبويه . كان معتزلي المذهب . توفي ٢٠٦هـ .

- كتاب أبي هلال العسكري في الألفاظ التي تطلق على بقايا الأشياء .
- كتاب معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع للبكري الأندلسي ت٤٨٧هـ .

ويلاحظ أن هذا النوع من الرسائل والمعاجم المتناثرة الأغراض قد سبق غيره من المعاجم في الظهور ، ومنه ماظهر في مطلع العصر العباسي .

ب-معاجم المعاني : وهي التي تتناول ذكر المفردات الموضوعة لمختلف المعاني . فهي ترتب المعاني بطريقةٍ ما ثم تذكر الألفاظ التي تُقال للتعبير عنها . فهذا الطرز من المعاجم يرجع إليه من يعرف معنىً من المعاني ويرغب في معرفة الالفاظ المخصّصة له .

ومن أشهر ما أُلّف من هذه المعجمات خمسة كتبٍ* هي :

- " كتاب الألفاظ " ليعقوب بن إسحاق السكّيت ، الشهير بكنيته (ابن السكّيت) وهو علّامة لغوي مشهور في عصره عاش (١٨٦-٢٤٤هـ) .
- " الألفاظ الكتابية " تأليف عبد الرحمن بن عيسى الهمذانّي وهو كاتب وشاعر له مصنفات قليلة ولكنها كثيرة الفائدة في الإنشاء . توفي ٣٢٧هـ .
- " مبادئ اللغة " للإسكافي المتوفى سنة ٤٢١هـ .
- " فقه اللغة " للثعالبي وهو أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ، له مؤلفات كثيرة قيمة في مختلف فروع العلوم اللسانية ، عاش (٣٥٠-٤٢٩هـ) .

وكتابه هذا أقرب إلى معاجم الألفاظ المبوّبة حسب معانيها ، إلّا في مواضع محدودة قد تكون من فقه اللغة ، ولنا إليه عودة .

---

* انظر "فقه اللغة" للدكتور علي عبد الواحد وافي ص٢٧٦ .

- " كتاب المُخَصَّص " لعليّ بن إسماعيل الأندلسي الشهير بكنيته ابن سيدة ، توفي ٤٥٨هـ . يقع الكتاب في (١٧) جزءاً ، وهو أدق المعاجم المصنفة لألفاظ المعاني ، وأكثرها استيعاباً لمسائل البحث . وقد اقتبس موادّه مؤلفان عصريّان (عبد الفتاح الصعيدي وحسين يوسف موسى) وقدماه بعنوان "الإفصاح في فقه اللغة" .

ج-المعاجم الجامعة للمفردات والمعاني : ومن أبرزها :

- العَيْن للخليل بن أحمد (١٠٠-١٧٤هـ) وقد رتب كلماته بحسب مخارج حروفها مبتدئاً بأقصى الحلق (ع) ومنتهياً بالشفتين (ب ، و ، م ، ف)* .

- جمهرة كلام العرَب لمحمّد بن دُريْد المتوفى ٣٢١هـ . وقد جمع موادّه من كتاب العين ومن كتب أُخرى للأصمعي وغيره . وابتدأه بالثنائي من الألفاظ (أب ، أت ...) ثم تلاه بالثلاثي والرباعي حتى السُّداسي .

- تاج اللغة وصحاح العربيّة : لإسماعيل أبي النصر بن حمّاد الجوهري المتوفى ٣٩٣هـ ، واشتهر المُعجم باسم الصحاح للجوهري .

جمعه من أفواه الأعراب في سبعة وعشرين باباً ، ورتب كلماته حسب ترتيب أواخرها في حروف الهجاء . وقسم الباب إلى فصول بتسلسل أوائل الكلمات الهجائي فكتب مثلاً تجدها في باب الباء فصل الكاف .

-أساس البلاغة : ألفه جار الله محمود بن عمر الزمخشري المتوفى ٥٣٨هـ وقد رتب كلماته حسب ترتيب أوائلها في حروف الهجاء ولم يشرحها بل أوردها ضمن شواهد استعمالاتها في الفصيح المأثور من الكلام وتمتاز بالتفريق بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي للكلمة .

---

* ذكر الوافي في "فقه اللغة" ترتيب معجم العين ص٢٧٧ .

– لسان العرب : ألّفه جمال الدين الأنصاري الحصري المعروف بكنيته " ابن منظور " المتوفى سنة٧١١هـ . جمَعَه من أشهر المعاجم السابقة له ، وبلغ به زهاء ثمانين ألف مادّة . ورتب كلماته حسب ترتيب أواخرها في حروف الهجاء على طريقة "الصحاح" للجوهري . توسع في الاستشهاد على معانيه بالقرآن والحديث وأشعار العرب ، فعدَّ بذلك دائرة معارف لامعجماً كبقية المعاجم .

–مختار الصحاح : للإمام محمد بن أبي بكر الرازي وهو اختصار لمعجم الصحاح للجوهري ..تصرفت في طبعه وزارة المعارف المصرية ورتبته حسب أوائل الكلمات لا حسب أواخرها من الحروف كما هو الأصل . وهو معجم صغير كثير التداول بين طلاب المدارس . وظهرت أولى طبعاته عام ١٩٠٥م بترتيب الأستاذ محمود خاطر .

–القاموس المحيط : ألّفه محمد بن يعقوب الفيروزابادي المتوفى ٨١٧هـ ، اتبع في ترتيبه طريقة الصّحاح* وطريقة لسان العرب ولكنه قدّم باب الواو على باب الهاء . ويمتاز بتعرّضه لأسماء الأعلام للأشخاص والأمكنة ، والأسماء ، العقاقير . وهو معجم واسع الانتشار ، شرحه بشكل أضخم الشيخ مُرتضى الحُسيني المتوفى ١٢٠٦هـ بمعجم أضخم اسمُه : "تاج العروس في شرح القاموس" . وقد بلغت شهرة هذا المعجم أنّه قد أعطى اسمه لكلّ معجم لغوي بعده فإذا به يسمّى القاموس ومع ذلك لم يخلُ المعجم من مآخذ وقد تعرّض له بالنقد أحمد فارس الشدياق اللبناني المتوفى ١٨٨٧ بكتاب أسماه "الجاسوس على القاموس" .

من كل هذه المعاجم ، ولدت معاجم مستجدّة ومعاصرة ومنها "أقرب الموارد"للشرتوني ، و"المنجد" للأب لويس معلوف اليسوعي ، و"الوسيط" لمجمع اللغة العربية في مصر ، و"المعجم المدرسي" بإصدار وزارة التربية في سورية عام ١٩٨٥م–١٤٠٦هـ .

---

* طُبع بترتيب أوائل الكلمات ، عمل طاهر أحمد الزاوي في أربعه مجلدات .

وفيما يتعلق بموضوعنا في فقه اللغة ، لا تجدي هذه المعاجم نفعاً مادامت لم تتعرّض إلى تعقب تاريخ الكلمة وتطّور مدلولها في مختلف العصور . ولابد من إصدار معجم فقهي يسدُّ هذه الثغرة ، ويكون للمختصّين .

والحقيقة أن الكتب والتأليف كلّها قد أسهمت بشكلٍ أو بآخر ، بإغناء المخزون التجريبي والاستقرائي لفقه اللغة . وهذا القرآن الكريم معين للضبط الإعرابي الخالص من اللحن ، وقدوة في إدخال المعرّبات إلى الفصحى ومثله الحديث النبوي الشريف .. وبدءاً من رسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكتّاب ، ومترجم كليلة ودمنة لابن المقفع ، والبيان والتبيين للجاحظ أخذت اللغة العربيّة الفصحى سيرورةً نحو النضج والألق الحضاري ، وأضحت مستعدةً للتأليف الموسوعي فولد كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني بحجمه الضخم .. وبلغت ذروتها لدى عبد الرحمن بن خلدون في مقدّمته التي هي موسوعة تاريخية واجتماعية وحضارية ، أشادت بنضجهاجهات عالميّة من جامعاتٍ ودور علمٍ وثقافة ، وكان ذلك مع إذرارة القرن الخامس عشر الميلادي حين سلمت الأمة العربية عهدتهامن العلم والثقافة إلى مشارف عصر النهضة في أوربا .

ونظلّ في موضوع المُتون ، ضمن دائرة فقه اللغة لنوسع المتن بمدلوله إلى مدلول النص بوجهٍ عام وكلٌّ صاحب نص فهو لغوي بشكلٍ أو بآخر .

الفصل الثاني
خَصَائِصُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ

يتصدى لهذا العنوان مرجع هام من مراجع فقه اللغة وهو كتاب الدكتور صبحي الصالح : " دراسات في فقه اللغة " ويلاحظ أن عناصر البحث قد تجاوزت حدّها في التوسّع إلى ماجاوز موضوع الخصائص ، وسنحاول فيمايلي اقتضاب الموضوع إلى درجة الاقتصار على الكلّيات البارزة .. وهذا مانقدمه في الفقرات التالية .

١-الأصل السماعي* :

اللغة العربية الفصحى هي مجمّع لهجاتٍ كانت سائدة في شبه جزيرة العرب لقبائل شتى أبرزها تميم وقريش ، وقد انتهت جميع اللهجات إلى المصبّ القرشي ، وكثيراً ماكان سيبويه يشير إلى تشدده في تصويب الاستعمال اللغويّ بردّه إلى العرب الذين تُرضى عربيّتُهم ، وهو يجنح غالباً إلى ترجيح لغة الحجاز إذا اختلفت اللهجات .. وحتى لغة قريش التي استصفاها القرآن الكريم حين نزلَ بها حوتْ غير قليل من لهجات العرب الأُخرى ولكنّها أحيطِت بمظاهر من التقديس لقدمها ولانفرادها ببعض المزايا .

شهد أبو نصر الفارابي صاحب معجم "الصحاح" بأن قُريشاً أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ وقد انتُقي معجمها من قبائل قيس وتميم وأسد وبنوعٍ من الحيطة ، للحيلولة دون تسرّب الدخيل إلى العربية مالم يُطبع بطابع الفصحى . وقد تخشى العدوى اللغوية بسبب القُرْب والجوار مع لغة أجنبية .. ولذلك علّل ابن جني

---

* عنوان الفصل في كتاب الدكتور الصالح : "مقاييس اللغة الفصحى" .

امتناع الأخذ عن أهل المدر (المُدن) لأنهم غير باقين على فصاحتهم . قال في كتابه الخصائص "ولو عُلِمَ أن أهل مدينةٍ باقون على فصاحتهم ، ولم يعترض شيءٌ من الفساد للغتهم ، لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبَر * " .

ومذ شاع في البدو اضطراب الألسنة وخبالُها أصبح العلماء يردّون مايشتبهون فيه من كلام الأعراب ، ومع هذا التشدّد في مقياس الفصاحة ، اصطنع العرب لغة قُريش لغةً ممتازة للتفنّن في القول ، والإبانة في التعبير فتجمعت الأُمة حول لهجةٍ واحدة آلت إلى لغةٍ معتمدة بينما كانت اللغات الساميّات يتفرّقن عن موطن الساميّة الأُمّ ، ويبتعدن في الوقت نفسِه عن الأصالة والصفاء .

وذهب بعضُ الباحثين من المستشرقين إلى أنّ أهمَّ مزيّةٍ للعربيّة حفظتْ لها شخصيتها بين أخواتها الساميّات إنّما هي عزلتُها عن الشعوب الأعجمية ، واكتفاؤها بمقدرتها الذاتية على التعبير ، وعلى التمثّل والتوليد ، وعلى التخيّر والانتقاء ، في موطنها عينه ، وبيئتها نفسها وبين شقيقاتها من اللهجات الفصحى التي تبادلت معها التأثّر والتأثير **.

٢-ظاهرة الإعْراب :

الإعراب من أشدّ خصائص اللغة الفصحى وضوحاً . وبالحركات الإعرابية يُفرّق بين المعاني يقول ابن فارس : "من العلوم الجليلة التي خُصّتْ بها العرب الإعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ ، وبه يُعرَفُ الخبر الذي هو أصل الكلام ، ولولاه ماميِّز فاعلٌ من مفعول ، ولامضاف من منعوت ، ولاتعجّب من استفهام ، ولافعل من مصدر ، ولا نعت من تأكيد " *** .

---

* "دراسات في فقه اللغةللدكتور صبحي الصالح ص١١٤ عن "الخصائص" ج١ ص٤٠٥ . أهل الوبر : البدو .

** "دراسات في فقه اللغة" لصبحي الصالح ص١١٥ .

*** "دراسات في فقه اللغة" للدكتور صبحي الصالح ص١١٨ عن الصاحبي لابن فارس ص٤٢ .

وبتطوّر العربية أضحى الإعراب أقوى عناصرها وأبرز خصائصها ، وأمست قوانينه هي العاصمة من الزلل والمعوّضة عن السليقة بعد أن اختلط العرب الفصحاء بالأعاجم . ولاشك أن ترتيل العرب المسلمين للقرآن الكريم قد راعى الإعراب عصمةً لكلامِ الله من تشويه المعنى أو عكس المقصود في مثل الآية الكريمة " إنما يخشى الله من عبادِهِ العلماءُ " * فالنطق بلفظ الجلالة مرفوعاً يعكس المعنى .. وقد وجد من القراءات القرآنية ما يستغلّ ظاهرة الإعراب لتنويع القراءات دون خروج على قوانين الإعراب ولم يكن ذلك ممكناً والقرآن هو الأصل في استنباط هذه القوانين من نصوصه الفصحى .

وظاهرة الإعراب ظاهرة واضحة في الحديث الشريف ، وقد جُعِلَ بعدَ القرآن الكريم في وثوق الاحتجاج به ، والاستشهاد بنصّه ، وبعد القرآن والحديث يأتي كلامُ الأعْراب من حيث الحُجّية والثقة .. وقد شهد الله سبحانه لكتابه بأنه لسان عربي مبين فقال "وهذا لسان عربي مبين" (النحل ١٠٣) .

وقد حاول بعض المستشرقين بنيّةٍ مشبوهةٍ أن يدّعوا أن الإعراب لم يكنْ إلّا في لغة الأدب من شعرٍ وخطابةٍ ولاسند لهم فيما ذهبوا إليه وقد شُهِد بانتشار الفصحى المعربة في زمن الجاحظ فيما حول البصرة من البوادي** وإن كان لاينفي شيوعَ اللحن في كلام العامّة .

والعجيب أن بعض الباحثين العرب ..مثل إبراهيم أنيس في كتابه "من أسرار اللغة" جعلوا للإعراب قصّةً أصحابُها صنّاع الكلام بمقاييس متأوّلة . ولعلّه قد بنى اتّهامه على بعض الأحاديث النبوية التي لم تثبت صحّتها والتي أفاد منها

---

* سورة فاطر ، الآية ٢٨ .

** البيان والتبيين للجاحظ ج١ ص ٦٢ نقلاً عنكتاب صبحي الصالح ص١٢٥ .

النحاة كشواهد على ماذهبوا إليه من ضرورة تقعيد النحو . ولاجدوى من الخوض في الجدل في مثل هذا الموضوع .. ومهما تكن البواعث التي جعلت بعض النحاة يضعون أحاديث تكرّهُ اللحن إلى الناس يظلّ الإعراب ظاهرةً في اللغة وفي الشعر ، وقبل هذا وذاك في القرآن الكريم الذي يحسم فيه تحريك أواخر الكلمات كُلَّ شبهةٍ وخلاف .

ولاينكر أن رجال النحو قد وقعوا في خلافٍ ومشادّات بينهم وبين الشعراء .. وقد ضاق بعض الشعراء كالفرزدق ذرعاً بملاحظات النحاة ومآخذهم على أشعارهم ، فتعمّدوا اللحن نكايةً بهم ، أو توجهوا إليهم بالهجاء* .

واعترض النحاة سبل بعض القُرّاء بقواعدهم التي استنبطوها ولكن هذا لا يعني أن ظواهر الإعراب كلها موضوعة أو أن الأخبار حول اقتحام النحاة سبل القرّاء كلها موضوعة .. إنما يكفي أن نخلص إلى وجود الاهتمام الكبير بتحقيق قواعد النحو ، وتطبيقها ، واختبار صلاحيتها لضبط ما استنبطت من أجله بحججٍ قويّةٍ حيناً ، وضعيفةٍ حيناً آخر . ولم يخفِ بعضُ اللغويين القُدامى ومنهم ابنُ مضاء القرطبي المتوفى ٥٩٢هـ ، مآخذهم على الجدلية القياسية لدى النحاة ومن مسائلها الخلاف حول عامل الرفع في المبتدأ ، أهو الابتداء كما يقول البصريون؟ أم الخبر كما يزعم الكوفيّون؟ ..هذا رغم إيمانه بأهمية الحركة الإعرابية حتى ليوشك أن يعتبرها جزءاً من بنية الكلمة** .

---

* انظر أبياتاً لعمّار الكلبي في هجاء النحاة في كتاب الدكتور صبحي الصالح "دراسات في فقه اللغة" ص١٣٣ ، نقلها عن معجم الأدباء ج٥ ص٢٦ .

* راجع تفصيلاتٍ أكثر وأدق في كتاب الدكتور صبحي الصالح "دراسات في فقه اللغة" ص ١٢٤ ومابعدها .

٣-مناسبة حروف العربيّة لمعانيها :

لم يخفَ على نفرٍ من علماء اللغة الأقدمين أنّ "اللغة أصواتٌ يعبّر بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم" وهذه مقولة ابن جنّي في كتابه الخصائص .

وحين درسوا أصوات اللغة عرفوا لكل حرفٍ من حروفها صفةً (مجهور ، مهموس) ..ومخرجاً (حلقي ، شفوي) وبالتالي عرفوا له إيحاء من حيث الدلالة والمعنى .

وإثبات القيمة التعبيرية للصوت البسيط وهو حرف واحدٌ في كلمة ، كإثبات هذه القيمة نفسها للصوت المركّب ثنائياً أو ثلاثيّاً أو رباعيّاً الخ ....

وقد لوحظ وقيل على سبيل التمثيل : إنّ الخاء حرف يدل على الليونة بينما القاف حرفٌ يدلُّ على الصلابة واليُبْس وهذا مانلاحظ في فِعْل(خَضَمَ) لأكل الرطب كالبطيخ والقثّاء ، و "قَضَمَ" للصلب اليابس ، نحو : قضمت الدابّة الشّعيرَ ، والشعير حَبٌّ يابس غير البطّيخ والقثّاء ..

وجاؤوا بأمثلةٍ أخرى ممّا وقع وسط الكلمة كالتاء والطاء ، فالطاء أفخم من التاء ولذا كان القطر أقوى من القَتْر .. كما جاؤوا بأمثلة ممّاوقع آخر الكلمة ولوحظ أنّ الخاء أقوى من الحاء في التعامل مع الماء ، فالنضخ أقوى من النّضح ومنه قوله تعالى {فيهما عينان نضّاختان} فجعلت الحاء لرقتها للماء الضعيف ، والخاء لغلظها لماهو أقوى منه .. والأمثلة كثيرة .

وفي حال التركيب ، لاحظ العلماء القيمة التعبيرية للحرف مع أخيه ، حتى خرج بعضهم بنظرية ثنائية اللفظ العربي . ويتضح ذلك في اللفظ الرباعي المضاعف من مقطعين ثنائيين نحو : زَعْزَعَ ، قَلْقَلَ ، صَلْصَلَ ، قَعْقَعَ الخ ....

ولايخفي أثر توالي الحركات في زون (فَعَلَى) في الدلالة على السرعة كما في لفظتي :

البَشَكى : خفة اليدين والنشاط .

الجَمَزى : عدْو الحمار السريع .

ويظلّ العالم اللغوي ابن جنّي رائد اللغويين القدامى القائلين بفحوى الأصوات الدالّة على معانيها وتبعه في ذلك رجال اللغة المعجميون من أمثال الأب أنستاس الكرملي في كتاله : " نشوء العربية ونموّها " .

وَوُجِدَ من قابل* بين الثلاثي المضاعف والثنائي الذي يؤدي معناه في السريانية : مصَّ تقابلها مَصْ ، وحمَّ تقابلها حمْ ويُفهَم من آراء العالم اللغوي ابن فارس ، ومن ابن دُرَيْد صاحب الجمهرة في اللغة أن الثنائي الصحيح لا يكون حرفَيْن البتة إلّا إذا ضعّف ثانيه حتى يصير على ثلاثة أحرف مثل :

بَتّ = بتَتَ . مصَّ = مَصَصَ . مسّ = مَسَسَ

وإنْ جاء في السريانيّة : بَتْ ، مَصْ مَسْ بلا مضاعفة الحرف الثاني .

والرأي المتقدم في ثنائيّة اللغة وإيحابية أصوات مقاطعها يدعو إلى طرح فكرة أخرى وهي فكرة الدلالة المكتسبة من الحاجة اللغوية ولزوم الاستعمال فلكلّ لفظ نشأة وميلاد ، ولكن مايلبث أن يتصرّف به الاستعمال . والاستعمال نَفْسُه يبدأ بإيحاء دلالات معنوية من خلال ماتقادم استعماله وأضحى معتاداً لهذا المعنى أو ذاك .

في كل اللغات البشرية وجد من الألفاظ ما يوحي بمدلوله المعنوي : Onomatopeia . وحسبنا أن لغويينا القدامى كابن جنّي وابن فارس وابن دُريد وغيرهم قد ارتأوا وافترضوا وقرّروا ولوبشيءٍ من الحذر آخر ما توصلت إليه النظريات الحديثة في علم اللغة .

---

* هو الأب مرمرجي . راجع كتاب صبحي الصالح ص١٥٤ .

٤-قابليّة الاشتقاق والنحت* :

من خصائص العربية الفصحى أنها لغة اشتقاقيةٌ ، المصدرُ فيها بمثابة الجَدّ الأعلى للكلمات من أفعال وأسماء على نظرية البَصريّين** ، أو الفعل فيها بمثابة الجد الأعلى تتفرع عنه الأسماء على نظرية الكوفيّين .

فالاشتقاق هو توليد الألفاظ بعضها من بعض ، وللاشتقاق أنواع : الاشتقاق الأصغر ، ثم الاشتقاق الكبير ، ثم الاشتقاق الأكبر ، وأخيراً الاشتقاق الكبّار أو النحت . وفيمايلي فكرة موجزة عن كلٍّ نوعٍ من الأنواع الأربعة .

أ-الاشتقاق الأصغر : هو أكثر أنواع الاشتقاق وروداً في العربيّة . ومثاله اشتقاق الكلمات الآتية من حرفيّة (ض ر ب) الثلاثية :

ضارب ، مضروب ، ضريب ، ضرّاب ، أضرب ، مُضارِب ، مِضْرَب ، مَضاريب ، مضَارب ، مضربة الخ ..

المهمّ في هذا الاشتقاق أن يتفق المشتق والمشتق منه في الأحرف الأصلية وفي ترتيبها . أمّا فصائله القياسيّة بالنسبة للثلاثي في عشر : اسم الفاعل ، اسم المفعول ، الصفة المشبهة باسم الفاعل ، مبالغة اسم الفاعل ، اسم التفضيل ، اسما الزمان والمكان ، اسم الآلة ، بالإضافة إلى الأفعال الثلاثة : ماض ومضارع وأمر ويلاحظ أننا لم نستخدم كلمة المصدر ، ولا كلمة (الفعل) أصلاً للمشتقات المختلفة ، ولكننا استخدمنا كلمة (حرفية ثلاثية) وهي بمصطلح صرفيٍّ معاصر ما يُسمى بالمادّة المعجميّة أو الجَذْر*** .

---

* جاء العنوان : " المناسبة الوضعية وأنواع الاشتقاق في مرجعنا "دراسات في فقه اللغة " لصبحي الصالح ص١٧٣.

** انظر "في أصول النحو" لسعيد الأفغاني ص١١٣ ، أو "الإنصاف في مسائل الخلاف" لابن الأنباري المسألة ٢٨ .

*** تصرفنا في موضوع الاشتقاق غاية التصرف عن المرجع "دراسات في فقه اللغة" للدكتور صبحي الصالح .

والمبرّر في ذلك أن الآراء مختلفة حول أصولية المصدر للمشتقات أو أصولية الفعْل ولكلٍّ فريق حجّته المدعمّة ببراهين منطقية .

وعلى كُلٍّ حال ، لابُدَّ في التوليد الاشتقاقي للكلمات من إلمام بالقانون الصرفي ، ومعرفة قوالب الأسماء والأفعال من مجرّدٍ ومزيد وأبسط المعلومات أن الفعل في العربية مجرّد مزيد . والمجرّد قابل للزيادة بحرفٍ أو بحرفين أو بثلاثة إنْ كان ثلاثيّاً ، وقابل للزيادة بحرف أو بحرفين إنْ كان رباعياً ، على النحو التالي :

فَهِم : مُجرّد ثلاثي وهاهو مَع الزيادات :

أفهم : (مزيد بحرف) .

تفهّم : (مزيد بحرفين) .

استفهَم : (مزيد بثلاثة أحرف) .

دَحْرج : مجرّد رباعي .

تدحرج : مزيد بحرف .

ادَّحْرَجَ : مزيد بحرفين مع الإبدال (اتْدَحْرَجَ) .

ويلاحظ أن أهم ماقي الاشتقاق الأصغر ارتداد التصاريف المختلفة المتشعبة عن المادة الأصلية إلى معنى جامعٍ مُشْترك . أمّا الجوامد ممّا لا توحي بالاشتقاق عن أصلٍ غيرها فمادّتها هي تسلسل حروفها مثل : قَمَر = قَمَرَ ..بُسْتان = بَسَتَ .. صَوْلجان = صَوَلَ ..

ب-الاشتقاق الكبير : ويسمّى القَلْب ، وهو التقاء تقليب الحروف لأصلٍ مشترك في معنى واحد أو متقارب جدّاً . وقد وجدَه ابن جنّي في كلمةٍ مثل (سلم) وسمّاه الاشتقاق الأكبر .. وبرهن أن ألفاظاً تتوالى أحرفها هكذا

س.ل م ، س م ل ، م س ل ، م ل س ، ل س م ، ل م س

لابد أن تتلاقى في المعنى الواحد وهو المرور بملاسةٍ ونعومة .

ومثل سَلم ثالوث (قَوَلَ) وتقلباتها في الدلالة على السرعة ويبدو لنا واضحاً أن طبيعة الاشتقاق الكبير فيها تجازو للدقة وإسرافٌ في التعميم . وللولوع بالاشتقاق

الكبير علاقة بدلالة الحرف على معنى إذ لايخلو من قيمةٍ تعبيرية ، ومن الطبيعي أن يكون لتلازم أكثر من حرف علاقة دلالية وتعبيرية . ومهما يكن نجد في الاشتقاق الكبير شجرة توتي ثمارها حتى قال عنه أحدُ المستشرقين وهو آدم متز : إن لغويّي العرب لم يعرفوا إنتاجاً أعظم منه* .

ج-الاشتقاق الأكبر : وهو ارتباط بعض المجموعات الثلاثيّة ببعض المعاني ارتباطاً عامّاً سببه توافق الترتيب مع متشابهين نطقاً كما في هذه الألفاظ :

أَزّ ، هَزّ - كَشَط ، قَشَط - بَحَتَ ، مَحَتَ . كَدَّ ، كَدَح ..

وقد سمّي هذا النوع عند بعضهم بالإبْدال** وعلى كل حال لايمكن معرفة الأصل منه والفرع الذي هو المشتقّ في هذا النوع من الاشتقاق ولا يُشترط التوافق بين مخارج الحروف في الكلمتين في جميع الأحوال ، وقد يبدل الحرف الصامت بحرفٍ صائت ويبقى المعنى مشتركاً في مثل هذه الطائفة من الأفعال :

(رَسا ، رَسَبَ) ، (سما ، سَمَق) ، (محا ، مَحَق) ، (حَصا ، حَصَبَ) الخ ...

د-الاشتقاق الكُبّار : ومعظم علماء اللغة يُسمّونه (النحت***) . ويكون بأن تعمد إلى كلمتين أو أكثر فتستخلص من مجموع حروفها كلمة جديدةً تدلُّ على مضمون المنحوت منه بلفظٍ أشد اختصاراً ومنه عليه دليل .

فهم يقولون في ترديد عبارة : "لاحولَ ولاقوة إلّا بالله" : حَوْقلة ، وفعلُها : حَوْقَلَ ، فهذا نَحتٌ من مجمل الكلمات الواردة في العبارة .

وجعلوا للنحت أربعة أقسام هي : النحت الفِعلي والوصفي والاسمي والنسبي .. وهذه أمثلة عن كلٍّ منها :

---

* " دراسات في فقه اللغة " للدكتور صبحي الصالح ص٢٠٩ .

** انظر " دراسات في فقه اللغة " لمحمد الأنطاكي نقلاً عن " الصاحبي " لابن فارس ص١٧٣ .

*** انظر " دراسات في فقه اللغة " للأنطاكي ص٣٢٧ ، نقلاً عن الصاحبي لابن فارس ص٢٢٧ .

– النحت الفعلي : أن تنحت من الجملة فِعْلا يدلُّ على مجمل لفظها : مثل : سَبْحَل : قال سبحان الله .

– النحت الوصفي : أن تنحت من كلمتين كلمة تدلُّ على صفة مثل : الصَّلدم ، بمعنى الشديد من الصَّلْد والصَّدْم .

–النحت الاسمي : أن تنحت من كلمتين اسماً مثل : (العقابيل) للبثور التي تظهر على الشفة عقبى الحمّى .

–النحت السببيّ : وهو تأصيل نسبة المنسوب إلى بلدٍ أو قبيلةٍ بكلمة منحوتة من اثنتين : مثل النسبة إلى عبد شَمْس (عبشميّ) ، والنسبة إلى عبد الدار (عبد ريّ) والنسبة إلى حَضْرَمَوْت (حضرميّ) ..

ويلاحظ أن علماء اللغة ، ورجالات المجامع العلمية يفضلون إغزاز اللغة الفصحى عن طريق الاشتقاق الأصغر ولكنهم لايمانعون في النحت عند الاضطرار ولترجمة المصطلحات العلمية عن لغةٍ أجنبيّة* .

٥– ثبات الأصوات :

عرف علماء اللغة الأقدمون أنّ لكلِّ حرفٍ صوته ، وقد وصفوه باعتبار مخرجه الصوتي ، وعرفوا أنّ للصوت الذي في الحرف إيحاءً بالدلالة المعنوية .

ولقد اختلف العلماء في مخارج الحروف ، فمال معظمهم إلى أن عددها سبعة عشر مخرجاً تجمعها عشرة ألقاب فقط** . وهذا الرأي هو الأكثر شيوعاً وقد سبقت لنا وقفة عند الأصوات ومخارجها ، ولا بأس في ذكر ألقاب الحروف موزّعةً إلى مجموعات بحسب صدورها عن جهاز النطق البشريّ ، وهي التالية :

---

* انظر آراء مختلفة لساطع الحصري وأنستاس الكرملي والأمير مصطفى الشهابي ، في كتاب الدكتور صبحي الصالح ص٢٧٢ .

** لاحظ أن التصنيف منه تشريحي يتعلق بأعضاء النطق ، ومنه يتعلق بالنطق نفسه كالمجهور والمهموس ..

١-**الأحرف الجوفيه الهوائية** : ا ، و ، ي وهي كما تلاحظ أحرف المدّ الثلاثة ، تصدر عن جوف فراغ الحلق والفم وتنتهي بانقطاع هواء الفم .

٢-**الأحرف الحلقية** : ء ، هـ ، ع ، ح ، غ ، خ ، وتصدر مما يلي الصدر حتى الفم .

٣-**الأحرف اللهويّة** : ق ، ك .

٤-**الأحرف الشّجرية*** : ج ، ش ، الياء بلا مدّ ، مثل ياء (يد) .

٥-**الأحرف الذلقيّة** : ل ، ن ، ر ، وتسمى ذلقية لأنها تخرج من ذلق اللسان أي من طرفه .

٦-**الأحرف النطعية** : ط ، ل ، ت ، ونسبت إلى النطع وهو سقف غار الحنك الأعلى .

٧-**الأحرف الأسَلّيه** : ص ، س ، ز ، ومخرجها ما بين رأس اللسان وبين صفحتي الثنَيتين الأعليين من الأسنان .

٨-**الأحرف اللّثويّة** : ظ ، ذ ، ث .

٩-**الأحرف الشفهية أو الشفوية** : ف ، ب ، م . ومعها الواو غير المدّية مثل واو (وَرْد) .

١٠-**الأحرف الخَيْشومية** : نْ ، التنوين بغنّة ، النون والميم المشددتان .

وهذه الحروف كلّها توزعت بين مجهور ومهموس . علماً بأن الجَهْر : هُو انحباسُ جري النَّفَس عند النطق بالحرف لقوّته وقوة الاعتماد على مخرجه . أمّا الهمس فهو ضد الجهْر . ونعني بالهمس انطلاق النَّفَس عند النطق بالحرف لضعفه وضعف الاعتماد على مخرجه .

---

* ألحقت بها (الضاد) على خلاف بين رأي وآخر .

حروف الجهر تسعة عشر حرفاً* هي :

أ – ب – ج – د – ذ – ر – ز – ض – ط – ظ – ع – غ – ق – ل – م – ن – و – ي – ا .

وحروف الهمس عشرة حروف هي :

ت–ث–ح–خ–س–ش–ص–ف–ك–هـ .

وللحروف صفات أُخرى ؛ كالشدّة والرخاوة والتّوسط بينهما والاستعلاء وضدّه ، والإطباق والصفير ، واللين والغُنّة ..

وقد ظلّت هذه الحروف على مدى عمر اللغة العربية ثابتةً فطريقة النطق بها اليوم لا تختلف عن طريقة النطق بها بالأمس البعيد ، ونحن نعني بهذا اللغة الفصحى طبعاً . وقد تعب علماء اللغة الغربيّون من التنقيب عن الأسباب الجوهرية للانقلابات الصوتية في لغاتهم بخلاف العربية الفصحى** ، فقد ظلت تحتفظُ لنفسها بثبات أصواتها*** مع بقاء المادّة الأصليّة (التي تتولّد عنها المشتقات مادة ثابتة مهما تبدُ مشتقّاتها الفرعية متغيّرةً عنها كما رأينا في موضوع الاشتقاق بأنواعه .

٦–الغِنى المُعجمي :

تعد اللغة العربية الفصحى أنمى اللغات في أصول الكلمات الدوالّ علىمعانٍ متشعبة قديمة وحديثة . والقاعدة في فقه اللغة بوجهٍ عام أن الكلمة الواحدة تتعدد معانيها بتعدد استعمالاتها ، ولاشك أن بعض الاستعمالات يُهْجَر وبعضها الآخر مهدّد بأن يهجر بعد حين بينما تحتفظ لغتنا الفصحى بهذا وذاك .

---

* يلاحظ ذكر ألف المد وذكر الهمزة كأنهما حرفان .

** انظر بعض المقارنات الصوتية في اللغات الأوربيّة في كتاب "دراسات في فقه اللغة" للدكتور صبحي الصالح ص٢٨٦ ومابعدها .

*** الثبات أمر نسبي . راجع كتاب الأنطاكي ص٢٢٤ و ٢٢٥ .

ويأتي الغنى المعجمي العربي عن عدّة طرق نذكر منها : أ-الترادُف ، ب-المُشترَك اللفظي ، ج-الأضداد ، د-المعرّب ، هـ-الصيغ والأوزان .

وسنمرّ مروراً عابراً بكلٍّ من هذه الطرق لأن معظمها أو بعضها مما تعرّضنا له سابقاً تحت عنوانٍ من عنوانات الكتاب أو مما سنتعرض له لاحقاً بقدْرٍ ما .

أ-الترادُف : قد نلاحظ في العربية كثرة المسمّيات لاسمٍ واحد كالجَمل أو السَّيف أو الحِصان أو الأسد ، ولكن بعض اللغويين ، ومنهم ابن فارس يدّعي أن الاسم ليس إلّا واحداً أمّا ما يعدُّ من المترادفات ، فليس إلّا صفات لهذا المسمّى يُخيّل إلينا أنها من أسمائه .. والواقع أننا لاتستطيع أن ننكر تعدّد المترادفات لاسم واحد ، مادامت الأسْماء قد وُضعت اصطلاحاً ولاعجب أن تضع كلُّ قبيلة اسماً لمسمّى معيّن ، حتى إذا تلاقتْ اللهجات في لغةٍ واحدة ، تعددت الأسماء والمترادفات وازداد المعجم غنىً بالمفردات وهذا ماجرى في لغة العرب .

ب-المشترَك اللّفْظي : هواللفظ الواحد له عدة معانٍ ، فكلمة (الخال) مَثَلاً لها أكثر من عشرين معنىً أو دلالة مختلفة . ولانزعم أن العربية تنفرد بالمشترك اللفظي بل هو ظاهرة في سائر اللغات . وقد يُعينُ سياق الكلام على تمييز مدلولٍ عن آخر ، وقد استغلّ الأدباء والشعراء القدامى في إشاعة الجناس البديعي باستخدام المشترك اللفظي أي اللفظ الواحد الدال على عدة مَعانٍ . قال أحدُهم :

إنْسانُ عيني مُذْ تناءتْ دارُكُمْ

ما راقَهُ نظرٌ إلى إنْسانِ

فإنسان الأولى بمعنى بؤبؤ العين وإنسان الثانية بمعنى الشخص الآدمي ..

ج-**الأَضْداد** : وقصد بها الألفاظ التي يَجْمع أحدها المعنى وضدّه ؛ كالجَوْن بمعنى الأبيض والأَسْود ، والسَّليم بمعنى الناجي والمهدّد بالموت على أثر لدغة أفعى ، والمفازة بمعنى الصحراء التي لا نجاة منها والنجاة من العذاب ونحوه ، والجَلَل بمعنى التافه والجليل ، الخ ..

على أنَّ هذه الألفاظ من الأضداد قليلة العدد فلم يُحصِ ابنُ الأنباريّ منها في كتابه : " الأَضْداد " أكثر من أربعمائة اسم وليس هذه بالمقدار العظيم ، وقد يُعَدُّ من المشترك اللفظي ويبقى على كلٍّ حالٍّ من خصائص العربية ومن ثروتها الغنيّة ، وليس له نظيرٌ في اللغات الأُخرى .

د-**المُعرَّب** : أَدخلت اللغة العربية ضمن ثروتها الكثير من المفردات من لغات الأمم المجاورة فَوُجِدَ من الألفاظ المعرّبة في الشعر الجاهلي ، وفي سور القرآن الكريم ، وفي الحديث النبويّ الشريف ثم عرّبت منها الكثير بعد الإسلام فبدا أعجميّاً ولكن بزيٍّ عربيّ ، لم يجد الأمراء والشعراء والخاصة والعامّة غضاضة في استعماله .

وقد أثار موضوع المعربات في القرآن الكريم جدليّات حادّة* ، فبينما يقول ابن جرير اللغوي "في القرآن من كُلٍّ لسان" يقول اللغوي أبو عبيدة "من زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول" .

والرأي أنَّ القرآن الكريم ، والمعرّبين للألفاظ الأعجمية لم يأخذوا الألفاظ على علّاتها ، فهي إنْ لم تكن على صيغةٍ من صيغ كلام العرب وُضعتْ على صيغة منها أو مِثْلها .

---

* انظر تفصيلات بهذا الخصوص في كتاب الدكتور صبحي الصالح "دراسات في فقه اللغة" ص٣١٦ ومابعدها .

والعربية الفصحى ، على اتّساع مدرجها الصوتيّ ازدادت سعة بإدخال أصواتٍ تُقارِبُ أصواتها مخرجاً ونطقاً ..فلم تستعصِ هذه المُدْخلات على اللسان العربي لدى العامّة والخاصّة ، فليس من العسير على من يتقن الهجائية العربية أن ينطق بالفاء المجهورة كما ينطق الأجانب الحرف (V) ، أو أن ينطق الباء المهموسة كما ينطق الأجانب الحرف (P) أو أن ، يعطّش الجيم لينطق بها على نحو (G) الأجنبية كما في كلمة (good) الإنجليزية .

وهذا بحدّ ذاته يُعَدُّ ضرباً من تعريب الأصوات ، وبذلك تتابع اللغة الفصحى عملها في ضمِّ ماتحتاجه من الكلمات الضرورية إلى ثروتها بعد أن تصنعه على قوالبها وتنسجه على منوالها ..ومن المعلوم أن أكثر الألفاظ التي احتاج العرب إلى تعريبها هي الفاظ الحضارة والعلوم والفنون ، وكثر ذلك في عهد الخليفة العبّاسي المأمون .

ومع النهضة العربية الحديثة رحبّت المجامع العلمية العربية في القاهرة ودمشق وبغداد بالنقل والتعريب بشروطٍ لابدّ من مراعاتها ، وهي بأوجز عبارة :

١-ألا نلجأ إلى التعريب إلّا عند الضرورة .

٢-اللجوء إلى الترجمة الدقيقة لتقوم مقام التعريب .

٣-عدم استعمال اللفظ المُعرّب مادام له مؤدّى في لغة العرب .

٤-إنزال اللفظ المعرّب على أوزان العربيه .

والواقع أن المجامع اللغوية العربية لم تخالف منهج العرب المتقدّمين . وهاهم اللغويون المحدثون يفضّلون استخدام سابقة النفي باللغة العربية (لا) على كلمات : an أو ، in ، أو no فبوسعنا أن نقول على سبيل المثال :

لاأخلاقي في تعريب Amoral

لااجتماعي في تعريب Asocial

ونصفُ بعض الفلاسفة المعاصرين بكلمة : لاأدريّين ، ونستخدم كلمة (أتمتة) كمصدر معرب للتحوّل إلى الآليّة ، وهي كلمة مأخوذة من الكلمة اللاتينية ، المُستخدمة أوربيّاً :

Automatique بالفرنسية و automatic بالإنجليزية

ومن أبواب التعريب شيوع استخدام السوابق واللواحق* في لغةٍ تحليلية اشتقاقية مثل اللغة العربية ..

وكُلُّ مانستنتجه أن العربية الفصحى لغةٌ غنيّةٌ بمفرداتها وسوف تظل غنيّة وقد فتحت عليها كُلّ الأبواب المذكورة ومنها التعريب والنحت ، والإلصاق ، وهي بطبيعتها لغة مرنةٌ طيّعة في المدرج الحيوي الذي يكتب البقاء للأصلح .

هـ-الصِّيغ والأوزان : سبق لنا الاطلاع على المشتقات الاسمية من الأصل الثلاثي وعددناها في هذه الصيغ :

اسم الفاعل ، مبالغة اسم الفاعل ، الصفة المشبهة باسم الفاعل ، اسم المفعول ، اسم التفضيل ، اسما الزمان والمكان ، اسم الآلة .. وليكنْ لدينا الأصل الثلاثي (نَظَر) فمنه على الصيغ المذكورة ناظِر ، نظّار ، نَظِر ، منظور ، أَنْظَر ، مَنْظَر ، مِنْظار ..

ومع أنّ بعض الأصول الثلاثية لاتتولد عنها كُلّ الصِّيغ المألوفة في الاستعمال ، يظلّ الاشتقاق القياسي وسيلةً مجديةً جداً لإغزاز اللغة وإغنائها ، فضلاً عمّا يشتق مماهو فوق الثلاثي ، وممّا تحدّده كتب الصَّرْف .

---

* Prefixes et suffixes

وهناك أوزان تجاوزت الألف والمئتين* عَدداً جاءت عليها أسماء عربيّة ولاشيء يمنع من القياس عليها لتوليد أسماء جديدة ..أمّا أوزان الأفعال من الثلاثي حتى السُّداسّي فلم تجاوزْ اثنين وعشرين وَزْناً . وفي العصر الحديث من تحدّثَ في هذه الأوزان ، وما قُبِرَ منها ، وماظلَّ حيّاً ، وما يصلح لبعثه ومالا يَصلُح .. ومثالُ ذلك ما دعا إليه الأب أنستاس الكرملي** من إحياء وزن فَعَلْعَل للوصف به في حال الكثرة والمبالغة فيقال : سَمَعْمَع ، وغَشَمْشَم ، لكثير السَّمع ، وكثير الغشم ..

على أن اللغة لا تطاوع المقترحات بقدر ما تمضي في تيّارها ، وحياتها المتلائمة مع حاجات مجتمعاتها .

---

* انظر " دراسات في فقه اللغة " للدكتور صبحي الصالح ص ٣٣١ .

** انظر المرجع السابق ص٣٤٣ .

الفصل الثالث
تَطَوُّرُ الدَّلالَةِ

المقصود بالدلالة دلالة اللفظ على معناه .. والأصل في كل لغة إنسانية أن يكون لكلّ لفظ الذي هو بادرة صوتية معنى يتميّز به عن سواه . ومعظم الآراء مستقرّة على أن معنى كلّ لفظ ، أو دلالة كل لفظٍ على معناه هي دلالة اصطلاحية اتفق عليها أهلُ اللغة وطرحوها للتداول فيما بينهم كما تُطْرح العمْلات للتداول في منطق الاقتصاد . وهنا قد يتبادر إلى الذهن سؤال يقول : هل تحافظ كلُّ كلمةٍ على دلالتها أو على معناها عبر العصور والأزمان ، أم هي عرضة للتغيّر في دلالتها كما كانت عرضةً للتغيّر في النطق بِها؟..

وفي سبيل الإجابة عن هذا السؤال لابدّ لنا من نظرةٍ شُموليّة تحيط باللغةِ بوجهٍ عام ، ونظرةٍ أُخرى خصوصيّة إلى لغتنا العربية ، لاعلى أنها لغة شاذّة عن غيرها من اللغات بل لنُفيدَ من علاقتِنا بها ونستمدّ منها الأمثلة والشواهد على قانون تطور الدلالة الذي ينطبق على العموم .

ولا بأس من التعريف بعلم الدلالة وآفاقه أوّلاً ، قبل أن نأتي إلى الحديث عن تطور الدلالة في لغتنا العربيّة .

علم الدلالة وآفاقه بوجهٍ عام :

علم الدلالة Semantics ، أو دراسة المعنى :

The study of meaning هو فرعٌ من فروع علم اللغة ، وهو غاية الدراسات الصوتيّة والنحوية .

وقد شارك فيه علماء من غير اللغويين فتشعّبتْ فيه النظريات ولم يسلم من خلطٍ كثير* ..ويبقى الكلام الحيّ مختلفاً في دلالته عن الدلالة المعجميّة أو الدلالة الأدبية والمجازية ؛ فالقمر في لغة المعجم هو غير القمر في لغة الشاعر الذي يخاطب محبوبته :

لما رأيتُ بها حسناً فتُنتُ به ناديتُ ياقمرا غطّى على القمر

وتختلف اتجاهات اللغويين المحدثين بين كلمتين يطلقونهما على وظيفة اللغة وهما "التوصيل"و"التعبير" ، والمقولة الغالبة عند اللغويين : "إن اللغة هي التوصيل داخل المجتمع** " وهناك من يجعل اللغة تجاوزُ مهمّتي التوصيل والتعبير إلى آفاقٍ أُخرى منها :

أ- الحوار مع الذات أو الكلام الانفراديّ .

ب- السلوك الجماعي كالدعاء والصلاة والهتاف .

ج- الخطاب الاجتماعي والمجاملات المعهودة .

د- لغة السّياسة والمصطلح المغلق على الغرباء .

هـ-....

ومما يعيننا على فهم طبيعة اللغة وجوهرها أن ننظر إلى توظيفها في حياة الفرد ، وفي حياة الجماعة التي يؤلف بين أفرادها الحديث بلغةٍ مشتركة ، وفي حياة النوع الإنساني عامّةً .

---

* انظر (علم اللغة) للدكتور محمود السعران ص ٢٦١ .

** انظر "فقه اللغة في الكتب العربية" للدكتور عبده الراجحي ص٦٩ .

ولنا أن نسجّل لفقه اللغة العربية لدى ابن جني في "الخصائص" ولدى ابن فارس في " الصاحبي " سبقاً للآراء المعاصرة في الغرب والشرق .

فعندما قال ابن جني عن اللغة* "أصوات يعبّر بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم" ، رصد بتعريفه الدقيق أمرين هامين الأول : المعنى الصوتي للغة ، والثاني التوظيف الاجتماعي لها ، وهو لَمْ يعنِ بكامة (القوْم) إلّا (المجتمع) إذ لم تكن كلمة (مجتمع) شائعةً في زمانه بمعناها الحديث Society .

ومن جهةٍ ثانية لم يخف على ابن فارس فهم اللغة على أنها مكتسبة كما قطع العلماء المعاصرون فقال : "تؤخذ اللغة اعتياداً كالصبي العربيّ يسمع أبويْه وغيرهما ، فهو يأخذ اللغة عنهم على مرِّ الأوقات ، وتؤخذ تلقُّناً من ملقِّن ، وتؤخذ سماعاً من الرواة الثقات..** " .

ومثل هذا الرأي عند ابن فارس الذي هو من وفيات عام ٣٩٥هـ قال به الفرنسي فندريس في كتابه "اللغة" ، وقال به الأمريكي سابير أيضاً في الربع الأول من القرن العشرين الميلادي .

وقد أثار فلاسفة الغرب في موضوع الدلالة مشكلة جدليّة حول علاقة اللغة بالفكر ، وأيّهما أسبق وجوداً من الآخر . غير أن الدراسة العلمية للغة أثبتت أنهما يخضعان لتأثير متبادَل ، وليس لنا أن نحكم بأسبقيّة أحدهما على الآخر ، وإن تكن اللغة هي الجانب الأقوى من حيث تأثيرها في الفكر الذي يؤثر فيها بشكلٍ أضعف أو أقل أهميةً .

---

* "فقه اللغة في الكتب العربية" للدكتور عبده الراجحي ص٧١ .

* "فقه اللغة في الكتب العربية" للدكتور راجحي ص٧٣ ، عن الصاحبي لابن فارس ص٦٢-٦٣ .

وإذا كان لابدّ من زجّ اللغويين العرب ، ولاسيّما القدامى ، في مشكلة علاقة اللغة بالفكر ، فحسبنا رأي ابن جني المعتدل الذي غطّى معظم جوانب النقاش عندما جعل اللغة تعبيراً عن الأغراض فكلمة الأغراض أكثر شمولاً من كلمة "الفِكر" أو " التفكير " * . وعموميّتها توحي بتقدم اللغة على الفكر من حيث تبادل التأثير والأسبقيّة .

تطوّر الدلالة في اللغة العربية :

عرفنا أن دراسة التطوّر الدلالي للمفردات فرع هام من أهم فروع فقه اللغة ، وهو الفرع المعني بدراسة أصول الكلمات وتاريخها Etymology وهذا مايندرج في الأعمّ منه وهو "فقه اللغة" ، وقد جهد المهتمّون به ليخرجوا بقوانين ثابتة تنطبق على اللغات ، وسنحاول تقريب هذه القوانين من الأفهام عن طريق تزويدها بأمثلةٍ من القاموس العربيّ ماأمكننا ذلك .

١-إن انتساب الكلمة إلى أصلٍ أو جذر اشتقاقي يثبّت معناها لمدةٍ أطول وخصوصاً ضمن لغتها الأصليّة فإذا تسرّبت للاستعمال في لغةٍ أُخرى لحقها التبديل في دلالتها . ومثال ذلك ماجرى لكلمة (آمين) السريانية التي كانت تعني أبداً أو إلى الأبد ، فإذا بها في الاستعمال العربي وفي اللغة العربية وغيرها اسم فعل بمعنى " استجِبْ " .

٢-إذا تشابه صوت كلمة مع صوت كلمةٍ أخرى تخالفها في المعنى الدلالي المعجمي استجرّت إحدى الكلمتين شبيهها إلى دلالتها . ومثال ذلك كلمة " خَلاق" التي تتشابه مع أخلاق لفظاً وقد انتقلت إلى معنى الأخلاق في شاهد للشاعر حافظ إبرهيم :

---

* انظر " فقه اللغة في الكتب العربية " للدكتور عبده راجحي ص٧٦ .

لاتحسبنّ العلمَ ينفع وَحْدَهُ مالم يتوّج ربُه بِخلاقِ

وقد شاع استعمالها بهذا المعنى في حين أن معناها الأصلي " النصيب من الخير * " .

٣-إن الاستعمال الثابت ، وهو ورود الكلمة دائماً في دلالةٍ مخصوصةٍ يؤدّي إلى تغيير معنى الكلمة إلى ماتكرّرت في عبارته .

من المعروف أنّ معنى الكلمة لا يتحدّد في الذهن بصورةٍ دقيقة إلّا بعد سماع هذه الكلمة في عبارات مختلفة ، واستعمالاتٍ متنوّعة تؤكّد دلالتها مرّةً بعد مَرّة .

ومثلَ هذا كلمة (نَمَط) التي قد تستعمل مرّةً بمعناها الأصليّ وهو البِساط ، لكنها تستعمل مئات المرّات بمعنى الطريقة أو الهيئة بشكلٍ يوحي بأنه ثابت . وتؤول في الغالب إلى مااستعملت من أجله مكرّراً . فإذا قلت لأحدهم : نسيرُ على نَمَطٍ واحد ، فَهِم منها أننا متشابهون في المسْلك ، ولم يفهم منها أننا على بِساطٍ واحِدٍ سائرون .

٤-إنّ الاستعمال المتكرر يبدل معنى الكلمة على قدر ماتحتملُه من دلالات .

وبيان ذلك أن الكلمة إذا زاد استعمالها زيادة كبيرة واعتُمد عليها في تأدية دلالةٍ مُنسلخةٍ عنها ، استدعى كلُّ استعمالٍ من الاستعمالات دلالةً مختلفة مما يبدل معناها في الأصل ..

لنأخذ كلمة (رأس) الذي هو في الأصل جزء هام من أجزاء الجسم ، لنجد له عديداً من المعاني المغايرة للأصل فهو يعني : البداية ، ويعني الأهمّ ، ويعني الزعيم والقائد ، ويعني الأصل والمنبع ، ويعني العنوان الخ ...

---

* استعنا بكتاب الأستاذ محمد الأنطاكي : " دراسات في فقه اللغة " لتلخيص القوانين وضرب الأمثلة " .

إنّ تجاوب الكلمة مع دلالةٍ دون أخرى في كل استعمالٍ مختلف يسمّى بالتأقلم أي المطاوعة للموطن المُقتضى . وفي حالة التأقلم ليس من الضروري أن يقضي المعنى الجديد على ماسبقه من المعاني بل يمكن لكلّ المعاني أن تبقى حيّةً في اللغة ، وتصبح الكلمة التي تأقلمت من ضمن المُشْتَرك اللفظي* الذي تُثبتُه المعجمات . وحسبنا أن نسوق مثالاً آخر في كلمة "الفصل" التي كانت تعني القطع والعَزْل ، فإذا بها اليوم في قائمةٍ من المُشترك اللفظي بمعانٍ هي : الجزء من الكتاب ، والجزء من العام ، والجزء من المسرحيّة ، وقاعة الدرس والخطّة المدبّرة أو المكيدة الخ....

وفي ختام دراستنا للتطور الدلالي نتساءل ما أنواع التبدلات التي تُصيب الدلالة ؟ وفي أي اتجاهٍ تذهب؟

اتجاهات التطّور الدلالي :

يتجه التطور الدلالي بالكلمة في عدة اتجاهات قد يصعب رصدها ، وقد اقتصرنا منها على أربعة هي : أ-الاتجاه إلى التخصيص : وهو انتقال الكلمة من المعنى العام الواسع إلى معنى أخصّ منه وأضيق .

وأوضح مثالٍ على ذلك كلمات العبادة والفروض في الإسلام ، كالصلاة والصوم والحج والزكاة ..

فالصلاة أصل معناها الصلة إطلاقاً ثم تخصصت بالصلة بين العبد وربّه بحركاتٍ معلومة وقراءاتٍ وأدعية ، والصوم كان يعني الانقطاع عن كلّ شيٍ فخصّ بالانقطاع عن الطعام والشراب والنكاح من الفجر إلى المغرب ، والحجّ كلمة تعني القصد بوجهٍ عام فخصّصت بزيارة مكة والكعبة في أوقاتٍ معلوماتٍ مع أداء المناسك المفروضة والمسنونة .

---

* انظر كتاب الأنطاكي "دراسات في فقه اللغة" ص٣٦٩ .

والزكاة كانت تعني النّماء والزيادة فخصّت بضريبة ماحال عليه الحَول من المال بنصاب معلوم .

ب-الاتجاه إلى التعميم : وهو انتقال الكلمة من معنى ضيق إلى معنى أوسع منه دلالةً كما حدث لكلمة (اقتصاد) التي كانت تعني توفير المال والاعتدال في إنفاقه ، فاتّسع مدلولها إلى الترتيب العام لشؤون الداخل والخارج إلى صناديق الدّول وميزانيّاتها .

ج-الاتجاه إلى المخالفة : أي مخالفة الدلالة واستبدالها بأخرى عن طريق المجاز ، أو التوهّم ، أو الخطأ :

فمن المجاز المرسل الذي علاقته الكلّية قوله تعالى : {يجعلون أصابعهم في آذانهم} البقرة١٩.

ذَكَرَ الكُلَّ (أصابع) وأراد الجزء وهو الأنامل أو رؤوس الأصابع التي توضع في الآذان عند سماع الرّعد .. وقد انتقل مدلول الأنملة إلى الإصْبع واستعمله الناس .

ومن التوهّم الاتجاه بمدلول "الرّزين" إلى "الثّقيل" حيث يضحك معناها ويستغرب إذا ترجمت إلى لغة أجنبية بنظيرتها الدلالية الدقيقة :

he is a heavy man

ومن الخطأ انتقال كلمة (قَلْب) إلى معنى (البطْن) في بعض لهجات العوامّ فيقول أحدهم : "قلبي يوجعني" بينما الالم في بطنه وأحشائه .

د-الاتجاه إلى الدخيل : قد يكون بنقل الكلمة من مدلولها الفصيح إلى مدلولٍ أجنبيٍّ دخيل لأنه أضحى مطروقاً من قبيل التقليد والتأثر بالآخرين كاستخدام (قتلِ الوقت) بمدلول إضاعة الوقت عبثاً ، عن الفرنسية tuer le temps والتحطّم بمدلول الضياع والإفلاس ، فيقول أحدهم :

انا محطّم I am broken

ولا يخفى أن كلاً من الاتجاهات المذكورة في عالم الدلالة له ما يبرِّره ، ويضرب الأستاذ محمد الأنطاكي في كتاب (دراسات في فقه اللغة) أمثلةً على هذا التبرير ، فيقول في حالة الاتجاه إلى التخصيص الدلالي بالكلمات العامّة : (يفهم منها كُلُّ امرىءٍ ما يتعلق به وحده ، فالموسم عند مربّي الماشية هو زمن ولادة الإناث منها ، والموسم عند بائع المعاطف هو الشتاء ... وهكذا فمن ثَمَّ ينشأ التخصيص غير الشعوري) .

ويضيف عن حالة التعميم غير الشعوري قائلاً : (ويحدثُ عندما تخفى على المتكلم الفروق الدقيقة بين النوع والجنس ، فيسهل عليه أن يطلق اسم الجنس الخاص على النوع الذي هو أعمّ منه .

هذا هو الذي يحدث عندما يطلق الناس اليوم كلمة (الورد) على نوع الأزهار كُلها ، ما كان منها ورداً أو فُلاًّ أو قرنفلاً أو غير ذلك .) .

أمّا حالة الانتقال ، ولا يفرق بين الانتقال المجازي أو الانتقال عن طريق التوهّم والخطأ فيقول عنه الأنطاكي : (وتجري عادةً بين الأشياء التي هي من فصيلةٍ معنويةٍ واحدةٍ .. وهذا يفسّر إطلاق العامة عندنا كلمة (الذقن) على اللحية ، و(القلب) على (البطن) و (الساق) على (الفخذ) و (الحِسّ) على (الصوت) (وغير ذلك *) .

ونضيف أن الرغبة في التقليد لمن يظن أنه الأفضل ، تدفع ببعضهم إلى إلغاء دلالاتِ وألفاظها واستعارة ألفاظ ودلالات من لغة أجنبية مما هو مطروق ومبتذل من أمثال ألفاظ التحية (بونجور) ، (بونسوار) ، وألفاظ الاستحسان (فيري جود) ، (اوكي) ، (تري جولي) وهذه آفة دلالية لا تعترف بها العربية الأم ، وإن سجّل فقه اللغة بعض ظواهرها ..

---

* انظر (دراسات في فقه اللغة) لمحمد الأنطاكي ص ٣٧٠ - ٣٧١

وفي المقابل ، تجاوز جيل أو جيلان من أبناء اللغة العربية المعاصرة ألفاظاً ودلالاتها من الأجنبيّ الدخيل فأحلّوا (السّيارة) مكان (الأوتومبيل) ، (والهاتف) مكان (التلفون) .. وتجاوز جيل قبل ذلك ألفاظاً تركيّة ودلالاتها .

وتظل اللغة كالكائن الحيّ عرضة لكلّ طارىء ، فإما أن تتجاوزه وتقوى ، وإما أن يطغى عليها وتفنى والأمر منوط بالظروف ، منذ الأزل وإلى الأبد . وإذا خرج الموضوع من تطور الدلالة إلى تغيّر اللفظ ومدلوله في آنٍ وآحد ليحل محله لفظ ومدلول جديدان ، فذلك مما يرصده (فقه اللغة) عن طريق المعاجم التاريخية التي نفتقدها ، وما نزال في انتظار وجودها .

الباب الرابع

الفصل الأول :

من أعلام التأليف اللغوي في القديم .

(شخصيّات وكتب)

الفصل الثاني :

نصـــوص مختارة في فقه اللغـــة .

الفصل الثالث :

فقه اللغـــة في الـكـتـــب المعاصرة .

الفصل الأول

مِنْ أَعْلَامِ التَّأْلِيفِ اللُّغَوِيِّ فِي الْقَدِيمِ

شَخْصِيَّاتٌ وَكُتُبٌ

١- ابن جنّي ، أبو الفتح ، عثمان .ت ٣٩٢هـ .

٢- ابن فارس ، أبو الحسين أحمد بن زكريّا .ت : ٣٩٥هـ .

٣- الثعالبي ، أبو منصور ، عبد الملك بن محمّد ت : ٤٢٩هـ .

٤- السُّيوطي ، أبو بكر ، جلال الدين ، عبد الرحمن الشافعي . ت : ٩١١هـ .

١- ابن جنّي وكتابه (الخصائص)

هو عثمان بن جنّي ، كان أبوه جنّي روميّاً يونانيّاً ، وكان مملوكاً لسليمان ابن فهد بن أحمد الأزدي ، ولهذا فهو ينتسب إلى الأزْد بالولاء . ولد في الموصل سنة ٣٢٢هـ ، ونشأ فيها وتعلّم . أخذ النّحو عن أحمد بن محمد الموصلي الشافعي المعروف بالأخفش .

ويذكر ابن خلّكان أنه قرأ الأدب في صباه على أبي عليٍّ الفارسيّ* ، ويرجّح أن يكون تلقّيه عن الفارسيّ في بغداد .

كان ابنُ جنّي رجلَ جِدٍّ وصدقٍ في قوله وفعله .

فلم يؤثر عنه ما أثر عن أمثاله من رجال الأدب في عصره من اللهو والشرب والمجون . وكان عفّ اللسان والقلم ، يتجنب الألفاظ الفاحشة البذيئة . وقد يكون مردّ ذلك إلى أنه اشتغل بالتعليم والتدريس . ولم يكن من همّه منادمة الملوك وإرضاؤهم كما عرف عن معاصره أبي الفرج الأصفهاني . ولقد بلغَ من تهذيبه أنه كان يغيّر في الشعر - إذا رواهُ - ما يستهجن ويستقبح ذكرُه .

أخذ عن كثيرٍ من رواة اللغة والأدب ، ومن هؤلاء أبو بكر محمد بن الحسن المعروف بابن مِقْسَم ، وهو من القرّاء ، وكان راويةَ ثعلب **، وروى عن أبي الفَرج الأصفهاني صاحب الأغاني المتوفى سنة ٣٥٦هـ . ويبدو أنه روى عن هذين الرجلين وقد التقاهما في بغداد .وروى عن محمد بن سلَمة عن أبي العبّاس المبرِّد*** .

---

* من أئمة النحاة ولد في بلاد فارس وعاش في بغداد أخذ عن ابن السّراج والزجّاج وأخذ عنه ابن جني . له كتاب (الإيضاح في النحو والتكملة) كان مقرباً لعضد الدولة البويهي . توفي ٣٧٧هـ .

** هو أبو العباس ثعلب تعلم على الفراء وابن الأعرابي . اشتهر بالحفظ وبرواية الشعر القديم . كان إمام الكوفيين في بغداد . له كتاب (الفصيح) وكتاب (قواعد الشعر) وكتاب (اختلاف النحويين) توفي ٢٩١هـ .

*** أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد . ولد بالبصرة وكان إمام نحاتها تجاه ثعلب الكوفي . لهُ كتاب (الكامل) في اللغة والأدب . توفي ٢٨٦هـ .

وأهم علاقاته المثمرة في حياته ، علاقته الوثيقة بأستاذه أبي علي الفارسي . وكان يظهر من التعلّق به والتقبّل لرأيه ما يظهر تلميذٌ لأستاذه ، وطالما ذكره في كتبه ومؤلفاته . بدأ تعارفهما عندما مرّ أبو علي الفارسي بالموصل وكان ابن جني وهو شاب يدرس العربية في جامع الموصل ، فاعترض عليه في مسألةٍ صرفيّة ونبهه إلى وجه الصواب فيها ، فما زال يتبعه منذ ذلك اليوم .

وقد يكون من دواعي الاتصال بين ابن جني والفارسي اشتراكهما في الانتساب إلى الفرس أو في معرفة اللغة الفارسية .

ويشبه ابنُ جني في نقله في كتبه علم أبي عليٍّ الفارسيّ سيبويهِ في نقلهِ عِلْمَ الخليل . وقد حدث غير مرّة أن رجع أبو علي إلى رأي تلميذه ابن جنّي في بعض مسائل اللغة . وكانت بينهما محاورات ومكاتبات حين يغيب أحدهما عن الآخر مسافراً إلى حلب أوغيرها من البلاد .

وفي حلب اجتمع ابن جنّي بالمتنبيّ شاعر سيف الدولة بن حمدان ، واجتمع به ثانيةً في شيراز عند عضد الدولة البويهي . وكان المتنبي إذا سئل عن شيء من دقائق النحو والصرف في شعره يقول : (سلوا صاحبنا أبا الفتح) يعني ابن جنّي . أو يقول : (عليكم بالشيخ الأعور ابن جني فسلوه) ويبدو أن ابن جني أعور العين حتى شهرَ بذاك . وكان ابن جني يُحْسن الثناء على المتنبي في كتبه ، ويستشهد بشعره في المعاني والأغراض ، ويعبّر عنه بشاعرنا .

يقول الثعالبي في (يتيمة الدهر) عن ابن جني (وكان نحويّاً حاذقاً مجوّداً) ، وقد بلغ من منزلته في عصره أن حلَّ محلّ أستاذه في التدريس في بغداد بعد وفاته . وهذا شرفٌ استأثر به أبو الفتح على أصحاب أبي عليٍّ الفارسي وهم كثيرون . وقد أقرّ ابنُ جني بالفضل لله وشكره على ما بلغهُ من منزلة العالم العَلَم المشار إليه ، وكان شكره لله شِعْراً :

شـكرتُ اللـهَ نعمتَـهُ ... ومـا أَوْلاهُ مـن أَرَبِ
زكـتْ عنـدي صنائعُـهُ ... فوفّقنـي وأحْسـنَ بـي
تخوّلنـي وخوّلنـي ... وتوّلنـي ونـوّه بـي
وأخّـرَ مـن يُقـادمني ... وأعلانـي وأرغـم بـي

ولم يبلغ ابن جني مرتبةً في الشعر ، كما بلغها في اللغة والنحو لقد فتح ابـن جنّي في العربيّة أبواباً لم يتسَنَّ فتحها لسواه ، ووضع أصولاً في الاشتقاق ومناسبة الألفاظ للمعاني ، وإهْمال ما أُهمل من الألفاظ ، وغير ذلك .. وقد استمّد منه لغويّون كُثُر من بعده ، وعلى رأسهم علي بن أحمد المكنى بابن سيده والمتوفى سـنة ٤٥٨ ، ومن المؤسف أن ابن سيده هذا أخذ عنه دونما إشارة . ففـي (المُحْكَم) نقلَ فَصْلاً في تفسير النحو أنشأه ابن جنّى في (الخصائص)* ولم يعزُهُ إلـى صاحبـه ، وجـاء ابن منظور المصري صاحب (لسان العرب) فغراه إلى ابن سيده من دون صاحبـه ابن جنّي ..

كان ابن جنّي واسع الرواية والدراية في اللغة ، ولم يخـلُ علمـه مـن بعـض الشَّطط كزعمه أنّ (المِسك) فِعلٌ من أمسكتُ الشيءَ ، كأنـه لطيـب رائحتـه يمسـك الحاسّة عليه ، ولا يعدلُ بها صاحبُها عنه . والمِسْك اسم معرّب ذكـره الجواليقيّ** في كتابه (المعرّب) .

تكلمت كتب التراجم على شعوبية ابن جنّي وعلـى تشيّعه ولكنهـا لـم تخـرج بطائلٍ من ذاك ، فلم يكن الرجل شعوبياً ولا متشـيّعاً ولكنـه كـان ميّـالاً إلـى المذهـب الحنفي .

---

* انظر المحكم لابن سيده ج٢ص ٣٢٦ ، و (الخصائص) لابن جني ج١ ص٣٤ ، مطبعة الهلال ١٩١٣م .

** هو أبو منصور ، موهوب الجواليقي ، لغوي ونحوي بغدادي أشهر آثاره (المعرّب مـن الكـلام الأعجمـي) و (شرح أدب الكاتب) توفي ٥٣٩هـ .

وكان كثير النظر في كتب الفقه وأصوله ، وقد احتذى في مباحث النحو كثيراً من هذه الكتب والأصول ، وهو لا يعدّ في المعتزلة وإن جاراهم في بعض منطقهم .

أمّا عن مذهبه النحوي فقد كانت المذاهب النحوية لعهد ابن جني ثلاثة : البصريّ والكوفيّ ، ومذهباً خلطَ بين المذهبين وتخيّرَ منهما وهو مذهب البغداديين . وكان ابن جنّي – كشيخه أبي عليّ – بصريّاً . على أنه قد كان منهوماً بالعلم ، يأخذه عن أهله ، بصريّاً كانَ أو غيره ، فهو لم يحجم عن الأخذ عن ثعلب والكسائي وأضرابهما من الكوفيين .

كان شاعراً ، وخطّاطاً حسن الخط ، يكتب الكتب بخطّه نقل عنه وتأثر به ابنُ البوّاب* نفسه .

اتصل ابن جني منذ سنة ٣٤١هـ بسيف الدولة بن حمدان في حلب ، واجتمع في حضرته بالمتنبي ، وقد كانت حضرة سيف الدولة مجمعاً للشعراء والأدباء حتى وفاته ٣٥٦هـ وكان ابن جني مقرّباً من آل بويه ببغداد وشيراز بحكم تقريبهم لأستاذه أبي علي النحوي الشهير بأبي عليٍّ الفارسي.

توفي أبو الفتح عثمان بن جنّي ببغداد حيث استقرّ في آخر أيّامه ، وكانت وفاته يوم الخميس السابع والعشرين من صَفَر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة للهجرة** . وتولّى الصلاة عليه الشريف الرضي وكانت بينه وبين ابن جنّي صداقة وكيدة . رحمه الله تعالى*** .

---

* هو علي بن هلال ، أبو الحسن ، أبدع في الخطّ بعد ابن مقلة وهو مخترع الخط الريحاني . توفي سنة ٤٢٣هـ . راجع كتابنا (الخط والإملاء) إصدار دار القلم العربي بحلب ص.٢٠ .

** يوافقَ ١٥ كانون الثاني (يناير) سنة ١٠٠٢م .

*** كل ما ذكرناه في ترجمة ابن جني مختصر عن ترجمته الوافية في مقدمة كتاب (الخصائص) بتحقيق محمد علي النّجار . مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٧١هـ – ١٩٥٢م . الطبعة الثانية .

تعدّ كتب ابن جنّي ومؤلفاته في اللغة والنحو والتصريف والعروض وشروح الدواوين ومنها ديوان المتنبي ، حوالي خمسين كتاباً نقف منها على كتاب (الخصائص) لأنه الألصق بفقه اللغة .

الخصائص : قدم ابن جني كتابه (الخصائص) إلى بهاء الدولة الذي تولّى المُلْك في بغداد ٣٧٩ – ٤٠٣هـ ، وكان النفوذ البويهي قائماً مع وجود الخليفة العبّاسي .

وقد ألّف هذا الكتاب بعد وفاة أستاذه أبي عليٍّ الفارسي عام ٣٧٧هـ . وسبق كتابه الآخر (سرّ صناعة الإعراب) .

وقد توفرت لدينا أولى طبعات الكتاب في جزئه الأول فقط . وجاء بلا مقدّمةٍ من الناشر وبلا ذكرٍ للمحقّق سوى ما جاء على صفحة الغلاف من ذكر مطبعة الهلال بالفجّالة بمصر عام ١٣٣١هـ الموافق لعام ١٩١٣م .. وبعد هذه الطبعة قام الأستاذ محمد علي النّجار بتحقيقه في ثلاثة أجزاء عام ١٣٧٢هـ و ١٩٥٢م* ، وهذي هي الطبعة التي اعتمدنا عليها في معظم الأحيان عند توثيق المعلومات على صفحات كتابنا (الوجيز في فقه اللغة) .

وقد جاء في كتاب عيون المؤلفات لعبد الوهّاب الصابوني ، بتحقيق محمود فاخوري ما يعرّف بالكتاب ، نسوقه بشيءٍ من الاختصار والتصرّف :

(أمّا الكتاب فيبحث في أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه . وهو بحثٌ فلسفي في اللغة وأصولها واشتقاقها وأحكامها ومصادرها ، وما يجوز القياس فيه . من أبحاثه : (باب القول على أصل اللغة إلهامٌ هي أم اصطلاح) .. (باب الحرفين المتقاربين يستعمل أحدهما مكان صاحبه) ، (باب الاشتقاق الأكبر) (باب في زيادة الحروف وحذفها).(باب في أن المجاز إذا كثر لحق بالحقيقة) .. (باب في قوة اللفظ لقوّة المعنى) ، (باب في أغلاط العرب) ، (باب في سقطات العلماء ..) .

---

* صدرت أجزاؤه تباعاً : الأول ١٩٥٢م ، الثاني ١٩٥٥م ، الثالث ١٩٥٦م .

ويدخل في هذه الأبواب من أبحاث الصرف والنحو واللغة والنقد الشيء الطريف العميق السديد ..) ولعل أهم ما نخلصُ إليه ونضيفه إلى التعريف السابق بكتاب الخصائص كونه من المراجع الأساسية القديمة في فقه اللغة بل هو أوّلُها وأهمّها على الإطلاق . ولم يستغن عنه أيُّ مرجع حديث في (علم اللغة*) أو في (فقه اللغة**) . وقد اعتمدت عليه بعض الكتب المختصة بفقه اللغة أي اعتماد كما فعل الدكتور عبده الراجحي في كتابه (فقه اللغة في الكتب العربية) وقد بلغ مَسْرَدُ الصفحات التي جاء فيها ذكر (الخصائص) حوالي ثمانين مرة هذا ، فضلاً عن الملحق الطويل الذي ألحقه بكتابه لابن جني ، وقد جاء من ص (١٨٥) حتى الصفحة الأخيرة (٣١٠) ، وكان أطول مسردٍ بين مسارد الأعلام الواردة في الكتاب *** .

٢- ابن فارس وكتابُه (الصاحبيّ)

هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي ، ولد في قزوين أوائل القرن الخامس الهجري ، ونشأ فيها ، تلقى بعض علمه في بغداد ثم أقام بهمذان ، ثمّ انتقل إلى الريّ وأمضى بها بقية عمره ، وإليها جاءت نسبتُهُ (الرازي) .

ومما يلفت النظر أن ابن فارس قد عاش معظم حياته في بلاد فارس ، وعرف عنه الميل إلى التشيّع ، وأنه كان من أنصار المدرسة الكوفية في اللغة ، إذ كان من أساتذته : أبو بكر أحمد بن الحسين الخطيب ، وكان هذا راويةً لثعلب إمام

---

* انظر صفحة المراجع في كتاب (علم اللغة) للدكتور محمود السعران ص ٤١٧ .

** انظر صفحة المراجع في كتاب (دراسات في فقه اللغة) للدكتور صبحي الصالح ص ٣٦٨ ، وكتاب الأستاذ محمد الأنطاكي ص ٣٨٢ .

*** انظر فهرس الأعلام في كتاب الراجحي ص ٣٢٠ .

مدرسة الكوفة في آخر حياتها ، وقد ذكر ابنُ فارس شيخه ثعلباً في أكثر من موضع في كتابه (الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها) وهو الكتاب الذي سنقف عنده لعلاقته بفقه اللغة قولاً أو فعلاً .

في همذان تتلمذ على يديه بديع الزمان الهمذاني وتعّرف على ابن العميد الوزير الأديب وحظي لديه بمنزلةٍ ساميةٍ ، وعقب وفاة ابن العميد سعى للتقرب من الوزير الصاحب إسماعيل ابن عبّاد فردّهُ لما كان بينه وبين ابن العميد من بغضاء ، لكنه ما لبث أن قرّبه إليه ، وقدّمه إلى السُلطان فخر الدولة البويهي فعهد إليه بتأديب ابنه ، فانتقل للعيش في مدينة الريّ وأملى فيها كتبه . وما زال حتى وافته المنية سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٤م وقد أوفى على التسعين .

لزم الحضرة الصاحبيّة في مدينة الريّ . وأملى فيها كتابَه وجعلهُ منسوباً إليه (الصاحبيّ) . ويبدو أن هذا الكتاب كان من أواخر ما كتبَ في حياته ، وأنه لم يقدّمّه إلى الصاحب يداً بيد ، وإنما أودعه خزانةَ كتبه ، أو أنه ألّفه على مرحلتين أهدى ابن عبّاد نتاجَ المرحلة الأولى ، ثمَّ تابعَ التأليف في المرحلة الثانية ليخرج به كاملاً عام ٣٨٢هـ بُعيد وفاة الصاحب وكانت عام ٣٨٠هـ .

وفي تعليل تسمية ابن فارس لكتابه (بالصاحبي في فقه اللغة ..) وذكرِهِ لكلمة (فقه) تذكرُ بعضُ المراجع عن ابن فارس أنه كان فقيهاً ، قدّم أكثرَ من كتابٍ في الفقه* .. وذكرَ كتابُ الأعلام بعض تصانيفه** ، وأربى عليه في ذلك محقّق (الصاحبي) الدكتور مصطفى الشّويمي*** فبلغ بها أربعةً وأربعين كتاباً نذكر منها :

---

* انظر (فقه اللغة في الكتب العربية) للدكتور عبده الراجحي . ص ٤٢ . وانظر مقدمة (الصاحبي) بتحقيق الشّويمي ص ١٠ .

** (الأعلام) لخير الدين الزركلي ، المجلّد الأول ص ١٩٣ .

*** انظر مقدمة (الصاحبي) في طبعة بيروت ١٩٦٤ ص ١١ .

(مقاييس اللغة) ، (جامع التأويل) في تفسير القرآن (النيروز) في نوادر المخطوطات ، (الإتباع والمزاوجة) (الحماسة المحدثة) ، (الفصيح وتمام الفصيح) ، (متخيَّر الألفاظ) (ذمّ الخطأ في الشعر) ، (أوجز السِّيَر لخير البَشَر) (الثلاثة) في الكلمات الثلاثية المتماثلة الأحرف ، (المجمل) .. ولاشكّ ، إنَّ هذه التآليف تنمّ عن ثقافة جامعة للنحو واللّغة والفقه والسِّيرة وتفسير معاني القرآن ، وهي العلوم التي ترفع من شأن صاحبها ، وقد جمع إليها ما جادت به ملكة الشِّعر ، والأدب .

على أن ابن فارس حاز شهرته كنحويٍّ لغوي وذلك بفضل مؤلفاته في هاتين المادّتين ؛ كالصاحبيّ والمُجْمَل والمقاييس ..

والعجيب أننا نرى أستاذاً كابن فارس نشأ وعاش في بيئةٍ بعيدةٍ عن منبع العروبة .. بمجّدُ اللسان العربيَّ المبين ، والشعر العربي ، وكلَّ ما يَمُتُّ إلى العرب بصلةٍ . وقد كان مُحافظاً إلى أقصى درجة ، وقد تجلى ذلك في آرائه عن أصل اللغة العربية ، فقد كان يرى أنّها توقيفيّة كلها ، وكان ينادي بإعجاز القرآن ، ويجاهر بعداوته للثقافة اليونانية ، ولا سيّما الفلسفة ، ولا يرى شعراً يضاهي شعر العرب ولا لغةً تداني لغتهم* .

الصاحبيّ :

عنوان الكتاب الكامل : (الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامِها) وقد اختصر اسم الكتاب بكامة (الصاحبيّ) وحدها في معظم الهوامش أو المراجع اللغوية .

ألّفه ابن فارس بمدينة الريّ من بلاد فارس ، وانتهى من تأليفه نحو ٣٨٢هـ . وهناك قولان ؛ بين أن يكون قد أهداه إلى الوزير الصاحب بن عبّاد وزير

---

* انظر مقدمة (الصاحبي في فقه اللغة ..) بتحقيق الدكتور : مصطفى الشويمي ، ص ٩ .

بهاء الدولة السلجوقي ، وبين أن يكون قد أودعَهُ في خزانة كتبه بعد وفاته التي كانت عام ٣٨٠هـ . وقد حاولنا في أثناء الترجمة للمؤلّف التوفيق بين الرأيين بأنه قد ألفه على مرحلتين (راجع الترجمة) .

يتألّف الكتاب من جزءٍ واحد . اطّلعنا على إحدى طبعاته في مكتبة الصابوني ، بجوار مكتبة كلية الآداب بجامعة حلب . أما طَبعاتُه فثلاث :

١- الطبعة الأولى ، طبعة المكتبة السلفية بالقاهرة عام ١٣٢٨هـ/١٩١٠م .

٢- الطبعة الثانية طبعة بيروت بتحقيق وتقديم الدكتور مصطفى الشُّويمي . عام ١٩٦٤م . وهي التي اطّلعنا عليها .

٣- الطبعة الثالثة - ذكرها الأستاذ محمود فاخوري ، في حاشية تحقيقه لكتاب (عيون المؤلّفات) للأستاذ عبد الوهاب الصابوني ج٢ ص ٤٨ وهي طبعة القاهرة بتحقيق السيد أحمد صقر صدرت عام ١٩٧٧م .

وجاء في كتاب عيون المؤلفات للصابوني هذا التعريف للصاحبيّ : (أما الكتاب فبعضه في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، وبعضه الآخر في مسائل عرضية ، كانت مما يشغلُ الناسَ إذْ ذاك : من هذا كلامُهُ على الخطّ العربيّ وأول من كتب به ، وهو ينقل - في سذاجة - : أن أوّلَ من كتب الكتابَ العربيّ والسريانيّ والكتب كلّها ، آدم قبل موته بثلاثمائة سنة !

من أبحاثه :(باب القول في اللغة التي نزل بها القرآن - وأنه ليس في كتاب الله شيء بغير لغة العرب) ، (باب القول على أن لغة العرب لم تتنه إلينا بكليتها) ، (باب الحروف وزيادتها وأحوالها) .. وفي هذا الباب جاء المؤلف بجميع حروف الهجاء ، ثم تحدّث عن حروف المعاني (أو ، إذا ، ثمّ ، حتّى ، لو ، لعلّ ، نَعَم ، نعْم ..) وهلمّ جَرّا .. جاء بها موجزةً مرتبة على حروف المعجم ، ويلي ذلك أبواب تشبه أبواب (سرّ العربية) للثعالبي .

في أول الكتاب ترجمة للمؤلف (ابن فارس) في ١٦ صفحةً ، تدور حول المؤلف وكتابه ومؤلفاته ، وفي آخره ٩ فهارس .) .

وفي كتاب (فقه اللغة في الكتب العربية) للدكتور عبده الراجحي ، تردد ذكر ابن فارس والصاحبيّ حوالي أربعين مرّة ، ويأتي في أهميته بعد أهميته كتاب (الخصائص) لابن جنّي . كما أنّه كتاب له منزلته في جميع المراجع الحديثة في فقه اللغة وعلم اللغة* من زوايا أهمّها :

١- أنه الكتاب الأسبق في حمل عنوان فقه اللغة .

٢- أنه عرض للقضايا اللغوية العامّة كالحديث عن اللغة ونشأتها .

٣- أنه قال باللغة المكتسبة عن طريق التلقين .

٤- أنه ادّعى الفصاحة والبيان للعربيّة وحدها .

٥- أنه لم يفته اختلاف اللهجات وتأثرها ببعضها .

٦- أنه جمع بين الصرف والنحو وتأثيرهما في الجمل ودلالاتها .

٧- أنه ذو منهجٍ وصفي تقريري دون تعليلٍ للظواهر اللغويّة ..

وسنختار لا حقاً من هذا الكتاب ما يقرّرُ بعض هذه السّمات والخصائص

٣- الثعالبي وكتابُه فقه اللغة

هو أبو منصور ، عبد الملك بن محمّد الملقب بالثعالبي نسبةً إلى خياطة جلود الثعالب التي كان يحترفُها ، فلقد كان فرّاءً . ولد بنيسابور حوالي سنة ٣٥٠هـ ، وأخذ عن أساتذةٍ جمعوا فصاحة العرب البلغاء إلى إتقان العلماء ، ووعورة اللغة إلى سهولة البلاغة ، ذكر منهم** : الصاحب أبا القاسم ، وحمزة بن الحسن الأصبهاني وأبا الفتح المراغي ، وأبا بكر الخُوارزمي ، والقاضي أبا الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني ، وأبا الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني .

---

* انظر فهرس (علم اللغة) للدكتور محمود سعران ص ٤١٨ .

** انظر مقدّمة الثعالبي لكتابه (فقه اللغة) ص ٢٢ .

اتصل بالأمير عبيد الله بن أحمد بن عليّ أبي الفضل الميكالي ولازم مجلسه ومدحه مستفيضاً . وكان ذلك في بلدة فيروز اباد . وأوعز إليه الأمير بتأليف كتابٍ في أسرار اللغة وجوامعها ولطائفها وفصائحها مما لم يُنتبه لجمع شمله ، ووجده أهلاً لذاك دون سواه قائلاً له : (إنّك إنْ أخذت فيه أجدْتَ وأحسنتَ ، وليس له إلاّ أنت *) فاستأذنه في الخروج إلى ضيعةٍ له نائية ليجمع بين الخلوة والتأليف ، فأذن له ، وأمر بتزويده من ثمار خزائن كتبه . وفي خلوته انتقى وانتخب ، وفصّل وبوّب مما أمدّه به علمُ الأئمة أمثال : الخليل والأصمعي ، وأبي عمرو الشيباني ، والكسائي ، والفرّاء ، وأبي زيد ، وأبي عُبيدة ، وأبي عُبيد ، وابن الأعرابيّ ، والنّضر بن شُميل ، وأبوي العّباس ثعلب والمبرّد ، وابن دُريْد ، ونفطويه ، وابن خالويه ، والأزهري ، وسواهم .

وقد صنّف الثعالبي لخزانة الوزير أبي الفضل الميكالي كتاب (ثمار القلوب في المُضاف والمنسوب) ، وأوردَ له في كتابه (يتيمة الدهر) مختاراتٍ استحسنها من نثره ونظمه .

اشتغل الثعالبي بالأدب والتاريخ فضلاً عن اهتمامه باللغة والأدب ، وصنف كتباً كثيرةً ممتعةً . وقد أحصى له كتاب الأعلام للزركلي** نيّفاً وثلاثين كتاباً طُبع أكثرُها .

وإليك طائفةً مما ذُكر منها ، ومما طبع خاصةً : (يتيمة الدهر) أربعة أجزاء في تراجم شعراء عصره ، (فقه اللغة وسر العربية) ، (ثمارُ القلوب في المضاف والمنسوب) (سحر البلاغة) ، (غُرر أخبار ملوك الفُرس) ، (لطائف المعارف) ، (الإعجاز والإيجاز) ، (نثر النظم وحل العقد) ، (سرّ الأدب) ، (الكناية والتعريض) (مرآة المرُوءات) الخ ..

---

* انظر مقدمة الثعالبي لكتابه (فقه اللغة) ص ١٦ .

** انظر (الأعلام) المجلد الرابع ص ١٦٣ - ١٦٤ .

عانى أبو منصور الثعالبي المفقرة والأحزان في قريته النائية عن فيروز اباد وقد حجزه عن الأمير حاجزٌ ممّن طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد ، ودعاهم (القُفص*) إلى أن تمكن من النفاذ إلى أميره المتفضّل عليه في الأحوال جميعها فقدّمَ إليهِ كتابه (فقه اللغة) راجياً أن يُعيره نظر التهذيب والإصلاح بكل تواضعٍ منه .. متمثلاً بقول القائل :

لا تُنكِرَنْ إهداءَنا لك منطقاً ... منك استفدنا حُسْنَهُ ونظامَهُ

فالله - عزّ وَجَلّ - يشكرُ فِعْل مَنْ ... يتْلو عليهِ وحيَهُ وكلامَهُ

توفي الثعالبيّ عام ٤٢٩هـ .

فقه اللغة وسرُّ العربيّة :

هما كتابان في مجلّد واحدٍ أو كتابان بين دفّتي كتاب . أمّا الكتاب الأول وهو (فقه اللغة) فيعدّ من معاجم المعاني ، جُمعتْ فيه المعاني المتقاربة أو المترابطة في باب واحد حتى بلغ بها المؤلّف أبو منصور الثعالبي ثلاثين باباً ، اشتمل كلُّ بابٍ منها على عددٍ من الفصول . وفي النسخة المتوفرة لدينا مع تأليف هذا الكتاب وقع الكتابان (فقه اللغة) ، و (سرّ العربية) في ستمائةٍ وثمان وعشرين صفحة من القطع الصغير صدرت عن مطبعة الاستقامة بالقاهرة عام ١٣٧١هـ/١٩٥٢م . وفيما يلي نأتي بمختصر عمّا أورده كتاب (عيون المؤلّفات**) للأستاذ عبد الوهاب الصابوني ، وكانت قد توفرت لديه نسخةٌ مطبوعة في مصر سنة ١٩٣٨م وهو

---

* انظر مقدمة الثعالبي لكتابه (فقه اللغة ..) ص ٢٢ .

** (عيون المؤلفات) للصابوني بتحقيق محمد فاخوري ج٢ ص ٤٩ .

الكتاب الذي حققه ووضع فهارسه (مصطفى السقا) و (إبراهيم الأبياري)و (عبد الحميد شلبي) .

قال الأستاذ عبد الوهاب الصابوني في (فقه اللغة) :

(ذكر – في المقدمة – أسماء اللغويين والرواة والنحاة الذين عوّل عليهم . فليس كتابه – في جملته – من صنعه ، فقد نقل فصولاً برمّتها عن أمثال : (ابن دُريد) و (الخوارزمي) و (الجرجاني) ، و (ابن الأعرابيّ) ولكن ؛ له فضل الترتيب والتبويب . ويزيد هذا الفضل إذا لا حظنا أن المصادر التي استقى منها لم يبق لها من أثرٍ إلاّ في كتابه . وفي الكتاب فصول مهمّة فيما يجري مجرى الموازنة بين العربيّة والفارسية والروميّة .

يمتاز هذا الكتاب بحسن ترتيبه ، فهو مقسومٌ إلى ثلاثين بابا كبيراً : كلٌّ منها يتناول معنى المعاني الأصليّة ؛ وكلُّ بابٍ مقسوم إلى فصولٍ صغيرة ، يجمع كلٌّ منها الألفاظ المستعملة في التعبير عن فرعٍ من فروع المعنى الأصلي الذي عقد عليه الباب كلُّه ...

وهذا الترتيب يسهّل الرجوعَ إلى الكتاب والإفادة منه . والمؤلف – في كل أولئك – ببذل جُهده في تحديد مدلولات هذه الألفاظ ، وبيان ما بينها من فروق . ولكن يلاحظ على الكتاب أنه مختصر في موضوعه ، وأنه خالٍ من الشواهد .

وقد أُلحق بالكتاب كتابٌ آخرَ للمؤلّف اسمُهُ (سرُّ العربيّة) ، جعله القسم الثاني لكتابه :(فقه اللغة) . وموضوعه : أسرار استعمال المعاني والكلمات ..) ..

انتهى ما أخذناهُ عن (الصابوني) ولنا نظرة في الكتاب بقسميه الأول والثاني ، أي فقه اللغة وسرّ العربية .. وهذه النظرة تضع في اعتبارها علاقة الكتاب بفقه اللغة الموضوعي بوجدٍ عام ، وصلاحيته كمرجعٍ من مراجع فقه اللغة .

إنّ كتاب (فقه اللغة وسرّ العربية) يُعَدُّ من المتون اللغوية الهامّة في عداد معاجم المعاني وألفاظها ، لكن علاقته بفقه اللغة بمفهومه المعاصر علاقة محدودة جدّاً أو شبه معدومة . أمّا عن عنوان الكتاب الأول (فقه اللغة) فقد جاء بمدلول

الفقه بوجهٍ عام وهو أوسع العِلْم . فالفقيه عندهم إذا لم يكن متخصصاً بالعلوم الدينية والشرائع ، فهو الرجل الواسع العِلم على وجه التعميم . على أنّ المؤلف قد تعرّض أحياناً لموضوعاتٍ تدخل في إطار علم اللغة أو فقه اللغة الذي نحن بصدده كاختصاص عصريّ . وجاء ذلك عن طريق المصادفة عندما عقد في الباب التاسع والعشرين مقارنة بين ألفاظ عربيةٍ وفارسية ورومية في سياقٍ يشبه موضوع الاحتكاك بين اللغات الإنسانية وتأثر بعضها ببعض . ولعلّ في القسم الثاني من الكتاب (سرّ العربية) شيئاً من التعرّض لبعض (الخصائص) أو (القوانين) التي تتميّز بها العربية في استعمالاتها المختلفة . وهو لم يعرضْ للقضايا اللغوية العامّة ، كالحديث عن اللغة ونشأتها كما فعل كلٌّ من ابن جنّي وابن فارس ، وإن كان قد عرض لماماً إلى ما يمكن تسميته بالتطور اللغوي* ، مخلصاً لمبدئه أو لمفهومه عن فقه اللغة الذي قصرهُ على دراسة الألفاظ واستعراضها مبوبّةً بأبوابٍ من المعاني والأغراض .

٤- جلالُ الدِّين السُّيوطي وكتابُه (المُزهِر)

هو جلالُ الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال سابق الدين الخضيري السُّيوطي . وُلِدَ بأسيوط من مدن صعيد مصر سنة ٨٤٩هـ . ونشأ يتيماً إذْ توفِّيَ والدُه وهو في السادسة من عمره ، وحفظ القرآن الكريم وهو دون ثماني سنين . كان من أجداده هُمامُ الدين صوفيّاً من أهلِ الحقيقة ومن مشايخ الطرق ، وكان أبوه قاضياً في مدينة أسيوط ، وتابع ذلك لمّا انتقل إلى القاهرة ، وأضحى خطيباً بجامع ابن طولون .

---

* انظر (فقه اللغة في الكتب العربية) للدكتور عبده الراجحي ص ٥١ .

كثرَ شيوخه الذين تلقى عنهم العلم . كما كثرت جوانب اطّلاعه وثقافته وتأليفه ، لكنه كره الحسابَ والمنطق وقال عن نفسه : (ورزقتُ التبحّر في سبعة علوم : التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبديع ، على طريقة البلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة . ودون هذه السبعة أصول الفقه والجَدل والتصريف ، ودونها الإنشاء والترسّل والفرائض ، ودونها القراءات ، ولم آخذها عن شيخ ، ودونها الطبّ ..)

آثر العزلة للتفرّغ للتأليف والكتابة وفضّلها على معاشرة الملوك والحكام ، ورفض قبول أعطياتهم وهداياهم . وكانت حياته في عهد الخلفاء العباسيين في مصر ، في ظلّ هيمنة المماليك الجراكسة .

بلغتْ تصانيفه حوالي ألف مصنّف* أثرى بها المكتبة العربية الإسلامية في سائر العلوم ، وذلك بين رسالةٍ صغيرة الحجم وكتابٍ ضخم ، في عدّة مجلّدات .. وقد عدّد مؤلفاته حين ترجم لنفسه في كتاب (حسنُ المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة) ، ونرجع إلى كتاب الأعلام لخير الدين الزركلي لنختار عشرةً من أشهر الأسماء لهذه المؤلّفات ونخصُّ ما طبع منها :

١- الإتقان في علوم القرآن ، في علوم مختلفة .

٢- الأشباه والنظائر في العربيّة ، صرف لغويات

٣- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تراجم .

٤- تفسير الجلالين بالاشتراك مع جلال الدين محمّد بن أحمد المحلي .

٥- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، تراجم .

٦- المُزهِر في علوم اللغة العربية وأنواعها . فقه لغة

٧- هَمْع الهوامع في النحو .

---

* جعلها الزركلي (في الأعلام) ستمائة مصنّف . انظر (الأعلام) الجزء الثالث ص ٣٠١ .

٨- اللآلئ المصنوعة في الاحاديث الموضوعه .

٩- الجامع الصغير في الحديث النبوي أمّا الجامع الكبير فمخطوط .

١٠- تاريخ الخُلفاء* .

كان السُّيوطي سريع الخاطر في الكتابة ، غزير المادّة ، سيّال القلم ، بلغ عدد مؤلفاته اللغوية نيّفاً وثلاثين ، ومنها (المزهر) الذي اخترناه كأحد نماذج المؤلّفات القديمة في فقه اللغة العربيّة . زعموا أنّ السُّيوطي في كتاب (المُزهر) وغيرهِ كان جمّاعاً وناقلاً للمادّة التي جاء بها الكتاب ، وحسبُه أنّه قد حفظ لنا ما أوشكَ أن يُضيِّعهُ الزّمن .

توفي جلال السُّيوطي عام ٩١١هـ/١٥٠٥م . رحمه الله تعالى .

(المُزْهر في عُلومِ اللغة وأنواعِها) :

صدر السيوطي في تأليف كتابه (المُزهر) عن اعتقادِه الراسخ بأن علم اللغة من الدِّين ، وبأنه من فروض الكفايات وبه تُعرف معاني ألفاظ القرآن والسنّة .. وقد قوّم المشتغلون بفقه اللغة في عصرنا الحاضر كتاب السيوطي ((المزهر في علوم اللغة وأنواعها)) بأنه ليس إلاّ جَمْعاً لما قاله المتقدمون ،ولكنه لا يمثل منهجاً واحداً،ينتسب الى مؤلفٍ واحد كما في كتاب (الخصائص)لابن جني ** مثلاً .

ورغم ذلك ، بقي كتاب (المزهر)مرجعاً لايستغنى عنه في مبحث فقه اللغة لما جمع من أراء اللغويين ممن سبقوا عصره من جهةٍ ،و لما أبدى صاحبه من أراء من جهةٍ ثانية ومثال ذلك تأكيده على ثبوت المناسبة الطبيعية بين الألفاظ والمعاني

---

* أخذنا عن مقدّمته بعضاً من ترجمة السّيوطي . انظر (تاريخ الخلفاء) تقديم الأستاذ عبد الله مسعود . نشر دار القلم العربي بحلب عام ١٩٩١م .

** انظر(فقه اللغة في الكتب العربية) للدكتور عبده الراجحي ص ٤١-٤٢ .

أي على الدلالة المستوحاة من اللفظ الذي هو صوتٌ من الأصوات وقد قدر لهُ هذا الرأي مؤلفو كتب فقه اللغة في عصرنا ومنهم الدكتور صبحي الصالح* ورأى به الأستاذ عبد الوهاب الصابوني في كتاب (عيون المؤلفات)رأياً حسناً ،فشهد بحق كتابه (المزهر) قائلاً : (هو أهم كتب " السيوطي " اللغوية . وهو فريد في بابه ،يبحث في ألفاظ اللغة وأصلها ،و صحيحها ومتوانرها ، والمرسل و المنقطع وطرق الأخذ ،و معرفة الفصيح و المصنوع ، والضعيف والمنكر ، والرديء والمذموم ، والمطّرد والشاذ ، والغريب،والنادر ، والمستعمل والمهمل ، والمعرب ، والمولد ، والألفاظ الإسلامية ، وخصائص اللغة واشتقاقها ، والحقيقة والمجاز ، والمشترك ،والأضداد ، والمترادفات ، وفيه فائدة عظمى للباحث ... وهو كتابٌ عظيم الشأن للباحث اللغوي ،أوللناظر في فلسفة اللغة**)) .

ويبدو أن الكتاب الجليل الشأن قد طبع عدة طبعات ،بين يديّ أقدمُها في جزأين بين دفتي مجلّد واحد صدر عن مطبعة محمد عاي صبيح بميدان الأزهر بمصر بلا تاريخ ،بينما اعتمد"الصابوني"في نظرته وتقويمه للكتاب على طبعة أخرى بشرح وضبط وتصحيح وتعليق كل من الأساتذة :(محمد أحمد جاد المولى)و(محمد أبو الفضل إبراهيم)و(علي محمد البجاوي)وهي طبعة بلاتاريخ أيضاً ونُميَتِ الطبعة الثالثة إلى دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة

ومن المفيد أن نذكر أن الباحث الدكتور عبده الراجحي قد نظر من كتب السيوطي علاوة على " المزهر " كتابين أخرين هما :

" بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة " طبع في القاهرة عام ١٣٢٦هـ .

" الاقتراح في علم أصول النحو " طبع حيدر أباد بالهند عام١٣١٠هـ .

سمّى المؤلف " السيوطي " مباحث اللغة العربية و فقهها " أنواعاً " وجعل في كتابه " المزهر " خمسين نوعاً ضم الجزء الأول تسعة وثلاثين نوعاً،وضم الجزء الثاني أحد عشر نوعاً .

---

* دراسات في فقه اللغة ص ١٥١

** عيون المؤلفات ج٢ص٥٦

الفصل الثاني
نُصُوصٌ مُخْتَارَةٌ فِي فِقْهِ اللُّغَةِ

أولا–من المخصص لابن جني :مقطعات من :

أ – باب القول على أصل اللغة أإلهام هي أم اصطلاح*

" هذا موضع مُحوج إلى فضل تأمل ،غيرأن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنماهو تواضع واصطلاح ، لاوحيٌ وتوقيف إلاأنَّ أبا علي ** – رحمه الله – قال لي يوماً : هي من عند الله ، واحتجّ بقوله – سبحانه – : " وعلم آدم الأسماء كلها " البقرة (٣١) .

وهذا لا يتناول موضع الخلاف . وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويلُه : أقْدَرَ آدمَ على أن واضعَ عليها .

وذهبَ بعضُهُم إلى أنَّ أصل اللغات كلّها إنّما هو من الأصوات المسموعة ، كدويِّ الريح ، وحنين الرَّعْد ، وخريرِ الماء ، وشحيج الحمار ، ونعيق الغُراب ، وصهيل الفَرَس ، ونزيب*** الظبي ، ونحو ذلك . ثمَّ ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندي وجهٌ صالحٌ ومذهبٌ مُتقبَّل .

واعلم فيما بعد ، أنني على تقادم الوقت ، دائم التنقير**** والبحث عن هذا الموضع ، فأجدُ الدَّواعي والخوالج قويّة التجاذب لي ، مختلفة جهات

---

* المخصص"لابن جني ص ٤٠ومابعدها .

** الفارسي من شيوخ النحو،أخذ عنه ابن جني وله كتاب (الإيضاح)توفي ٣٧٧هـ .

*** النزيب : صوت ذكر الظباء عند السّفاد .

**** التنقير : البحث الدقيق .

التغوّل* على فكري . وذلك أنني إذا تأمّلتُ حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة ، وجدتُ فيها من الحكمة والدقّة ، والإرهاف ، والرقّة ، ما يملك عليّ جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به أمامَ غَلْوة** السحر ؛ فمِن ذلك ما نبّه عليه أصحابنا رحمهم الله تعالى ، ومنهُ ما حَذَوْتُهُ على أمثلتهم ، فعرفتُ بتتابعه وانقياده ، وبُعد مراميه وآماده ، صحّةَ ما وفّقوا لتقديمه منه ، ولَطْفَ ما أُسْعدوا به ، وفُرِقَ لهم عنهُ . وانضاف إلى ذلك واردُ الأخبار المأثورة بأنها من عند الله – جلَّ وعزّ –

فقويَ في نفسي اعتقادُ كونها توقيفاً من الله – سبحانه – وأنّها وحيٌ .

ثم أقول في ضدِّ هذا : كما وقعَ لأصْحابِنا ولَنا ، وتنبّهوا وتنبَّهْنا على تأمّل هذه الحكمة الرائعة الباهرة ، كذلك لا ننكرُ أن يكونَ الله تعالى قد خلق منْ قبلنا – وإنْ بَعُدَ مداهُ عنّا – مَنْ كان ألطفَ مِنّا أذهاناً ، وأسرعَ خَواطرَ وأجرأَ جَناناً .

فأقفُ بين تيْنِ الخلَّتيْنِ حسيراً*** ، وأكاثرُهما فأنكفيءُ مكثوراً**** .

وإنْ خطر خاطرٌ فيما بعد ، يعلّق الكفَّ بإحدى الجهتين ، ويكفّها عن صاحبتها ، قلنا به ، وبالله التوفيق)

ب– باب في تصاقب*** الألفاظ لتصاقُب المعاني :**

هذا غَوْرٌ من العربيّة ، لا ينتصف منه ، ولا يكادُ يُحاط به . وأكثر كلام العَرَبِ عليه ، وإنْ كان غُفلاً مَسْهُوّاً عنه . وهو أضرُب :

... (منها) أن تتقارب الحروف لتقارب المعاني وهذا باب واسع ؛ من ذلك قولُه سبحانه :

---

* التغوّل : الاشتباه والغموض .

** غَلْوة الشيء : شدّته وذروته .

*** حَسيراً : كَليلاً .

**** مكثوراً : مغلوباً على أمري ، يفضلني غيري ويربو عليّ كثرة . أنكفيء : أرجع وارتدّ.

***** تصاقب : تقارب . والنص منقول من (الخصائص) ج٢ ص ١٤٥ و ١٤٦ .

﴿ ألم تر أنّا أرْسَلنا الشياطين على الكافرين تؤزُّهم أزّاً ﴾ مريم ٠٨٣ ، أي تُزعجهم وتُقلقهم ، فهذا في معنى تهزُّهم هَزّا ، والهمزةُ أُختُ الهاء ، فتقاربَ اللفظانِ لتقارب المعنيينِ .

وكأنّهم خصّوا هذا المعنى بالهمزةِ لأنها أقوى من الهاء ، وهذا المعنى أعظم في النفوسِ من الهزّ ، لأنّك قد تهزُّ ما لا بالَ لهُ* ؛ كالجِذْعِ وساقِ الشجرة ، ونحو ذلك .) .

ج- باب في إمْساسِ الألفاظ أشْباهَ المعاني :**

اعلمْ أنَّ هذا موضعٌ شريفٌ لطيفٌ ، وقد نبّهَ عليه الخليلُ وسيبويْه ، وتلقّتْهُ الجماعةُ بالقبول لَهُ ، والاعتراف بصحّتِهِ .

قال الخليلُ : كأنّهم توهّموا في صوت الجُنْدب*** استطالةً ومدّاً فقالوا : صَرَّ ، وتوهّموا في صوت البازي تقطيعاً

فقالوا : صَرْ صَرَ .

وقال سيبويهِ في المصادر التي جاءت على الفَعَلان : إنّها تأتي للاضطرابِ والحركة ؛ نحو النَّقَزان**** ، والغَلَيان ، والغَثَيان . فقابلوا بتوالي حركات المثال حركات الأفعال .

ووجدتُ أنا من هذا الحديث أشياء كثيرةً ، على سَمْتِ ما حدّاهُ ، ومنهاج ما مثلاه . وذلك أنك تجدُ المصادر الرُّباعية المضعّفة تأتي للتكرير ؛ نحو الزَّعْزعة ، والقَلْقلة ، والصَّلْصلة ، والقعقعة ، والصَّعْصعة***** والجرجرة ، والقَرْقرة .

---

* لا بال له : لا شأن له ، من غير العاقل .

** (الخصائص) ج٢ ص ١٥٢ و ١٥٣ .

*** الجندب : ضرب من الجراد الحقليّ .

**** النَقَزان : الوثب .

***** الصعصعة : التحريك والقلقلة .

ووجدْتُ أيضاً (الفَعَلى) في المصادر والصّفات إنّما تأتي للسُّرعة ؛ نحوَ البَشَكى* ، والجَمَزى** ، والوَلَقى*** .) .

د- باب في قوّة اللفظ لقوّة المعنى[****] :

(هذا فصلٌ من العربيّة حَسَن . منه قولُهُم : خَشُنَ واخْشَوْشَن . فمعنى خَشُنَ دون معنى اخشوْشَنَ ؛ لما فيهِ من تكرير العَيْنِ وزيادة الواو . ومنهُ قولُ عُمر رضي الله عنه :

اخْشَوْشِنوا وتَمَعْدَدوا : أيْ اصلُبوا وتناهوا في الخُشْنة ، وكذلك قولُهم : أَعْشَبَ المكانُ ، فإذا أرادوا كثرةَ العُشبِ فيه قالوا : اعشَوْشَبَ . ومثلهُ حَلا واحلولى ، وخَلُقَ[*****] واخلوْلَقَ ، وغَدِنَ[******] واغْدَوْدَنَ . ومثلُهُ باب (فَعَل وافْتَعَلَ) ، نحو قَدَرَ واقْتَدَر . فاقتدرَ أقوى معنىً من قولِهم : قدر . كذلك قال أبو العبّاس ، وهو محضُ القياس . قال اللهُ سبحانه : ﴿ **أَخْذ عزيزٍ مقتدِر** ﴾ القمر (٤٢) .. فمقتدرٌ هُنا أوفقُ مِنْ قادِر ؛ من حيثُ كان الموضعُ لتضخيم الأمرِ وشدّة الأَخْذِ ..) .

---

* البَشَكى : الإسْراع .

** الجَمَزى : نوع من العدْو السريع .

*** الوَلَقى : عدوٌ سريع شديد .

**** (الخصائص) ج٣ ص ٢٦٤ .

***** خَلُقَ : كان خليقاً وجديراً .

****** غدِن : لانَ .

ثانياً- (من الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها)

أ- باب القول على لغة العرب أتوقيفٌ هي أم اصطلاح* :

(أقولُ : إنّ لغة العرب توقيف . ودليل ذلك قولُه - جلّ ثناؤه - : (وعلَّمَ آدمَ الأسماء كُلَّها) ، وهي الأسماءُ التي يتعارفُها الناسُ من دابّةٍ وأرضٍ وسهلٍ وجبلٍ وجملٍ وحمارٍ وأشباه ذلك من الأُمم وغيرها ..

ولعلّ ظانّاً يظنُّ أنّ اللغة التي دلّلنا على أنها توقيف إنّما جاءت جملةً واحدةً ، وفي زمانٍ واحد . وليس الأمرُ كذا . بل وقّفَ الله - جلّ وعزّ - آدمَ - عليه السلام - على ما شاء أن يعلّمهُ إيّاه مما احتاج إلى علمه في زمانه ، وانتشر من ذلك ، ما شاء الله . ثمّ علّم بعد آدم - عليه السلام - من عرب الأنبياء صلواتُ الله عليهم - نبيّاً نبيّاً ما شاء الله أن يعلّمه ، حتى انتهى الأمرُ إلى نبيّنا محمّد - صلى الله عليه وسلم - فآتاهُ اللهُ - جلّ وعزّ - من ذلك ما لم يؤته أحداً قبلَهُ تماماً على ما أحسنَهُ من اللغة المتقدّمة . ثم قرّ الأمرُ قرارَهُ فلا نعلم لغةً من بعده حدثت .

وخلّةٌ أُخرى : أنّه لم يبلغنا أنّ قوما من العرب في زمانٍ يقاربُ زماننا أجمعوا على تسمية شيءٍ من الأشياء مصطلحين عليه ، فكنّا نستدلُّ على اصطلاحٍ كان قبلهم . وقد كان في الصحابة - رضي الله عنهم . وهم البلغاءُ الفصحاءُ ، من النظر في العلوم الشريفة ما لا خفاءَ بهِ . وما علِمْناهم اصطلحوا على اختراعِ لغةٍ أو إحْداث لفظةٍ لم تتقدّمهم . ومعلومٌ أن حوادث العالم لا تنقضي إلاّ بانقضائه ، ولا تزول إلاّ بزوالِهِ ، وفي كلِّ ذلك دليلٌ على صحّة ما ذهبنا إليه في هذا الباب) اهـ ص ٣٤ .

---

* عن طبعة بيروت ١٩٦٤ بتحقيق الدكتور مصطفى الشويميّ . ص ٣١ وما بعدها .

ب- التصحّيح اللغوي* :

(أجمع علماؤنا بكلام العرب ، والرواةُ لأشعارهم ، والعلماءُ بلغاتهم وأيّامهم ومحالّهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنةً ، وأصفاهم لغةً . وذلك أن الله -جلَّ ثناؤه- اختارهم من جميع العرب واصطفاهم ، واختار منهم نبيَّ الرحمة محمّداً صلى الله عليه وسلم ، فجعل قريشاً قطّان حرمه ، وجيران بيته الحرام وولاته ؛ فكانت وفود العرب من حُجّاجها وغيرهم ، يفدون إلى مكّة للحجّ ، ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم . وكانت قريش تعلّمهم مناسكهم ، وتحكم بينهم . ولم تزل العربُ تعرفُ لقريش فضلَها عليهم ، وتسمّيها أهلَ الله ، لأنّهم الصريحُ من وَلَد إسماعيل - عليه السلام - ولم تَشُبْهم شائبة ...

وكانت قريش مع فصاحتها ، وحسن لُغاتها ، ورقّة ألسنتها ، إذا أتتْهم الوفودُ تخيّروا من كلامِهم وأشعارهم أحسنَ لغاتِهم وأصفى كلامهم . فاجتمع ما تخيّروا من تلك اللغات إلى نحائزهم** وسلائقهم التي طبعوا عليها ، فَصاروا بذلك أفصح العرب .

ألا ترى أنك لا تجدُ في كلامهم عنعنة تميم ، ولا عجرفيّة قيس ، ولا كشكشة*** أسَد ، ولا كَسْكسة ربيعة ، ولا الكسر الذي تسمعه من أسدٍ وقيس مثل : تعْلمون ونعْلم ، ومثل : شعير وبعير) .

---

* العنوان من ابتكارنا ، والنص من اختيار الدكتور عبده الراجحي .. انظر (فقه اللغة في الكتب العربية) ص ١١٣ - ١١٤ نقلاً عن الصاحبي ص ٢٣ - ٢٤

** نحائز : مفردها نحيزة ، وهي الطبيعة والسجيّة .

*** الكَشْكَشة : اقتران كاف الخطاب بالشين أثناء النطق بها ، كأن يُقال : رأيتكِشْ ، أعطيتكشْ .. وما تزال بقايا منها في اللهجة المصرية الشعبيّة المعاصرة . انظر أمثلة وإيضاحات لهذه العيوب النطقية في كتاب (الخصائص) لابن جني ج٢ ص ١١ (باب اختلاف اللغات وكلّها حجة) . وفي (فقه اللغة) للثعالبي ١٧٢ .

ثالثاً- من (فقه اللغة وسرّ العربيّة) للثعالبي

أ- الباب العشرون

فصلٌ في حكايات أصوات الناس في أقوالهم وأحوالهم* عن الأئمّة :

القَهقَهةُ : حكايةُ قولِ الضاحك : قَـهْ قَـهْ . الصَّهْصَهةُ : حكايةُ قولِ الرجل للقوم : صَهْ صَهْ (وهي كلمة زجْرٍ للسكوت) . الدَّعْدَعَة : حكايةُ قول الرجلِ للعاثر : دَعْ دَعْ ، أي انتعِشْ . البَخْبَخةُ : حكايةُ قول المستجيد : بَخْ بَخْ . التأخيخ : حكايةُ قولِ المُستطيب : أَخْ أَخْ . الزَّهْزَهَة : حكايةُ قول المرتضي : زَهْ زَهْ . النَّحنحة والتَّنَحْنُح : حكايةُ قول المستأذن : نَحْ نَحْ ، عند الاستئذان وغيره . العَطْعطة : حكايةُ صوت المُجّان إذا قالوا عند الغَلَبة : عيطْ عيطْ . التمطّقُ : حكايةُ صوت المتذوّق ، إذا صوّتَ باللسان والغارِ** الأعلى . الطَّعْطَعة : حكايةُ صوت اللاطع إذا ألصق لسانَهُ بالحَنَك ، ثمّ لطعَ مِنْ شيءٍ طيِّبٍ أكلَه . الوَحْوَحة : حكايةُ صوت به بَحَح . البَرْبَرة : حكايةُ أصوات الهند عند الحرْب . الكَهْكَهةُ : حكايةُ صوت المقْرورِ*** في يده . الجَهْجهة : حكايةُ زجر السَّبُع والإبل . الهَرْهرة : حكاية زجْر الغَنَم . البَسْبَسَة : حكايةُ زجْر الهرّة . الوَلْوَلة : حكايةُ قول المرأة : واوَيْلاه ...) .

---

* (فقه اللغة سرّ العربية) الثعالبي ص ٣١١ .

** الغار : سقف الحلق .

*** المقرور : المتأثر بشدّة البرد .

ب- فصلٌ يُقاربه في حكاية أقوالٍ مُتداولة على الأَلْسنة*

(عن الفَرّاء وغيرِهِ)**

البَسْملةُ : حكاية قول : بسم الله . السَّبْحلة : حكايةُ قولِ سبحانَ الله . الهَيْلَلة : حكايةُ قولِ : لا إله إلّا الله . الحَوْقلة : حكايةُ قولِ لا حول ولا قوّة إلاّ بالله . الحَمدَلة : حكايةُ قولِ الحمدُ لله .

الحيْعلة : حكاية قول المؤذن : حيَّ على الصلاة حيَّ على الفلاح . الطَّلْبَقة : حكاية قول : أطالَ اللهُ بقاءَك . الدَّمْعَزَة : حكاية قول : أدام اللهُ عزَّك . الجَعْفَلة : حكاية قول : جُعلْتُ فداءَك)

ج- القسم الثاني :

(سرّ العربيّة في مجاري كلامِ العرب وسُنَنِها والاستشهاد بالقرآنِ على أَكْثَرِها) :

فَصْلٌ في النَّحْت* :**

(العربُ تَنْحتُ مِنْ كلمتين وثلاثٍ كلمةً واحدةً ، وهو جِنْسٌ من الاختصار كقولهم : رجلٌ عبشميٌّ ، منسوبٌ إلى عبدِ شمس . وأنشد الخليلُ :

أَقُولُ لها ودمعُ العينِ جارٍ
أَلَمْ يَحْزُنْكِ حَيْعَلَةُ المُنادي ؟

---

* (فقه اللغة وسرّ العربية) ص ٣١٣ .

** الفراء : أبو زكريا ، يحيى بن زياد . فارسي الأصل ولد بالكوفة نحوي وعالم لغوي تلقى عن الكسائي . قربه الخليفة المأمون وجعله مؤدباً لولديه . توفي عام ٢٠٧هـ .

*** (فقه اللغة وسرّ العربية) للثعالبي ص ٥٧٨ .

من قولِهم : حيٌّ على الصلاة ، وقد تقدَّمَ فصلٌ شافٍ في حكايةِ أقوالٍ متداولةٍ من هذا الجِنْس .

وأمّا قولُهُمْ : صَهْصَلَقٌ* ، فهو من (صَهَلَ) و (صَلَقَ) ، والصَّلْدَم** من (الصَّلْد والصَّدْم) .

د- فصلٌ : من استعارات القرآن*** :

(من استعارات القرآن : ﴿وإنّه في أُمِّ الكتاب﴾ ﴿لتنذر أمَّ القُرى وَمَنْ حَوْلَها﴾، ﴿ واخفض لهما جناح الذلِّ من الرحمةِ ﴾ ، { والصُّبْحِ إذا تنفّس } { فأذاقها اللهُ لباس الجوع والخوف } ، { كلّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله } { أحاط بِهِمْ سُرادِقُها ﴾ ﴿ فما بكتْ عليهم السَّماءُ والأرض ﴾ ﴿ وامرأتهُ حمّالةَ الحطَب ﴾ ﴿ واشْتعل الرأسُ شَيْباً﴾ ﴿ وآية لهمُ الليلُ نسلخُ منه النهارَ ﴾ . ﴿ فصبَّ عليْهِمْ ربُّكَ سَوْط عذاب ﴾ ، ﴿ ولمّا سكت عن موسى الغضب ﴾ .

ومن الاستعارات في الأشعار العربيّة قولُ امرىء القيس :

وليلٍ كموج البحر أرخى سُدولَهُ ... عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي

فقلتُ له لمّا تمطّى بصلبِهِ ... وأردفَ أعجازاً وناء بكلكل

فأمّا أشعارُ المُحدثين في الاستعارات فأكْثَرُ من أن تُحصى .

---

* الصَّهْصلق : الصوت الشديد .

** الصَّلدم : الصُّلب ، الشديد الحافر .

*** (فقه اللغة وسرّ العربية) للثعالبي ص ٥٨٧ .

رابعاً – من (المزهر في علوم اللغة وأنواعها) للسُّيوطي

أ– **النوع الأوّل** : معرفة الصَّحيح (ويقال لهُ الثابت) والمحفوظ .

المسألة السادسة :غزارةُ المعـاني ومحدودّيـة الألفـاظ* (قـال الإمـامُ فخـرُ الدين الرازي** وأتباعُه : لا يجبُ أن يكون لكل معنىً لفظ ، لأنّ المعاني التي يمكن أن تعقل لا تتناهى ، والألفاظ مُتناهية لأنها مركبّـة من الحروف ، والحروف متناهية ، والمركّب من المتناهي متناهٍ . والمتناهي لا يضبطُ ما لا يتناهى ، وإلاّ لـزمَ تناهي المدلولات . قالوا : فالمعاني منها ما تكثر الحاجةُ إليه ، فلا يخلو عن الألفاظ ، لأنَّ الداعي إلى وضع الألفاظ لها حاصلٌ ، والمعنى زائل فيجب الوَضْع ، والتي تندرُ الحاجةُ إليها يجوز أن يكون لها ألفاظ أو لا يكون***) .

ب– **النوع الثالث والعشرون** : معرفة الاشتقاق**** :

(قال ابنُ فارس***** في (فقه اللغة) (باب القول على لغة العرب هل لها قياسٌ ؟ وهل يُشتقُّ بعضُ الكلام منْ بعض ؟) :

---

* هذا العنوان من وضعنا ، وليس من وضع السّيوطي . انظر (المزهر) ج١ ص ٢٦ .

** فخر الدين الرازي : إمام مفسّر وفيلسوف ، ولد بالريّ وتوفي بهراة سنة ٦٠٦هـ .

*** يلاحظ أن الرازي وجماعته قد دللوا بهذه النظرية على أن اللغة موضوعة اصطلاحاً وفقاً لما يستجدّ من المعاني ، وبما أن المعاني دائمة التوالد فوضعُ المفردات لا ينتهي بناءً على تجدد المعاني وتوالدها في الذهن . ويلاحظ عمق فلسفة الرازي في اللغويات ، مما نقله السيوطي .

**** (المزهر) ج١ ، ص ٢٠٠ .

***** ابن فارس : أبو الحسين أحمد ، سبقت ترجمته .

أجمع أهلُ اللغة ، إلاّ مـن شَذَّ منهم ، أنَّ للغـة العـرب قياسـاً ، وأنّ العـرب تشتقُّ بعض الكـلام مـن بعـض ، وأنَّ اسـمَ الجـنِّ مُشْـتقٌّ مـن الاجتنـان ، وأنَّ الجيـم والنون تدلاّنِ أبداً على السَّتْر . تقـولُ العـربُ للدِّرْعِ : جُنّـة ، وأَجنَّـهُ الليـلُ ، وهـذا جَنِينٌ ، أي هو فـي بطـنِ أُمّـه . (ويقولـون) : إنّ الأُنْـسَ مـن الظُّهـور ، يقولـون : آنَسْتُ الشيءَ (أي) أَبْصَرْتُهُ ، وعلى هذا سائرُ كلامِ العرب . عَلِمَ ذلـك مـن عَلـمَ ، وجَهِلَهُ من جَهِل . قال : وهذا مبنيٌّ أيضاً على ما تقدّم مـن أنّ اللغـة توقيفـيٌّ ، فـإنّ الذي وَقفنا* على أنَّ الاجتنان السَّتر ، هو الـذي وَقَفنـا علـى أن الجـنَّ مشـتقٌّ منـه ، وليس لنا اليومَ أن نخترع ، ولا نقول ما قالوه ، ولا نقيس قياساً لم يقيسوه ، لأنّ فـي ذلك فسادَ اللغة .

ونكتةُ الباب أنَّ اللغة لا تؤخذ قياساً نقيسُهُ الآن نحنُ **) .

وقال ابنُ دِحْية*** في (التنوير) : الاشتقاقُ من أغرب كلام العرب ، هو ثابتٌ عن الله تعالى بنقل العُدول عن رسول الله صلى الله عليـه وعلـى آلـه وسلّم ، لأنّه أوتي جوامع الكَلِم ، وهي جمع المعاني الكثـيرة فـي الألفـاظ القليلـة ، فمـن ذلـك قولُه فيما صحَّ عنه ، يقول الله : أنا الرحمـن خلقتُ الرَّحِم وشـققتُ لهـا مـن اسـمي وغير ذلك من الأحاديث .

---

* وَقفنا : أطلعنا وألهمنا .

** انتهى كلام ابن فارس الذي نقله السيوطي في (المزهر) ج١ ص ٢٠٠ .

*** ابن دِحْية : هو عُمر بن الحسن ، إمام أندلسي رحل إلى المشرق واستقر في مصر . من كتبه (التنوير في مولد السراج المنير) توفي ٦٣٣هـ .

وقال (ابنُ دحْية) في شرح (التسهيل) : الاشتقاقُ أخذُ صيغةٍ من أُخرى مع اتّفاقهما معنىً ومادّة أصليّةً وهيئة تركيب لها ، ليدلّ بالثانية لها على معنى الأصل ، بزيادةٍ مفيدةٍ ، لأجلها اختلفا حروفاً أو هيئةً : كضاربٍ من ضَرَب ، وحَذِرٍ من حَذِرَ . وطريقة معرفته (أي معرفة الاشتقاق) تقليب تصاريف الكلمة ، حتى يُرجَعَ منها إلى صيغةٍ هي أصلُ الصِّيغ دلالة اطّرادٍ أو حروفاً غالباً* ، كضرْبٍ ؛ فهو دالٌّ على مطلق الضرب فقط ، أمّا ضاربٌ ومضروبٌ ، ويضربُ واضربْ ، فكلّها أكثر دلالةً ، وأكثرُ حروفاً . وضَرَبَ الماضي مُساوٍ حروفاً وأكثر دلالةً . وكلُّها مشتركة في ض ر ب وفي هيئة تركيبها ، وهذا هو الاشتقاق الأصغر المحتجُّ به .

وأمّا الأكبر ، فيحفظ فيه المادّة دونَ الهيئة فيجعل ق و ل و و ل ق و و ق ل و ل ق و ، وتقاليبها الستّة بمعنى الخفّة والسرعة ، وهذا مما ابتدعهُ الإمام أبو الفتْح ابن جنّي ، وكان شيخُهُ أبو عليٍّ الفارسيُّ يأنسُ به يسيراً** .

وليس (الاشتقاق الأكبر) معتمداً في اللغة ، ولا يصحّ أن يُستنبطَ به اشتقاقٌ في لغة العرب ، وإنّما جَعلَهُ أبو الفتحِ بياناً لقوّة ساعده ، وردّه المختلفات إلى قَدْرٍ مُشترك) .

ج- التفقّه في اللغة ضروري للتفقه في الدين***

(عن النوع الحادي والأربعين : معرفة آداب اللغوي)

(إنّ اللغويَّ أوّل ما يلزمه الإخلاص وتصحيح النية ، لقوله صلى الله عليه

---

* كذا في الأصل . انظر (المزهر) ج١ ص ٢٠١ .

** يسيراً : قليلاً .

*** العنوان من وضعنا وليس من وضع الإمام السيوطي . انظر (المزهر) ج٢ ص ١٩٢ .

وسلم : الأعمالُ بالنيات* ، ثم التحرّي في الأخذ عن الثقات ، لقولهِ صلى الله عليه وسلم : إنّ هذا العلم دينٌ فانظُروا عمّن تأخذونَ دينَكُمْ .

ولا شكَّ أنَّ علم اللغة من الدين لأنّهُ من فروض الكفايات ، وبه تُعرف معاني ألفاظ القرآن والسنّة . أخرج أبو بكر بن الأنباري** في كتاب (الوقف والابتداء) بسنده عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قال : لا يُقرىء القرآنَ إلاّ عالمٌ باللغة . وأخرج أبو بكر بن الأنباري في كتاب (الوقف) من طريق عكْرمة*** عن ابنِ عبّاس**** قال : إذا سألتُم عن شيءٍ من غريب القرآن فالتمسوه في الشّعْر فإن الشعر ديوان العرب .

وقال الفارابي***** في خطبة ديوان الأدب : القرآنُ كلامُ الله ، وتنزيلُهُ فصْلٌ فيه مصالِحُ العباد في معاشِهم ومعادِهم مما يأتون ويَذَرون ، ولا سبيل إلى علْمهِ وإدْراك معانيهِ إلاّ بالتبحُّر في علم هذه اللغة . وقال بعضُ أهلِ العِلم :

حِفْظُ اللغاتِ عَلَيْنا ... فرضٌ كفرضِ الصّلاةِ
فليسَ يُضبط دينٌ ... إلاّ بحفظِ اللّغاتِ

وقال ثعلب في أماليه : الفقيه يحتاجُ إلى اللغة حاجةً شديدةً ..)

---

* كذا في الأصل .

** لغويّ نحويّ من أهل الكوفة . أخذ عن ثعلب . له كتاب (الأضداد) و (شرح المعلقات) توفي ٣٢٩هـ .

*** عكرمة ابن أبي جهل : صحابي ، قتل في اليرموك عام ١٣هـ .

**** عبد الله بن عباس : ابن عم النبي (ص) . مشهور برواية الحديث . توفي ٦٨هـ .

***** هو الفارابي اللغوي أبو ابراهيم له معجم (ديوان الأدب في بيان لغة العرب) خال الجوهري صاحب (الصحاح) . توفي ٣٥٠هـ .

الفصل الثالث
فِقْهُ اللُّغَةِ فِي الكُتُبِ المُعَاصِرَةِ

مفهوم فقه اللغة من الماضي إلى الحاضر :

كان اتفاقنا بوجه عام على أن الفقه هو أوسع العِلْم فأن يتعلّم الإنسان اللغة ، شيءٌ مختلف عن أن يكون متفقّهاً فيها . وأن يكون متفقّهاً في لغته التي تعلّمها يقتضي أن يلمّ بلغاتٍ أخرى من لغات بني الإنسان إلماماً يتابع الخط العام لتطور اللغات من أصواتٍ مبهمة إلى ألفاظ صوتية ولكنها محددة الدلالة ضمن استعمال مفيد هو الكلام الذي هو لغة التخاطب ، لغة البث والاستقبال من المرسل إلى المتلقي ، وذلك فيما يتعلق بحاجةٍ عارضةٍ أو بتنصيصٍ فنّي راقٍ يشترك في صنعه الفكر والوجدان .. هذا التنصيص الراقي هو فن الأدب .. على أننا مع فقه اللغة في مرحلةٍ أوسع بقدر ما هي أسبق بقدر ما هي أهمّ .

في العصر الحديث أقام علماء اللغة في كل لسان من الألسن البشرية المتطورة على شكل لغاتٍ معترفٍ بها ، أقاموا جدليّةً كبرى حول الاختلاف بين علم اللغة linguistics وفقه اللغة philology . وكان دورنا في هذا الكتاب الذي بين أيدينا أن نقلّص من هذه الجدلية جهد المستطاع حتى كدنا نزعم أنّ فقه اللغة هو علم اللغة ، وعلم اللغة هو فقه اللغة ، لا فرق بينهما . إلا أن فقه اللغة ينحو بالإضافة إلى العلم اللغوي نحواً تاريخيّاً مقارناً مستخدماً علم اللغة أو منطلقاً منه .

وقد لا حظنا إحجام الدراسات في فقه اللغة عن التعريف بهذا العلم أو ترددها فيه ، واكتفى بعضها بالتنويه بغموض المفهوم الذي يحدّد (فقه اللغة) .

وقد جاء في بعض المراجع ما يبرّر هذا الغموض في مفهوم (فقه اللغة) بأنه علم حديث لا يزالُ حتى الآن في عنفوان تطوره* . ومع أن علم اللغة هو الأحداث وجوداً يرى بعضهم بعد عقد دراسة مقارنة أن الدّرس اللغوي عند العرب القدماء مندرج تحت (علم اللغة) ، وليس تحت (فقه اللغة) ، وأنه من الواضح أن مصطلح (فقه اللغة) لا يُشير من قريبٍ أو من بعيد إلى طريقة العرب القدماء ، فضلاً عما يحيط به من غموض وما يعتوره من خلاف** .

إن (فقه اللغة) ليس معرفةً لعددٍ من الألسن ، وإن كان ذلك مفيداً لأن التبحّر في لغةٍ ما والإلمام بالأخريات يقود إلى الكشف عن قوانين اللغة الأولى بالمفهوم العام المقارَن .

ومع أننا لا ننكر جهود اللغويين العرب في ميدان فقه اللغة وعلم اللغة في مرحلةٍ وسطى من تاريخ الدراسات اللغوية ، نجدنا محقّين في الاعتراف كما اعترف غيرنا بجهود اللغويين في اللغات الأخرى ، وفي مرحلةٍ أبكر من تاريخ الإنسانية . وعلى سبيل المثال لقد قام النحوي الهندي بانيني panini منذ القرن الرابع قبل الميلاد بوصف القوانين الصوتية والنحوية للغة السنسكريتية وصفاً يبلغ درجة كبيرة من الدّقة ، مما أقرّ به علماء الغرب أنفسهم في العصر الحديث*** وعلى رأسهم بلومفليد bloomfield .

ها هم اليونانيون ، ومن بعدهم الرومان ، قد أفادوا الدراسات اللغوية بشكلٍ أو بآخر ، ولكن أعمالهم كانت تتّسم بالطابع الفلسفي الذي ظلّت آثاره باقيةً حتى اليوم في النحو التقليدي في مختلف لغات العالم ، وما النحو في حقيقته إلاّ ضربٌ من المنطق والمنطق منهج لكافة العلوم .

---

* انظر على سبيل المثال (دراسات في فقه اللغة) لمحمد الأنطاكي ، ص ٣٨ .

** (فقه اللغة في الكتب العربية) للدكتور عبده الراجحي ص ٥٦ .

*** انظر (دراسات في علم اللغة) للدكتور كمال محمد بشر . ص ٣٦ .

لقد شهد القرنان الثامن عشر والتاسع عشر نشاطاً ملموساً في الحقل اللغوي . وقد كان هذا النشاط بدايةً حقيقية لعلم اللغة بالمعنى الحديث . وعُرفتْ لهذا العلم مدارسه التي أفدنا من نظرياتها وآراء علمائها في أثناء معالجتنا لجوانب من فقه اللغة ، وكان منهم المدرسة السويسرية الفرنسية دي سوسير **de sassure** ومن المدرسة الأمريكية ليونارد بلومفيلد* leonard bloomfield و إدوارد سابير edward sapir والمدرسة الإنجليزية بريادة فيرث J R firth ، والمدرسة الدنمركية ومن أشهر رجالها يِسْبرسِن Otto Jespersen . والمدرسة الألمانية ومن أنبه علمائها : شليغل Schlegel وبوب Bopp وغريم Grimm ومولر muller** .

وقد أصبحت مصطلحات علم اللغة وفقه اللغة مصطلحات شائعة لدى الباحثين اللغويين العرب ومن أمثلتها هذه المصطلحات :

١- الفونيم phoneme ، وتعني الوحدة الصوتية

٢- المورفيم morphome ، وتعني الوحدة الصرفية

٣- مورفولوجيا morphology ، وتعني علم الصرف

٤- ساينتكس syntax ، وتعني النَّظْم أو التركيب

٥- فونولوجي phonology ، وتعني علم الأصوات

٦- سيمانتيك semamtigue ، وتعني الدلالة

هذا فضلاً عن المصطلح العام لفقه اللغة (فيلولوجي ، (philology) ، وعلم اللغة (لنجوستك linguistic) .

---

* (علم اللغة) للدكتور محمد السعران ص ٣٤٦ .

** (١٨٢١ - ١٨٦٨) **max muller** . (علم اللغة) للدكتور سعران ص ٣٣٣٧ .

وفي كتاب الدكتور محمود السّعران (علم اللغة*) غزير من المصطلحات الأجنبية ، وغزيرٌ من أسماء الأعلام اللغويين الأجانب الأوروبيين خاصة ، وقد آثرنا اختصار المصطلحات وأسماء اللغويين الأجانب ليكون كتابنا وجيزاً حقّاً ، علماً بأن الباحثين العرب المعاصرين لم يّقصّروا في الاطلاع على الأفكار الأجنبية والتأثر بها ، فإذا هم قد جمعوا بين النتاج التراثي والنتاج المعاصر في فقه اللغة فلقد حصلوا منه أكبر مقدار .. ولولا التردّد وتوهم الصعوبة ، والفصل غير الضروري بين فقه اللغة وعلم اللغة ، لكان في الكتب العربية المعاصرة غناء وسداد لثغرةٍ كبرى في الدراسة الجامعية اللغوية لفقه اللغة .

ليكن علم اللغة هو النظرية وفقه اللغة هو التطبيق ، أو ليكن علم اللغة هو الوسيلة وفقه اللغة هو الغاية وليكن علم اللغة مستقيماً مادّته من النظر في اللغات كلِّها ليصل إلى فهم الحقائق والخصائص التي تسلك اللغات جميعاً في عقد واحد وسنقوم بإلقاء نظرة عامّة على محاولات جادّة في دراسات فقه اللغة باللغة العربية . ولا ندّعي بأننا سنجري مسحاً شاملاً لهذه الدراسات في الشكل ولا في المضمون ، ولكننا سنقتصر على تعداد أبرز العناوين مع الإشارة إلى أهم المرجعيّات في كلٍّ منها .

كُتُبٌ ودراسات في فقه اللغة العربية :

عرض الأستاذ الباحث محمد الأنطاكي في كتابه (دراسات في فقه اللغة) وتحت عنوان (فقه اللغة) لأسماء عددٍ من الكتب والمؤلفين في فقه اللغة قديماً وحديثاً . أمّا ما صنّفه بين مؤلفات فقه اللغة من الكتب القديمة فيتمثل بما يلي :

---

* انظر معجم المصطلحات في كتاب الدكتور سعران ص ٣٥٠ .

١- الخصائص لابن جني ، ويتضمن آراء عميقة في فقه اللغة

٢- الاشتقاق للأصمعي .

٣- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها لابن فارس .

٤- مقاييس اللغة لابن فارس حيث عرض لنظرية ثنائية الألفاظ في اللغة العربية .

٥- المعرّب من الكلام الأعجمي لأبي منصور الجواليقي .

٦- المزهر في علوم اللغة للسّيوطي .

٧- شفاء الغليل فيما في كلامِ العرب من الدخيل ، لشهاب الدين الخفاجي .

وكنّا قد تعرّضنا بالتفصيل لبعض هذه المؤلفات مع تراجم مؤلفيها في الفصل السابق لهذا الفصل ، واخترنا منها النصوص الفقهيّة التي وجدناها مناسبةً لوضعها في عداد مؤلفات فقه اللغة .. يقول الأستاذ الأنطاكي :

(.. وقد نشطت الدراسات الفقهية اللغوية في العصر الحديث نشاطاً ملحوظاً بسببٍ من تأثرنا بالغرب ، وامتاز أكثرُ المؤلفات الحديثة بالمنهجية والروح العلميّ .

ومن أشهر رجال فقه اللغة في العصر الحاضر* :

محمد المبارك ، وعلي عبد الواحد وافي ، ومحمود السعران ، وتمام حسّان ، وإبراهيم أنيس ، وصبحي الصالح .

وبناء على ما تقدم سَنُوافي الدارس لفقه اللغة باسم الكتاب الذي اشتهر به مؤلفه في ميدان فقه اللغة ، مع الإشارة إلى المرجعية التي خرجَ بها والتي اعتُمدت له في المراجع العربية :

---

* انظر (دراسات في فقه اللغة) لمحمد الأنطاكي ص ٣٥ . وقد اخترنا الوقوف عند ستة من هذه الأسماء .

١.- محمّد المبارك وكتابه (فقه اللغة وخصائص العربية) :

مرجعية الكتاب أنه لا يجد فرقاً بين التسميتين : (علم اللغة وفقه اللغة) ص ٣٩ ، وأنه يلفت النظر إلى ثراء العربية وغناها بالحبيسات من الحروف الموزعة على طول القناة الصوتية ص ٢٤٩ - ٢٥٠ ، وأنه يرى أن أصوات العربية الفصحى ثابتة لم ينلها التطوّر ، وأننا ننطقها اليوم كما كان العرب ينطقونها منذ أربعة عشر قرناً على الأقل ص ٢٥١ وما بعدها ، وأنه يرى أن الأصوات بصفاتها الطبيعية تناسب ما تدلُّ عليه ، وهو يرى رأي لامارتين ، وفولتير * بقصور اللغة عن أداء ما في النفس من آراء ومشاعر ، فتضطرنا اللغة مثلاً أن تعبر بلفظ الحبّ أو البغض عن آلافٍ من ضروب الحب والبغض كلّها مختلفة ، وكذلك الحال في موضع آلامنا وملاذنا) . ص ٢٠٤ . ومن مرجعيات كتاب (فقه اللغة وخصائص العربية) للمبارك قولُهُ بأن أكثر الأصول التي تشتق منها الألفاظ للدلالة على معانٍ جديدة هي ذات معانٍ عامّة ، يأتي الاستعمال لتخصيصها فكلمة (دليل) مثلاً قد يُقصد بها من يدل على الطريق ، أو من يطوف مع السائحين أو الكتاب المطبوع من قبل مصلحة الهاتف للدلالة على أرقام هواتف المشتركين . ص ١٩٨ . وهو يرى أن التضادّ ليس إلاّ نوعاً من الاشتراك كما في كلمات : الجَوْن ، القُرء ، الجلل .. ص ١٩٨ .. وهو يعدّ الاشتقاق أهمّ وسيلة لتوليد الألفاظ وقد خصّه بفصل طويل من فصول كتابه ص ٦٩ - ١١١ ..

---

* انظر كتاب الأنطاكي (دراسات في فقه اللغة) ص ٣٠٤

٢- علي عبد الواحد وافي وكتاباهُ (علم اللغة) و(فقه اللغة) :

خصص علي عبد الواحد وافي كتابه الأوّل (علم اللغة) لدراسة اللغة عامّة ، بينما خصص كتابه الثاني (فقه اللغة) بدراسة اللسان العربي وحده مع الاعتماد اعتماداً كبيراً على مرجعيّات الكتاب الأول .

رأى الوافي في كتابه علم اللغة أن فقه اللغة يدرسُ الصراع بين الألسن فهو بحاجةٍ إلى علم التاريخ ثم إنّ العملية اللغوية تقتضي جهوداً عقلية من المتكلم والسامع على حدٍّ سواء ولعلم النفس حظ من التدخّل في العملية اللغوية .

إن القانون في اللغة كالقانون في الطبيعة لا يمضي دون أن يصطدم بقوانين أُخرى (علم اللغة ١٨ - ٢١) . وإن إقحام الطريقة التجريبية لا يُؤدّي دائماً إلى النجاح في استنتاج القانون اللغوي .وتعرّض إلى ذكر اللغة البصرية أو لغة الإشارة كنوعٍ من أنواع التعبير الإنساني التي لا يتعذر فهمها (علم اللغة ص ٧٨) . وجمع طائفة كبيرة من ملاحظات العلماء حول تفاهم الحشرات والحيوانات بإيتاء حركاتٍ معينة (علم اللغة ٨٥) . وعرض الوافي إلى نظرية الألماني ماكس مولر في تقسيم ألسُن العالم إلى ثلاث أُسر : الهندية الأوربية ، والحامية السامية والطورانيّة (علم اللغة ص ١٨٠ - ١٩٧) .

أما كتاب الوافي (فقه اللغة) فقد عني بذكر الشعوب السامية ولغاتها حتى وصل إلى اللغة العربية فذكر شعبتها ومنزلتها من اللغات السامية ، ونشأتها وأقسامها ، وتحدث عن العربية البائدة (عربية النقوش) والعربية الباقية ، وصراع لهجاتها ونهوض لغة قريش وعوامل نهضتها ، واحتكاك العربية بأخواتها الساميات وصراعها معها ، واللهجات العامية وتعرّض لخصائص العربية بالتفصيل ، وانتهى إلى كفاية اللغة العربية ومنزلتها ، وعوامل صيانتها من خط وقواعد ومعاجم ومجامع علميّة . كلُّ ذلك مما أفدنا منه وأشرنا إليه في حواشي كتابنا في حينه ..

٣- محمود السّعران وكتابه (علم اللغة) :

جعل كتابه مقدّمة للقارىء العربي ليتلاحم مع المنهج الأوربي في علم اللغة . وأزاح المسلّمات اللغوية على أنها قوانين مثل (إن اللغة لا تنشأ إلا في مجتمع) ، (إن لكل لغةٍ من اللغات نظمها الصوتية والنحوية) ، (إن مصير كل لغة كبيرة أن تتشعب إلى لغات) ..

وقال في التمهيد : إنّ علم اللغة علمٌ قد تكوّن ، ولكنه لا يزال يتطور التطور اللازم لنضجه . ويعتبره علماً غريباً حتى على جمهور المتخصصين ، ويتّهمهم بأنهم ما يزالون يدورون حول محور قديم مما تعارفوا عليه على أنه من الدراسات اللغوية . أما العناية بعلم اللغة وبالدراسات اللغوية الحديثة في الجامعات العربية فهي عناية ضئيلة* . وقد نشأ خلطٌ بين (علم اللغة) وبين ما يسمّونه (فقه اللغة) . وهو يخشى أن تتراكم الأوهام في حال دعوته إلى اهتمامات هي من صميم (علم اللغة) فيقال عنه إنه رجعي أو ضد الوحدة العربية (!) ، وبالاختصار الشديد يقول عن علم اللغة : هو العلم الذي يتخذ اللغة موضوعاً له وينقل كلام فرديناند دي سوسير Ferdinand de saussure (موضوع علم اللغة الوحيد والصحيح هو اللغة معتبرة في ذاتها ومن أجل ذاتها**) .

وحول البحث في نشأة اللغة لم يجد رأياً قاطعاً وإنما هي نظريات مفترضة ، ووجد أن اللغة كلام وأصوات ، وليست الحروف الكتابية إلاّ رموزاً ، وما الكلام إلاّ وظيفة ثقافية مكتسبة (ص ٥٦) .

---

* انظر (علم اللغة) للدكتور محمود السعران ص ٢٦ وما قبلها .

** (علم اللغة) للدكتور سعران ص ٤٩

واعتبر علم اللغة جزءاً من علم أعم هو علم العلامات (سيمولوجيا) وهذه العلامات قد تكون سمعية أو بصرية أو لمسيّة أو شميّة الخ ...

على أن علم اللغة لا بد له من الاستعانة بعلوم أخرى كعلم الاجتماع العام ، وعلم الأجناس البشرية ، وعلم التشريح وأمراض الكلام الخ ....

وهو يرفض إقامة الفلسفة اللغوية على أساس منطقي أو عقلي (ص ٧٤) . ويعتبر علم اللغة علماً انعكاسياً أو استبطانياً لأنه يدرس اللغة باللغة (ص٨١) ، ويستفيض في بحث علم الأصوات اللغوية في باب مستقل وقد وجد أن العرب قد صنفوا الأصوات في ثلاث طبقات : (شديدة ورخوة وما بين بين) ، (ص ٩١) . وتعرّض إلى الدراسة الصوتية الآلية مع وسائلها وأجهزتها ، وتسجيل الكلام بنوعٍ من الكتابة الصوتية . وأشار إلى تصنيف الأصوات في وحدات أو زُمر صوتية هي الفونيمات جمع فونيم Phoneme وذكر اسم التنغيم intonation في تغيير المعنى للفونيم الواحد (ص ١٢٥) ونظر في النطق وأعضائه التشريحية في البدن الإنساني من أقصى الحلق إلى ظاهر الشفتين ، ومع أن الجهاز الصوتي قادر على إحداث عدد كبير جداً من الأصوات الكلامية نجد اللغات البشرية لا تصطنع إلاّ عدداً محدوداً من الأصوات باسم الحروف الهجائية (ص ١٤٣) .

وبمنتهى التبسيط نجده يقسم اللغة إلى مورفيمات جمع مورفيم Morpheme وهو الوحدة الصرفية ، ودلالات معنوية Semanteme . والمورفيم عنصر صوتي منّهج لتقديم الدلالة بدءاً من الكلمة المفردة إلى الجملة الكلامية . وهنا يقع التلاحم بين النحو والصرف ولا موجب للفصل بينهما . وبدراسة النحو المقارن بين اللغات يجد أن اللغات محكومة بمنطق التطور أكثر مما هي محكومة بالاتفاق الاصطلاحي على تطبيق القواعد . (ص ٢٥٣) . وفي علم الدلالة Semantics أو دراسة المعنى يقول عنه إنّه قمة الدراسات اللغوية (ص ٢٦١) يشارك فيه علماء من كل جهات الاختصاص كعلم النفس وعلم الاجتماع الخ ...

ويفيد إن المعنى القاموسي يظل قاصراً لتولّد معاني جديدة تخص المتكلم وأحواله وظروفه ، والتغيّر في المعنى القاموسي أما أن يتجه إلى التخصيص أو التعميم أو المعنى المضاد (ص ٢٨٤) .

ويعقد المؤلف الباحث الدكتور محمود السعران باباً خامساً بعنوان تاريخ الدراسات اللغوية (ص ٣١٥) : قبل عصر النحاة ، ولدى الهنود واليونان والرومان ، والعرب والغرب في العصور الوسطى ، وفي عصر النهضة الأوربية وما تلاه . ولأنه اقتبس كل شيءٍ عن الغرب يردف الكتاب بمعجمٍ للمصطلحات (ص ٣٥١) ، يضع الكلمة بالإنجليزية ويقابلها بمعناها العربي .

ومع أن الدكتور سعران قد اتجه إلى الانفصال تماماً بعلم اللغة عن فقه اللغة ، وجدنا مؤلفي الدراسات في فقه اللغة يضعونه ضمن مراجعهم كما فعل الأستاذ محمد الأنطاكي ، والدكتور عبده الراجحي .

٤- تمام حسّان وكتابه : (مناهج البحث في اللغة)

يتعرّض الكتاب إلى مناهج البحث اللغوي ؛ كالمنهج التجريبي في فقه اللغة ومن نماذجه ، تجربة فيرث Firth في معرفة العلاقة بين الصوت والشكل . وعندما يتعرض للأصوات (الطليقة والحبيسة) يسميها (العلل والصحيحات) وهذه التسمية تناسب علم الصرف أكثر من علم الصوتيات Phonology . ومن مرجعيات الكتاب تناوله المجهور والمهموس من الأصوات وتعليل وقوع بعض اللغويين القدامى في بعض الخلط والأخطاء في تشخيص حروف معينة كالطاء والقاف ، والهمزة والطاء .

ومن اهتمامات المؤلّف الصوتية وقوفه على (النّبْر) وقواعده ورؤيته بأنه يُحدّد على أساس أن الكلمة منطوقة كما في السياق أو في دَرْج الكلام .

ولتمام حسان محاولة ابتدائية محدودة في إيجاد قواعد للتنغيم intonation (ص ١٦٤ – ١٧٠) وذلك من منطلق أن التنغيم شكل من أشكال الدلالة ولا سيما في بعض اللغات كاللغة الصينية .

وفي كتاب الدكتور تمام حسّان (مناهج البحث في اللغة) نظر في عناصر العبارة اللغوية : الماهيّات الدلالات ، الارتباط الدلالي ، المورفيمات . وقال عن قواعد الارتباط الدلالي إنها أبوابٌ نحوية تناظراً مع المصطلح الأجنبي : Categorie grammaticale * . (ص ١٧٢) .

٥- إبراهيم أنيس وكتابه (الأصوات اللغوية) :

مرجعية الكتاب في أصوات الفصحى ، وفي اختراع النحو العربي ، وقد قال : إن الغيْن حرف حلقي متابعاً القدماء في حين أنه حرف يصدر عن الطبق لا على الحلق .. وقد قام الدكتور إبراهيم أنيس بإحصاء نسبة شيوع الحبيسات في كل ألف صوت حبيس فإذا أكثرُها اللام ١٢٧/١٠٠٠ ، وأقلها الظاء ٣/١٠٠٠ ، (ص ١٧٠ – ١٧١) . وكان له تصنيف للمدى الصوتي لكل حرف طليق أو حبيس (ص ٨٠) .

إن الطرق المختلفة التي يسلكها لسانٌ ما في درجة الحدّة ، ارتفاعاً وانخفاضاً مما يسمى بالتنغيم intonation ضرورية لتعلم كُلِّ لسانٍ من اللُّسُن . فإذا كان التنغيم لا يؤدي إلى اختلاف في معنى الكلمة في لغة كاللغة العربية الفصحى ، إلاّ نادراً ، فإنّه في اللغة الصينية مثلاً يؤدي باختلافه صوتاً إلى اختلافه دلالةً ، فكلمة (فان) بالصينية ، تؤدي ستة معان مختلفة هي (نوم – يحرق – شجاع –

* انظر (دراسات في فقه اللغة) لمحمد الأنطاكي ص ٢٣٠ .

واجب – يقسم– مسحوق) ، وليس هناك من فرق سوى النغمة الموسيقية في كلّ حالة (ص ١٠٣)* .

وللدكتور إبراهيم أنيس في كتابه " الأصوات اللغوية " قواعد في (النَّبر) ، (ص ٩٩ – ١٠١) ، وأثره على المعنى كما في اللغة الإنجليزية .

وفي العلاقة بين اللفظ ودلالته ، يقول إبراهيم أنيس : (إن الصلة بين اللفظ ودلالته واقعة ، ولكنها مكتسبة لا طبيعيّة ذاتية . ترمز اللغة لمعنى ما بمجموعةٍ من الأصوات بطريقةٍ اعتباطية ، ثم يحدث أن ترمز اللغة إلى معنى آخر شبيه بالأوّل بمجموعةٍ من الأصوات شبيهة بالمجموعة الأولى ، فيظن الناس أن هذه الأصوات ذات علاقة ذاتية طبيعية مع تلك المعاني**) .

هذا وللدكتور إبراهيم أنيس كتابان آخران هما (دلالة الألفاظ) و (من أسرار اللغة العربية) وكلاهما من مراجع فقه اللغة .

٦– صبحي الصالح . وكتابه (دراسات في فقه اللغة) :

إنّه مرجع هام جدّاً من مراجع فقه اللغة بذل فيه مؤلفه الدكتور صبحي الصالح جهداً ملحوظاً وعن طبعته الثالثة عام ١٩٦٩ ، أصدرت مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية الطبعة المؤرخة ١٩٨٨ – ١٩٨٩م والتي اعتمدناها في كتابنا هذا بشكل أساسيّ .

وحسبنا أن نطّوف بفهرس الموضوعات – وهي غزيرةً جِدّاً – كي نلمّ بأبرز مرجعيّات الكتاب :

تحدث عن فقه اللغة في نشأته وتطوره مفّرقاً بين فقه اللغة وعلم اللغة معرّجاً على تطور التأليف في فقه اللغة عند العرب .

---

* انظر (دراسات في فقه اللغة) لمحمد الأنطاكي ص ١٩٧ .

** انظر (دراسات في فقه اللغة) لمحمد الأنطاكي ص ٣٠١

وخصص فصله الثاني لفقه اللغة في كتبنا العربية القديمة ، وتلاه تجديد البحث في فقه اللغة ، ورأى أن أصلح المناهج هو المنهج الاستقرائي الوصفي ، وعرض لابن جنّي ورأيه في نشأة اللغات بصورتها الصوتية السمعيّة .

واهتمّ بالعربيّة الفصحى بين أخواتها الساميّة ، وعدا الانتماء إلى فصيلتها الحامية السامية ، عرض لطريقة أخرى في تقسيم اللغات إلى فصائل تحليلية وإلصاقية وعازلة (ص ٤٥ - ٤٦) .

وأفاض في لمحة تاريخية عن اللغات السامية ، وعن العربية الباقية وأشهر لهجاتها مفصّلاً في لهجة تميم وخصائصها (ص ٧٢ - ١٠٥) .

وفي الباب الثالث من أبواب الكتاب تناول خصائص العربية الفصحى (١٠٧ - ٣٦١) : مقاييسها ، ظاهرة الإعراب فيها ، مناسبة حروف العربية لمعانيها ، والمناسبة الوضعيّة وأنواع الاشتقاق ، حتى وصل إلى (النحت) أو الاشتقاق الكُبّار ، ثم إلى موضوع الأصوات العربية وثبات أصولها ، واتّساع العربية في التعبير (ص ٢٩٢ - ٣١٣) . وموضوع تعريب الدخيل ، وموضوع صيغ العربية وأوزانها ، وعقد فصلاً بعنوان العربية في العصر الحديث وكانت رؤيته حيادية موضوعية ونقل استفتاء (المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربيّ)* حيث تشابهت مقترحات العلماء إلى حدٍّ كبير ، وأبرزها اقتراح إيجاد مجمع عربي لغويّ وعلمي موحّد ، وتوحيد المناهج والكتب الدراسية ، وعقد مؤتمر لغوي عام لتبسيط قواعد اللغة وتيسير كتابتها وطباعتها ..

---

* هذا المكتب تابع لجامعة الدول العربية ، ومركزه الرباط في المغرب الأقصى .

وأعطى أهميّة لصورة الحرف العربي وارتباطها بالقرآن ، وتناول اللهجات وتعددها في القطر العربي الواحد وانتهى إلى رأيٍ أنه خيرٌ للعالم العربي كله أن تكون له لغة واحدة هي اللغة الفصحى* .

وفي الخاتمة قال : إنّ عبقرية اللغات أسطورة ولا سبيل إلى تفضيل لغةٍ على أُخرى ، وقدّم كتابه كمرآةٍ للّغة العربية بوجهها الصحيح دون طلاء .

ورغم أن العاميّة في كل قطر عربيّ متفرعة عن الفصحى إلاّ أنّها تُشكّل تشويهاً وتحريفاً لها . وليس لداء العاميّة من علاج إلاّ محاربة الأميّة وتعميم التعليم الإجباري ، وتمكين أجهزة الإعلام في الدول العربية من الارتفاع بالعامية إلى الفصحى المبسطة الميسّرة .

وبعيداً عن موضوعية فقه اللغة ينهي كتابه برؤيةٍ انتمائية شريفةٍ وعاطفية يقول :(إن العربية الفصحى التي انطوت على خصائصها فصول هذا الكتاب – ليست هي المتخلّفة .. وإنما التخلف فينا ، في عقلياتنا ونفسيّاتنا ، وفي مناهجنا وطرائقنا ، وفي تلهّينا بالقشور عن اللباب . ولسوفَ تظلُّ العربية الفصحى نافذتنا الوحيدة التي نطل منها على العالم كلِّه شرقاً وغرباً ، ولسوف تظل رمز وحدتنا ماكرَّ الجَديدانِ ، وتعاقبَ المَلَوان ** ..) .

---

* (دراسات في فقه اللغة) للدكتور صبحي الصالح ص ٣٦٠ ..

* الجديدان : الليل والنهار ، وكذلك المَلَوان ، مفردها مَلاً . والمقطع الأخير هو آخر ما جاء بنصّه للمؤلّف الدكتور صبحي الصالح ، ص ٣٦١ .

خَاتِـمَة

في خاتمة كتابنا (الوجـيز فـي فقـه اللغـة) آن لنـا أن نسـجّل رؤيتنـا لمعـالم الكتاب أوّلاً ومعالم (فقه اللغة) بوجه عام ثانياً لتبقى لدينا باقيةٌ فكريّة نخـرجُ بهـا ، بعد جولتنا الطويلة ، بثمرةٍ مُرضية ولو إلى حدٍّ متواضعٍ .

لقد حصل في علمنا أنّ كلمة الفقه بمعناها العام ، هـي أوسـع العلـم والفهـم ، نُعِتَ بِها الفقيه الدينيّ أوّلاً ، ولأن التفقّه في اللغـة جـزء مـن التفقـه فـي الديـن سَمَحَ بعضُ المؤلفين اللغويين القدامى لأنفسهم أن يجعلوا كلمة (فقه) فـي عنـاوين كتبهـم كما رأينا في كتاب ابن فارس المسمّى (الصاحبي في فقـه اللغـة وسـنن العـرب فـي كلامها) وكتاب أبي منصور الثعالبي (فقـه اللغـة وسرّ العربيّـة) ولـم نلمـس فرقـاً ملحوظاً بين (فقه اللغة ، وعلم اللغة ، فتعرّضنـا لنشـأة اللغـة بِوَجْـه عـام ، وتداولنـا رأيين مختلفين ؛ أحدهما يجعـل اللغـة توقيفيـةً مُلهَمـةً مـن خـالق الإنسـان للإنسـان ، والثاني يجعل اللغة متطوّرة عن الأصوات المبهمة بنَهْجٍ اصطلاحيٍّ تدخل فيه أكـابرُ الناس وحكماؤهم .

وكان العلماء اللغويّون والأثريّون قد اهتدوا إلى انتماء اللغات البشرية ، كُـلاًّ إلى فصيلةٍ ولم يتوصّلوا إلى تحديد دقيـق لعـدد لغـات العـالم ولكنهـم قـدّروه بخمسـة آلاف . وخرج العالم الألماني Max Muller ماكس مولر بتصنيف اللغـات العالميّـة بمجموعها إلى ثلاث أسر :

١- الهندية الأوربيّة

٢- الساميّة الحاميّة .

٣- الطُّورانيّة .

تقع اللغة العربية في أوسـطها وهـي الأسـرة السـاميّة الحاميّـة ، وهـي اللغـة الرئيسة الحية أو الفرع الأخضر الأهم في شجرة اللغات السامية .

لكن العربية نفسها ذاتُ عصرين . أولهما بائد والثاني باقٍ إلى اليوم منطلقاً من جاهلية ما قبل الإسلام إلى الوقت الحاضر .

وقبل أن ندخل في فقه اللغة العربية الباقية ، عرّجنا على خصائص اللغات السامية وصفاتها المشتركة . وركزنا على أهمية علم الأصوات ، ولا سيما الأصوات التي تمثلها الأبجدية أو الهجائية أو الهجائية العربيّة من صامتة وصائتة وما يطرأ عليها من طوارىء ، بعضها مما يسجّله علم الصرف ، وبعضها مما يتخلّف في اللهجات العاميّة المحلية في قطرٍ وآخر .

وفي حديثنا عن اللغة والمجتمع الإنساني وجدنا أن اللغة هي أهم الظواهر الاجتماعية المتطورة مما يرصده علم اللغة Lingustics أو فقه اللغة Philology . ولا حظنا أن لهجةً أو عدّة لهجات قد تتفرّع عن اللغة الأم ، فإذا اتّسعت المسافة بين لهجة ناشئة وبين أمّها الأصل ، أصبحت الفرصة مهيّأة لنشوء لغة جديدةٍ كما جرى بين اللاتينيّة والمتفرعات عنها كالإيطالية والإسبانية . وبتوفرِ عوامل متنوعةٍ من نفسيّة واجتماعية وجسميّة خَلقيّة ، وجغرافيّة تتشعّبُ اللغة الأم .. وهذا ما جرى للعربية الفُصحى فإذا بلهجاتٍ عامية قطّرية سائدةٍ في الخطاب والتفاهم المحلّي بينما بقيت اللغة الفصحى هي السائدة والمعترف بها بعاملٍ دينيّ وعاملٍ قومي هو عامل الانتماء إلى العروبة في وطنها المترامي الأطراف . وعامل التحّدي الذي يعرّض أمّة العربية للخطر .

وبوجهٍ عام ، جاء الحديث عن تطور اللغات ، ومنحى التطوّر اللغوي وحركة الجديد في اللغة المبنيّة على مصالح لا بدّ من تحقيقها .

وعرضنا إلى ملامح من الفقه اللغوي المقارن ، وخرجنا بنظرية توفيقية بين آراء عدّة ، لنجعل فقه اللغة المقارن Comparative Philology الموضوعَ الأهم بين موضوعات فقه اللغة اعتماداً على وسيلته الكبرى (علم اللغة) سواء ما كان وصفيّاً أو تجريبيّاً . وبوجهٍ عام من الفقه المقارن صدّرنا اللغة العربية الفصحى بين

اللغات العالمية الراقية وهي اللغات التحليلية analytiques التي تعتمد على القواعد الصرفية في توليد الألفاظ بمعانٍ إضافية بالنسبة للأصل الاشتقاقي .

ومع أن لغات العلم لغات متواشجة ، والعلاقات بينها قائمة من حيث النشأة الصوتية الأولى نجدها مضطرة إلى التبادل الدلالي المفصّل عن طريق الترجمة من لغةٍ إلى لغة .. هذا مما اضطرنا إلى التعرّض إلى إشكاليات الترجمة والنقل بعد إجْراءِ تطبيقٍ مُقارَن بين ما هو صوتيّ أو نحوي أو صرفي أو دلاليّ في اللغتين العربية والإنجليزية .

وإذا كانت هنالك علاقة منطقية بين اللغة والماهيّة ، نجد ماهيّة اللغة موّزعة بشكل رئيسي بين النحو والإعراب ، والصرف وعلم بنية الكلمة ، والبلاغة ، والمتون . وفي موضوع (فقه اللغة) لا تهمّنا المتون بمعنى النصّ الأدبي من شعرٍ منظومٍ ونثرٍ مسجوعٍ ومرسل . بل ينحصر اهتمامنا في تلك النصوص التي تُسجِّل قاعدية اللغة بالمقارنة مع قاعديات اللغات الأخرى ، وأوّلها المعاجم والقواميس .

وكانت اللغة العربية الفصحى من أسبق اللغات إلى التنصيص المتنّي والتأليف المعجمّي بدءاً من المعجم الشهير بالعَيْن ، للخليل بن أحمد الفراهيديّ وتنوّعت فيها المعاجم ، بين معاجم الموضوعات أو الأغراض المخصوصة ومعاجم المعاني ، والمعاجم الجامعة لمفرداتٍ ومعانيها . ولدى الخوض في خصائص العربية الفصحى وجدنا في بحرانها : الأصل السماعي ، وظاهرة الإعراب ، ومناسبة الحروف لمعانيها ، وقابلية الاشْتقاق والنحت ، وثبات الأصوات ، والغنى المعجميّ ..

وحكينا عن تطوّر الدلالة ، وتوصّلنا إلى استخلاص قوانين ثابتة مع شواهدها . ورصدنا اتجاهات التطور الدلالي ضمن الملاحظ القريب ، فكان منها الاتجاه إلى التخصيص ، والاتجاه إلى التعميم ، والاتجاه إلى المخالفة وهماً أو مجازاً ، والاتجاه إلى الدخيل لدعم الدلالة بدلالةٍ دخيلة أضحى لها ذيوعُها وانتشارها .

ولأننا على تمام القناعة بضرورة تعامل الدارس مع النصوص المحسوبة من (فقه اللغة) في القديم والحديث ، خصّصنا الباب الرابع والأخير من الكتاب للجمع بين تراجم فقهاء اللغة ونصوصٍ مما كتبوا في فقه اللغة العربية في القديم ، ثمّ انتقلنا إلى الحداثة والمعاصرة ..

شمل انتقاؤنا كُلاًّ من ابن جني وكتابه (الخصائص) ، وابن فارس وكتابه (الصاحبيّ) ، والثعالبي وكتابه (فقه اللغة وسرّ العربية) ، وجلال الدين السيوطي وكتابَهُ (المزهر) هذا من كتب التراث ، أمّا من كتب المعاصرة وأقلامها فلقد انتقينا المراجع المعتمدة لكلٍّ من الأساتذة والدكاترة : محمد المبارك ، علي عبد الواحد وافي ، محمود السّعران ، تمام حسّان ، إبراهيم أنيس ، صبحي الصالح ، وكان آخرها من أهم ما اعتمدنا عليه في تأليف هذا الكتاب ، ومعه كتاب زميلنا المرحوم العلاّمة اللغوي محمد الأنطاكي .. ومن الطريف أن يجيء كتابُه موافقاً في عنوانه لكتاب الدكتور صبحي الصالح بعنوان (دراسات في فقه اللغة) .

ولا نخفي أننا اقتصرنا في اطلاعنا على المراجع العربية لا انتقاصاً من مكانة المراجع الغربيّة والأوربيّة ، بل على العكس فلقد كنا على تمام الثقة بأن مراجعنا الحديثة اقتبست بشدّة من كُلِّ المراجع الغربيّة في (فقه اللغة) وفي (علم اللغة) ، حتى لم تدع زيادة لمستزيد . وكان من توفيق الله تعالى أن تضع المكتبة العربية المترجمة أحدث كُتبِها مُمَثّلاً بكتاب : (موجز تاريخ علم اللغة) (ashort history Of Linquistics) لمؤلّفه ر .هـ .روبِنز R.H.Robins ، ترجمهُ الدكتور أحمد عوض* . وهو كتاب مُلِمٌّ بالمراجع الأجنبية بغزارةٍ كبيرة ، والاستعانة بمادّة الكتاب تعني الاستعانة بمجمل تلك المراجع الأجنبيّة ، أو بروحها العامّ .

---

* سلسلة عالم المعرفة رقم ٢٢٧ ، تشرين الثاني ١٩٩٧ م .

أمّا عن رؤيتنا الخاصة لفقه اللغة فخلاصتها أنّه علم العلوم اللغوية بدءاً من الإلمام بالحروف التي هي ظاهرة صوتية وانتهاءً بالمُتون التي هي مؤلفات متعمقة في فقه اللغة ، هذا كلُّه مع الاستعانة بعلمِ اللغة وأدواته المخترعة حديثاً ومناهجه . وإذا كان لابدّ من التفريق بين العلم والفقه فهو ضرب من التفريق بين الخاص والعام ، أو بين الوسيلة والغاية ومع ذلك ، تجدنا قد اكتشفنا في هذا العلم القديم الحديث المتطوّر (فقه اللغة) جملةً من المواصفات تحقّقها الأمثلة الواقعية كلّما شئنا ضرب الأمثلة مما مرّ بنا في هذا الكتاب ، أو في المراجع الأُخرى .

أوّلاً : إنّ (فقه اللغة) علم متطوّر developing يستمر فيه تبدلات الأصوات* ، ويستمر معها تبدّل الدلالات . وهذا التطور تطوّر انتقائي من قبيل البقاء للأصلح وبما أن الأصلح يتغيّر دائماً فاللنويات التي تعيش معه تتغير وعلى (فقه اللغة أن يراعي ذلك ، كما راعاه في دراسة اللهجات التي صبّت أصلحها في العربيّة الفصحى أو دراسة اللاتينية التي تفرعت إلى أصلحها ، ممثّلاً في اللغات الأوربية الحديثة كالفرنسية والإيطالية والإسبانية ...

ثانياً : إن (فقه اللغة)علمٌ تبادلي mutual يتناول إفادة كلٍّ لغةٍ من الأخرى بحكم التجاور أو غيره ، إذا لا بدّ من التأثير والتأثر ، ليس فقط بالاقتباس المعجمي كتعريب الدخيل مثلاً ، وكاستمداد الإسبانية والتركية والإيرانية من القاموس العربي . وإنّما هنالك ميادين أخرى لتبادل التأثير والتأثر ، ومنها ما يمسّ طبيعة اللغة نفسها ، فالعربيّة الفصحى التي هي لغة تحليليّة لها نظامها الصرفي في توليد المفردات تقبلّت أخيراً آلية اللغات الإلحاقية في توليد مفرداتها من سوابق Prefixes ولواحق** suffixes وأدرجها على سبيل المثال إدخال سابقة النفي (لا) في

---

* انظر (دراسات في فقه اللغة) لمحمد الأنطاكي ص ٢١١ .

** انظر (دراسات في فقه اللغة) لصبحي الصالح ص ٢٥٣ .

المسميّات والمصطلحات العلمية ، ومن ثَمَّ إدخال (الـ) التعريف على (لا) وكأنها اسم لاحرف من حروف النفي ، فيقال :

اللامبالي ، اللاسلكي ، اللاإراديّ ..

ومن ذلك انتشار استعمال الترميز بـأوائل الكلمات لتوليد كلمة واحدة عند الضرورة وهذا مما يعرف بالإنجليزية initals مع الاحتفاظ بلاتينيّتها في معظم الأحوال مثل ألفاظ :

يونسكو ، إيدْز أو سيدا ، ناسا* ..

ثالثاً : إنّ (فقه اللغة) علم مُقارَن Comparative فهو لا يتصوّر بلا مقارنات بين اللغات المختلفة لجهة الصوتيّات والدلالات والبُنى التركيبية وسواها** . وقد انتهز بعضُ المؤلفين هذه الخاصة المقارنة ليكتبوا في (فقه اللغة المقارن) كتباً خاصة بذلك الموضوع*** .

رابعاً : إن (فقه اللغة) علم تجريبي : experimental فهو منذ القديم قد اعتمد على استقراءات وتجارب صوتية وغيرها ومن ذلك خروج علماء اللغة إلى البدو واستشهادهم في التراكيب النحوية والضبط والتشكيل ليقرنوا القاعدة بالشاهد المعتمد . وكل ما يتعلق بالصوتيات في اللغات جميعاً قد خضع إلى تجارب علمية حتى استقرّت المعلومات حول الجهاز الصوتي لدى الإنسان ودرست علاقة الصوت

---

* مسميات دارجة بالعربية المعاصرة لمنظمة الأمم المتحدة للثقافة والعلوم ، ومرض نقص المناعة المكتسب ، ووكالة الفضاء الأمريكية .

** راجع (دراسات في فقه اللغة) للأنطاكي ص ٢٧٧ ، ولصبحي الصالح ص : ٣٠٢ ، ٢٨٦ ، ٨٦ ، ٣٤ .

*** إبراهيم السامرائي في كتابه : فقه اللغة المقارن .

بالشّكل من خلال تجربة أومبوبو وكيكيريكي* الطريفة ، كما أجرى الباحث إبراهيم أنيس في كتابه (الأصوات اللغوية) بحثاً استقرائياً عن شيوع الحروف الحبيسات في لغة القرآن الكريم** .

خامساً : إنّ (فقه اللغة) علم مشترك :Common ، وهو بهذا المعنى أمميّ وتاريخي ومشترك بين الشعوب .

فالعناية باللغة وبالمشكلات اللغوية العملية قد أدّت إلى نشأة العلم اللغوي في أكثر من مركز من مراكز الحضارة ، وبمرور التاريخ اتصل كل مركز منها بالتراث اللغوي الأوربي وساهم فيه ، ولم يكن علم اللغة الأوربي ليصبح في الوضع الذي هو عليه من التطوّر لولا أن رفدتْهُ الأعمال اللغوية من خارج أوربا ، خاصة مؤلفات اللغويين القدماء عن قواعد اللغة السنسكريتية ونظامها الصوتي*** .

سادساً : إن (فقه اللغة) علم شامل : Comprehensive ، يتسع مداه ليتناول لغات بني الإنسان وما يتعلق بها . فعلينا أن نبدأ بجمع ما يمكننا من المعلومات عن اللغات الإنسانية المختلفة لنخرج أخيراً بالسُّنن العامّة والقوانين الثابتة في علم اللغة العام ، وفي ضوئها نحدّد خصائص لغتنا المدروسة بطريقةٍ وصفيّة استقرائية كصنيعنا في فقه اللغة العربية**** . وبالنظرة الشاملة إلى اللغات

---

* انظر كتاب الأنطاكي (دراسات في فقه اللغة) ص ٣٠٠

** المرجع نفسه ص ١٧٢ - ١٧٣

*** (موجز تاريخ علم اللغة) ترجمة د.أحمد عوض ص ٢٣ .

**** انظر (دراسات في فقه اللغة) للدكتور صبحي الصالح ص ٣٥ ، و ص ٤٥ .

الإنسانية عرف اللغويون أن اللغة الإنسانية بدأت عازلةً isolantes إفرادية ، ثم ارتقت إلى إلصاقيّة ذات سوابق ولواحق : agglomerantes ، ثم ارتقت إلى تحليليّة analytiques وهذا هو مستوى اللغة العربية بين اللغات .

إلى هاهنا ، نكون قد أدّينا بحثاً وجيزاً وشاملاً في فقه اللغة ، محاولين جهد الاستطاعة ألاّ نقتصر على دراساتٍ محدودة في فقه اللغة ، محققين للنظرة الشاملة بما يستوعب علم اللغة وفقه اللغة في وعاءٍ واحدٍ أو بين دفّتي كتاب .

ثَبْتُ الْمُؤَلِّفِيْنَ وَالْمَرَجِعِ

- **د . إبراهيم أنيس :**

الأصوات اللغوية ، مكتبة نهضة مصر ، بلا تاريخ .

- **إبراهيم السامرّائي :**

فقه اللغة المقارَن ، بيروت ١٩٦٨

- **ابن الأنباري :**

نصوص من الإنصاف في مسائل الخلاف ، دمشق ١٩٥٤ .

- **ابن جنّي :**

الخصائص ، دار الكتب المصرية ، ج١ ١٩٥٢ .ج٢ ١٩٥٥ ، ج٣ ١٩٥٦

الخصائص ، ج١ ١٩١٣ . (مطبعة الهلال) .

- **ابن خلدون :**

(المقدمة) ، بيروت ، ط ع ، ١٩٧٨م .

- **ابن فارس :**

الصاحبيّ في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، بيروت ١٩٦٤م .

- **ابن منظور :**

لسان العرب ، بيروت ١٩٥٥م .

- **أحمد الإسكندري ومصطفى عناني .**

الوسيط في الأدب العربيّ ، دار المعارف بمصر ١٩١٦م .

- **د . أحمد موقّت :**

علم اللغة والترجمة ، دار القلم العربي بحلب ١٩٩٧م .

- **إبراهيم اليازجي :**

لغة الجرائد ، الإسكندرية ، بلا تاريخ .

- **أمين طاهر خير الله :**

اللؤلؤ المنضود في دفع نقود ، بيروت ١٩٢٩م .

- **د . تمام حسّان :**

مناهج البحث في اللغة ، القاهرة : ١٩٥٥م .

- **الثعالبي :**

فقه اللغة وسرّ العربيّة ، القاهرة : ١٩٥٢م .

- **جبر ضومط :**

فلسفة اللغة العربية وتطورها ، مصر ١٩٢٩ .

- **جبّور عبد النور وسُهيل إدْريس :**

المنهل القريب ، معجم فرنسي عربي . بيروت ١٩٧٥ .

- **جرجي زيدان :**

الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية ، **مصر** ١٩٢٣ .

- **جلال الدين السيوطيّ :**

تاريخ الخلفاء ، دار القلم العربي بحلب ١٩٩١م

- **جلال الدين السيوطي :**

المزهر في علوم اللغة العربية وأنواعها ، مصر ، بلا تاريخ .

- **جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي :**

تفسير الجلالين ، مصر ١٩٥٢

- **حفني ناصف ورفاقه :**

دروس اللغة العربية (مصوّر عن الطبعة السابعة) ١٩٨٨م .

- **د . ربحي كمال :**

دروس اللغة العبريّة (عن الطبعة السابعة ، أصدرته مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية ١٩٨٨م) .

- **ر . هـ . روبنز ترجمة الدكتور أحمد عوَض :**

موجز تاريخ علم اللغة ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة رقم ٢٢٧ ، ١٩٩٧م .

- **سعيد الأفغانيّ :**

في أصول النحو ، دمشق ١٩٥١ .

- **د . صبحي الصالح :**

دراسات في فقه اللغة ، (عن الطبعة الثالثة ، إصدار مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية ١٩٨٨م) .

- **عبّاس حَسَن :**

النحو الوافي . مصر ١٩٦٦م .

- **عبد القادر محمد مايو :**

القانون في الصَّرف ، مخطوط .

- **عبد القادر محمد مايو :**

القانون في النحو ، دار القلم العربي بحلب ١٩٩٧م .

- **د . عبده الراجحي :**

فقه اللغة في الكتب العربية ، بيروت ١٩٧٩م .

- **عبد الفتاح الصعيدي وحسين يوسف موسى :**

الإفصاح في فقه اللغة ، بيروت ١٩٨٧

- **عبد الوهّاب الصابوني :**

عيون المؤلفات ، حلب ١٩٩٢م .

- **عز الدين إبراهيم و دنيز جونسون دافيز :**
متن الأربعين النووية ، ألمانيا ١٩٧٧م .

- **د . علي عبد الواحد وافي :**
علم اللغة ، مصر ١٩٦٢م .
فقه اللغة ، مصر ١٩٦٢م .
اللغة والمجتمع ، مصر ١٩٤٦م .

- **فيليب حتّي ورفيقاه :**
تاريخ العرب ط . ٩ . لبنان ١٩٩٤م .

- **د . كمال محمد بِشْر :**
دراسات في علم اللغة ، مصر ١٩٦٩م .

- **لفيف من الأساتذة :**
تاريخ الآداب العربية ، الإسكندرية ١٩٢٧م

- **لويس معلوف اليسوعي :**
المنجد ، ط ٩ ، بيروت ١٩٣٧م
المنجد في اللغة والأعلام بيروت ١٩٩٢م

- **محمد الأنطاكي :**
دراسات في فقه اللغة ، بيروت ١٩٦٩م .

- **محمد الأنطاكي :**

المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها ، بيروت ١٩٧١م .

- **د . محمود السَّعران :**

علم اللغة (إصدار مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية ١٩٩٤)

- **محمد كرد علي :**

القديم والحديث ، مصر ١٩٢٥م .

- **محمد فؤاد عبد الباقي :**

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، مصر ١٣٧٨هـ .

- **محمّد المبارك :**

فقه اللغة وخصائص العربية ، بيروت ١٩٦٨م .

- **مصطفى الغلاييني :**

جامع الدروس العربية ، صيدا لبنان ١٩٥٣م .

- **منير البعلبكي ، معجم إنكليزي عربي ، بيروت ١٩٦٧م**